

# نبیج محفوظ

خان اخیلیلی



19.3.2017



نجیب محفوظ

خان اخنیلی

دارالشروع

# خان اخیلیلی

خان اخیلیلی  
آنچه باید بدانید  
آنچه باید بدانید

خان اخیلیلی  
خان اخیلیلی

خان اخیلیلی  
خان اخیلیلی

خان اخیلیلی  
خان اخیلیلی



خان الخليلي

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التوني

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

الطبعة السادسة ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: أدب / روايات

© دار الشروق

شارع سبويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تلفون: ٢٤٠ ٢٣٣٩٩

[www.shorouk.com](http://www.shorouk.com)

رقم الإيداع ٢٠١١/١٧٤٤٩

ISBN 978-977-09-3078-6

انتصفت الساعة الثانية من مساء يوم من سبتمبر سنة ١٩٤١ ، موعد انصراف الدواوين ، حين تنطلق جماعات الموظفين من أبواب الوزارات كالفيضان العارم ، وقد نهكها الجوع والملل ، ثم تنتشر في الأرض طاردها أشعة الشمس الموقدة . انطلق أحمد عاكف - الموظف بالأشغال - مع المنطلقين . وكان من عادته أن يتخذ سبيله في مثل تلك الساعة من كل يوم إلى السكاكينى ، أما اليوم فوجهته تتغير فتصير الأزهر لأول مرة . حدث هذا التغير بعد إقامة فى السكاكينى طويلة امتدت أعواما مديدة ، واستغرقت عقودا من العمر كاملة ، وادخرت ما شاءت من ذكريات الصبا والشباب والكهولة . وأعجب شيء أنه لم يفصل بين التفكير في الانتقال وحدوده إلا أيام معدودات ؛ كانوا مطمئنين إلى مسكنهم القديم ، يحال إليهم أنهم لن يفارقوه مدى العمر ، وما هي إلا عشية أو ضحاما حتى صرخت الخناجر : «تبال لهذا الحى المخيف» وغلب الخوف والجزع ، ولم تعد ثمة فائدة ترجى من مراجعة الأنفس المذعورة ، وإذا بالبيت القديم يصحي ذكرى الأمس الدابر ، وإذا بالبيت الجديد في خان الخليلى حقيقة اليوم والغد ، فحق لأحمد عاكف أن يقول متتعجا : «سبحان الذى يغير ولا يتغير !». كان الرجل من أمر هذا الانتقال المفاجئ فى حيرة . كان قلبه ينazuءه إلى المقام القديم الحبيب ، ويمتلئ حسرة كلما ذكر أنه قد ذُف به إلى حى بلدى عتيق ، إلا أنه لم ينس ما خامره من شعور الارتياب حين علم أنه ابتعد عن جحيم ينذر بالهلاك

المبين، ولعله أن ينعم الليلة بأول رقاد آمن بعد تلك الليلة الشيطانية التي زلزلت أفئدة القاهرة زلزاً شديداً. وبين الحزن والتعزى، والأسى والتأسى، مضى يذرع الطوار فى انتظار ترام يوصله إلى ميدان الملكة فريدة، وقد ابتلى جبينه عرقاً، وكانت الحال لا تخلو من لذة طريفة، ذلك أنه مقبل على استجلاء جديد، واستقبال تغيير: مرقد جديد ومنظر جديد وجوه جديد وجيران جديد، فلعل الطالع أن يتبدل، ولعل الحظ أن يتجدد، ولعل مشاعر خامدة أن تنفس عن صفحتها غبار الجمود وتبعث فيها الحياة واليقظة من جديد. هذه لذة الاستطلاع ولذة المقامرة ولذة الجرى وراء الأمل، بل هي لذة استلاء خفية ناشئة من انتقاله إلى حى دون حيه القديم متزلة وعلماً. ولم يكن رأى المس肯 الجديد بعد، إذ بوشر نقل الأثاث منذ الصباح الباكر وهو فى وزارته، وهذا هو ذا يقصد إليه كما وصف له، وجعل يقول لنفسه: إنه مسكن مؤقت وإنه ينبغي أن يحتمله مدة الحرب وبعدها يأتي الفرج. وهل كان فى الإمكان خيراً مما كان؟ وهل من الحكمة أن يلبشوافى الحى القديم على مرأى ومسمع من الموت المخيف؟ مضى يذرع الطوار لأنه لم يكن يتحمل الجمود طويلاً، وكأنما سوت أعصابه من قلق، وكان يدخن سيجارة بعجلة دلت على انشغاله، فبدأ فى اضطراب حركته وقلق مظهره وشذوذ هندامه كهلاً متعباً ضيق الصدر تلوح فى عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عما حوله، كان يدنو من ختام الأربعين، عسياً أن يستر على الانتباه بنحافة قامته وطولها واضطراب ملابسه اضطراباً يستدر الرثاء، والواقع أن تكسر بنطلوه وانحسار ذراعي الجاكيت عن رسغيه، وتلبد العرق على حرف طربوشة، وتقبض القميص ورثائة رباط الرقبة، وصلعته البيضاوية، وسعى المشيب إلى قذاله وفوديه، كل أوائله أوهم بتكبير سن، وفيما عدا ذلك فوجهه نحيل مستطيل، شاحب اللون، ذو رأس صغير مستطيل ينحدر انحداراً خفيفاً إلى جبهة تميل إلى الضيق، يحدوها

حاجبان مستقيمان خفيفان متبعادان، يظلان عينين بالغتين في  
امتدادهما وضيقهما، فهما تكادان أن تملأاً صفة الوجه الضيقة؛ فإذا  
ضيقهما ليحد بصره أو ليتلقى شعاع الشمس بدتتا مغمضتين واحتفي  
لونهما العسلى العميق، وقد تساقطت أهدابهما وأحرمت أشفارهما  
احمراراً خفيفاً؛ يتوسطهما أنف دقيق وفم رشيق الشفتين وذقن صغير  
مدبب. ومن عجب أنه عديوماً من يعنون بحسن هندامهم وأناقتهم،  
وبداً إذ ذاك في صورة مقبولة، ولكن اليأس والحرص وما اعتراه بعد  
ذلك من داء التشبه بالمفكرين نزع به عن آية عناية بنفسه أو بلباسه.

استقل الترام رقم «١٥» وقد افترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة كشفت  
عن أسنانه مصفرة من فعل التدخين. ومن ميدان الملكة فريدة أخذ الترام  
رقم «١٩». وقد ارتكب خطأ سهوا، فرمى بحكم العادة بالذكرى التي  
قطعها في الترام الأول وكانت توصله إلى الأزهر، واضطر أن يقطع  
تذكرة جديدة ضاحكاً من نفسه في غيظ، وألمه حرصه على تفاهة  
الغرم. والحق أنه تعود منذ زمن بعيد أن يكون رب أسرة، وإن بقى لحد  
الآن أعزب، بيد أنه لا ينفق مليماً بغير تملل، فحراصه ليس من العنف  
بحيث يغله عن الإنفاق، ولكنه لا يغطيه أبداً من التأمل كلما وجد  
الإنفاق.

وانتهى إلى ميدان الأزهر، واتجه إلى خان الخليلي يتسمت هدفه  
الجديد، فعبر عطفة ضيقة إلى الحى المشود، حيث رأى عن كثب  
العمارات الجديدة تمتد ذات اليمين ذات الشمال، تفصل بينها طرقات  
ومرات لا تحصى، فكأنها ثكنات هائلة يضل فيها البصر. وشاهد فيما  
حوله مقاهى عامرة ودكاكين متباينة. ما بين دكان طعمية ودكان تحف  
وجواهر. ورأى تiarات من الخلق لا تنقطع، ما بين معمم ومطربيش  
ومقبيع، وملائت أذنيه أصوات وهتافات ونداءات حقيقة بأن تثير أعصاباً  
قلقة كأعصابه؛ فتولاه الارتباك وأضطربت حواسه، ولم يدر أيان

يسير، فدنا من بواب نوبى اقتعد كرسيا على كثب من أحد الأبواب  
وحياته ثم سأله قائلاً:

- من أين الطريق إلى العمارة رقم «٧» من فضلك؟

فنهض الباب بأدب وقال مستعينا بالإشارة:

- لعلك تسأل عن الشقة رقم «١٢» التي سكنت اليوم؟ .. انظر إلى  
هذا الممر، سر به إلى ثانى عطفة إلى يمينك فتصير في شارع إبراهيم  
باشا، ثم إلى ثالث باب إلى يسارك فتجد العمارة رقم «٧».

فشكره وانطلق إلى الممر مغمما «ثانى عطفة إلى اليمين.. حسناها  
هي ذى.. وها هو ثالث باب إلى اليسار، العمارة رقم «٧». وترتبط  
قليلًا ليلقى نظرة على ما حوله. كان الشارع طويلا في ضيق، تقوم على  
جانبيه عمارتى مربعة القوائم تصل بينها مرات جانبية تقاطع الشارع  
الأصلى، وتزحم جوانب الممرات والشارع نفسه بالحوانىت؛ فحانوت  
ساعاتى وخطاط وآخر للشاي ورابع للسجاد وخامس رفاء وسادس  
للتحف وسابع وثامن إلخ. وتقع هنا وهناك مقاهي لا يزيد حجم  
الواحدة على حجم حانوت. وقد لزم البابون أبواب العمارتى بوجوه  
كالقطران وعمائم كالحليب وأعين حالة كأنما خدرتها الروائح العطرية  
وذرات البخور الهائمة فى الفضاء، والجحوم متلتف بغلالة سمراء كأن الحى  
في مكان لا تشرق عليه الشمس، وذلك لأن سماءه فى نواحى كثيرة منها  
محجوبة بشرفات توصل ما بين العمارتى، وقد جلس الصناع أمام  
الحوانىت يكتبون على فنونهم فى صبر وأناء ويبدعون آيات بينات من  
أفانين الصناعة، فالحى العتيق ما يزال يحتفظ باليد البشرية بقدم سمعتها  
فى المهارة والإبداع، وقد صمد للحضارة الحديثة يلقى سرعاها  
الجنونية، بحكمته الهدئه وأليتها المقدمة بفنه البسيط وواقعيتها الصارمة  
بخياله الحالم ونورها الوهاج بسمرته الناعسة. قلب فيما حوله طرفا  
حائرا وتساءل هل يستطيع أن يحفظ هذا الحى الجديد كما كان يحفظ

حيه القديم؟! وهل يمكن أن يشق سبيله يوماً وسط هذا التيه تقوده قدماء وقد انشغل بما ينشغل به من أمور دنياه؟.. ثم اقتحم الباب مغمماً: «بسم الله الرحمن الرحيم» وارتقى درجات سلم حلزوني إلى الطابق الثاني حيث عثر بالشقة رقم «١٢». وابتسمت أساريره لرؤية الرقم كأنه قديم عهد به وأنس إليه في وحشته، ودق الجرس، فانفتح الباب، وظهرت أمه على غتبتها تلوح في ثغرها ابتسامة ترحيب، وأوسعت له مستضحة وهي تقول: «أرأيت إلى هذه الدنيا العجيبة!» فجاز الباب وهو يقول مبتسمـاً: «مبـارك عـلـيـك بـيـتـ الـجـدـيدـ!». فـضـحـكتـ عنـ أـسـنـانـ مـصـفـرـةـ لأنـهاـ كـانـتـ مـوـلـعـةـ بـالـتـدـخـينـ.ـ كـابـنـهـاـ وـقـالـتـ بـلـهـجـةـ المـعـتـذـرـ:ـ قـصـارـىـ مـاـ وـسـعـنـاـ الـيـوـمـ أـنـ نـفـرـشـ حـجـرـتـكـ وـحـجـرـتـنـاـ..ـ وـكـانـ يـوـمـ مـتـعبـاـ حـقاـ،ـ وـلـقـدـ كـسـرـتـ قـائـمـةـ أـحـدـ الـكـرـاسـىـ عـلـىـ مـاـ بـذـلـنـاـ مـنـ حـرـصـ،ـ وـتـقـشـرـ مـسـنـدـ سـرـيرـكـ فـىـ بـعـضـ الـمـواـضـعـ..ـ

وـوـجـدـ أـحـمـدـ نـفـسـهـ فـىـ صـالـةـ صـغـيـرـةـ مـزـدـحـمةـ بـأـحـزـمـةـ الـمـتـاعـ وـالـمـقـاعـدـ وـقـطـعـ الـأـثـاثـ،ـ وـضـعـتـ السـفـرـةـ فـىـ وـسـطـهـاـ وـحـمـلـتـ بـالـآنـيـةـ وـلـفـاتـ الـأـبـسـطـةـ،ـ وـكـانـ بـهـاـ بـاـبـانـ عـلـىـ يـيـنـ الدـاخـلـ وـفـىـ مـوـاجـهـتـهـ،ـ فـنـظـرـ فـيـماـ حـولـهـ فـىـ صـمـتـ،ـ أـمـاـ الـأـمـ فـرـاحـتـ تـقـوـلـ:

الـلـهـ يـعـلـمـ أـنـيـ لـمـ أـذـقـ لـلـرـاحـةـ طـعـمـاـ فـيـ يـوـمـيـ هـذـاـ،ـ فـيـاـ لـشـقـاءـ الـأـمـ الـتـىـ لـمـ تـنـجـبـ أـنـشـىـ تـسـعـيـنـ بـهـاـ عـنـدـ الـحـاجـةـ،ـ وـلـقـدـ هـرـبـتـ أـنـتـ إـلـىـ وزـارـتـكـ وـقـبـعـ أـبـوـكـ فـىـ حـجـرـتـهـ كـعـادـتـهـ،ـ وـلـمـ يـتـورـعـ-ـغـفـرـ اللـهـ لـهـ-ـ أـنـ سـأـلـنـىـ مـنـذـ هـنـيـهـ عـمـاـ هـيـأـتـ لـكـمـ طـعـامـ؟ـ كـأـنـاـ يـسـأـلـ سـاحـرـةـ تـقـدرـ عـلـىـ كـلـ شـىـءـ؟ـ وـلـكـنـ مـنـ حـسـنـ الـحـظـ أـنـ حـيـنـاـ الـجـدـيدـ غـنـىـ بـأـكـوـلـاتـهـ السـوـقـيـةـ،ـ وـلـقـدـ أـرـسـلـتـ الـخـادـمـ لـتـبـيـعـ لـنـاـ طـعـمـيـةـ وـسـلـطـةـ وـبـاـذـنجـانـاـ..ـ فـتـحـلـبـ رـيقـ أـحـمـدـ لـسـمـاعـ اـسـمـ الطـعـمـيـةـ وـلـاحـ الرـضـاءـ فـىـ بـرـيقـ عـيـنـيـهـ،ـ ثـمـ سـأـلـ أـمـهـ:

- وهل ارتاح أبي واطمأن؟

فابتسمت المرأة بتسامة لطيفة دلت على أن بلوغها الخامسة والخمسين لم يفقدها كل ما كان لها من دلال أنسوى، وقالت:

- ارتاح واطمأن والحمد لله وعسى أن يصدق رأيه، ولكن الشقة صغيرة والحجرات ضيقات، فحشرنا الأثاث فيها حشراً و«اللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين»!

وجعل يصفع إلى أمه ويتفحص ما حوله، فرأى ردهة تتدلى يسار القadam، على يمينها تقع حجرتان، وفي الناحية المقابلة المطبخ والحمام. وقد أشارت أمه إلى الحجرة التي تواجه باب الشقة الخارجى وقالت له: «حجرتك»، أما حجرتا الردهة فقد أعدت أولاهما لنوم والديه، وقالت أمه عن الأخرى: «سنحتفظ فيها بأثاث أخيك ونتركها حالية على ذمته» ومضى الرجل إلى حجرة والده فرأى الشيخ مقتنعا سريره تلوح في عينيه نظرة هدوء واستسلام. وكان عاكف أفندي أحمد. كابنه - طويلا نحيفا ذاتية كثة بيضاء، وقد وضع على عينيه عوينات غليظة وبعثت في نظرته الذابلة بريقا خداعا، وقد حدق ابنه بحذر ورببة وتوثب لرد العدون إذا حدث الرجل نفسه بالتهمم بسبب النقل إلى البيت الجديد، وحياة أحمد وقال له:

- مبارك يا أبنتى!

قال الشيخ بهدوء:

- الله يبارك فيك، كل شئ بأمره!  
فهز أحمد رأسه وقال:

- ولكنتنا بالغنا في خوفنا مبالغة تنكب بنا عن جادة الصواب. لا ترى يا أبنتى أن ما بين السكاكينى وخان الخليلى أدق من أن يدركه الطيار المحلق في السماء؟!

فقال الأب بحزم:

- هذا الحى فى حمى الحسين رضوان الله عليه، وهو حى الدين والمساجد، والأمان أعقل من أن يضرروا قلب الإسلام وهم يخطبون ود المسلمين؟

فابتسم أحمد وقال:

- وإذا ضرب خطأ كما ضرب السكاكينى خطأ من قبل؟!

فقال الرجل وقد ضاق صدره:

- لا تجادل فى الحق، إنى متفائل بهذا المكان خيراً، وأمك به راضية، وإن كانت ثرثارة لا تعرف الحمد والشكر، وأنت نفسك مطمئن راض، ولكنك تدعى حكمة زائفة، وتتظاهر بشجاعة كاذبة، هلم فاخلع ثيابك ودعنا نتناول غدائنا!

فابتسم أحمد وتراجع إلى حجرته وهو يقول لنفسه: «صدق أبي» وألقى على حجرته نظرة فاحصة فوجدها قد وسعت أثاثه تحت ضغط محا ما كان لها من تناسق؛ فعلى الشمال الفراش، وعلى اليمين صوان الملابس، تليه المكتبة كدست على كتب منها الكتب، وكان بها نافذتان فرغب أن يلقى نظرة عجلى من كل منها، فدلل من اليمنى وفتحها، وكانت تطل على الطريق الذى جاء منه، ومنها استطاع أن يتبعين معالم الحى من عل، فرأى أن العمارات شيدت على أضلاع مربع كبير المساحة، وأقيمت فى ساحة المربع التى تحيط بها العمارات مربعات صغيرة من الحوانيت تلتف بها المرات الضيقية، فكانت نوافذ العمارات وشرفاتها الأمامية تطل على أسطح الحوانيت، وتأخذ نصيبها من الهواء والشمس، ولا يحجب عنها بقية العمارات حجاب، فكان الناظر من إحدى النوافذ الأمامية يرى مربعاً كبيراً من العمارات ينظر هو من نقطة فى أحد أضلاعه، ويرى فى أسفله مربعات كثيرة من أسطح الحوانيت، تخترقها شبكة معقدة من المرات والطرق، ورأى فيما وراء ذلك

مئذنة الحسين في علوها السامق تبارك ما حولها. فارتاح الرجل لانطلاق الفضاء أمامه لأن أخوف ما كان يخافه أن ينظر فلا يرى إلا جدراناً صماء، ثم تحول إلى النافذة الأخرى التي تواجه باب الحجرة وفتحها فرأى منظراً مختلفاً، ففي أسفل طريق ضيق يوصل إلى خان الخليلي القديم مغلقة حواناته فبداً مهجوراً، وعلى الجانب الآخر من الطريق جانب من عمارة تواجهه نوافذها وشرفاتها عن قرب، ثم تبين له أن سطحى العمارتين متصلان في أكثر من نقطة وأن أطباقهما المقابلة متصلة كذلك بالشرفات مما جعله يحسب أنهما عمارة واحدة ذات جناحين، وفي الطرف الأيسر من الطريق يبدأ خان الخليلي القديم، وقد رأه الرجل من نافذته أسطحه بالية، ونوافذ متداعية، وأسقفاً من القماش والأخشاب تظل الطرق المشابكة، وفيما وراء ذلك تملأ الفضاء المآذن والقباب وقمم الجومع وأسوارها، تعرض جميعاً صورة من الجو للقاهرة المعزية. وكان يرى ذلك المنظر لأول مرة، فأكابرها على نفوره من الحي الجديد، ومضى يسرح الطرف في مشاهده الغربية المتراصة، وهي مشاهد حقيقة بأن تدهش عينين لم تألفاً غير الورق، ولا عهد لهما بأيات الطبيعة أو الآثار، على أنه لم يجد من الوقت متسعًا، فما لبث أن سمع نقراً على الباب وصوت أمه يدعوه قائلاً:

- الطعمية جاهزة يا سعادة البيك ..

فأغلق النافذتين وخلع بذلته، ثم ارتدى جلباه وطاقيته، وهو يدعوه ربه قائلاً: «اللهم اجعله سكناً مباركاً» إلا أنه - في نفس اللحظة وقبل أن يفارق الحجرة - جاءه صوت أحش من الطريق يصيح غاضباً: «الله يخرب بيتك ويحرق قلبك يابن..» فرد صوت آخر بأقبح ما قدف به، مادل على أن اثنين يتقدّمان بالسباب كعادتهم أهل البلد، فامتعض الكهل ولعنهما ساخطاً وغمغماً قائلاً: «أعوذ بالله من الشؤم والتشاؤم»، ثم غادر الحجرة ..

وأكل أذ طعمية ذاقها في حياته، وأطراها بغير تحفظ، فسر أبوه وعد ذلك الإطراء إطراء للحى الجديد، فقال بحماس كبير:

أنت لا تدرى عن حى الحسين شيئاً، فيها هنا أذ طعمية وأشهى فول مدمس، وأطعم كباب وأحسن نيفة وأمتع كوارع وأنفس لحمة راس، هنا الشاي المنعدم النظير والقهوة النادرة المثال، هنا نهار دائم وحياة متصلة ليلاً ونهاراً.. هنا ابن بنت رسول الله وكفى به جاراً ومجبراً !!

ورجع بعد الغداء إلى حجرته، واستلقى على الفراش ينشد قسطاً من الراحة، وقد أقر فيما بينه وبين نفسه بأن دواعي سروره بالحى الجديد لا تقل عن بواعت ضيقه به. وقلب عينيه في أنحاء الحجرة حتى استقرتا على أكdas الكتب المتراءصة على كثب من المكتبة لم يهيا لها التنظيم بعد، فثبتت عليها بصره في ارتياح وسخرية، هذه كتبه المحبوبة، وجميعها باللغة العربية؛ لأنـهـ على عهد الدراسةـ لم يصب تفوقاً في الإنجليزية فأهملها مضطراً بعد ذلك وأنسيها أو كاد، وأكثر من ثلثها كتب مدرسية في الجغرافيا والتاريخ والرياضـةـ والعلومـ، وبها عدد لا يأسـ بهـ من مراجعـ القانونـ ومثلـهـ من كتبـ المنـفـلـوطـيـ والمـويـلـحـيـ وـشـوـقـيـ وـحـافـظـ وـمـطـرانـ، ومـجمـوعـةـ منـ الكـتـبـ الـأـزـهـرـيـةـ الصـفـراءـ فـيـ الـدـيـنـ وـالـمـنـطـقـ تـاهـ بـصـفـرـتهاـ عـجـباـ وـاعـتـبـرـهاـ آـيـةـ الـعـلـمـ الـغـسـيرـ الـذـىـ لـاـ يـنـفـذـ إـلـىـ حـقـائـقـهـ إـلـاـ أـقـلـوـنـ، وـهـىـ لـاـ تـخلـوـ كـذـلـكـ مـنـ بـعـضـ مـؤـلـفـاتـ الـمـعاـصـرـينـ الـتـىـ يـعـدـ اـقـتـنـاؤـهـ تـفـضـلـاـ مـنـهـ. هـذـهـ هـىـ مـكـتـبـتـهـ الـمـحـبـوبـةـ أـوـ هـىـ جـلـ حـيـاتـهـ

جميعاً. كان قارئاً نهما لا تروى له غلة، وقد أدمى على القراءة إدماناً فاتلاً، وأكَبَ عليها عشرين عاماً كاملة من عام ١٩٢١ - تاريخ حصوله على البكالوريا - إلى عام ١٩٤١ ، فاستغرقت حياته الباطنة والظاهرة، وتركزت فيها مشاعره ونوازعه وأماله جميعاً، بيد أنها امتدت منذ البدء بخصائص لم تفارقها مدى العشرين عاماً، وهي أنها قراءة عامة لا تعرف التخصص ولا العمق، نزاعة إلى المعارف القديمة، سريعة مضطربة، ولعل السبب في عدم تركيزها ما كان من اضطراره إلى الانقطاع عن الدراسة بعد البكالوريا، مما لم يهيئ له فرصة منتظمة للتخصص .

وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة في حياته الاجتماعية والنفسية؛ لم ينج من شرها مدى الحياة، أما سببه؛ فهو أن أباًه أحيل على المعاش في ذلك الوقت - وكان يشارف الأربعين - لإضاعته عهدة مصلحية بإهمله، وتطاوله على المحققين الإداريين ، فأُجبر أحمد عاكف على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطمة ويربي أخيه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثاني موظفاً بينك مصر . وكان أحمد طالباً مجدداً وطموحاً واسع الآمال ، رغب من أول الأمر في دراسة القانون ، وطبع في أن تنتهي به دراسته إلى مثل ما انتهت بسعد زغلول نفسه؛ وطُوحت به الأحلام والأمانى ، فلما أُجبر على الانقطاع عن الدراسة أصابت أمالمه طعنة قتالية دامية ، ترَّنَّحَ من هولها ، واجتاحته ثورة عنيفة جنونية حطمته كيانه ، فامتلأت نفسه مرارة وكتمداً . ووَقَرَ في أعماقه أنه شهيد مضطهد ، وعُبْرِيَّة مقبرة ، وضعفية مظلومة للحظ العاشر . وما انفك بعد ذلك يرثي عبقريته الشهيدة ويحتفل بذكرها المناسب وغير مناسبة ، ويُشكِّو حظه العاشر وبعد آثامه ، حتى انقلبت شكوكه فصارت هوساً مرضياً ، واعتاد زملاؤه أن يسمعوه وهو يقول بصوته المتهدج: «لو أتممت دراستي . وكان نجاحي مضموناً . لكت الأن

كينا وكتبا!» أو يقول متৎسرًا: «إنى أدنو الآن من الأربعين، فتصور يا صاح لو أن الحياة سارت كما ينبغي، فلم يعترض مجرها الحظ العاشر، أما كنت أكون محاميا قدماً يعتز بخدمة فى القضاء تناهز العشرين عاماً؟ وماذا كان يتتظر من رجل فى مثل جدى فى غضون عشرين عاماً؟!» وربما قال متأسفاً: «فاتتنا ظلماً أخصب فترة فى تاريخ مصر، تلك الفترة التى تستهين باعتبارات السن والجاه الموروث، ويقفز فيها الشبان إلى كراسي الوزارة!». ولم يكن يفوته تتبع خطى المتفوقين من أقران المدرسة الذين واصلوا دراستهم، وليس نادراً أن يرفع رأسه عن جريدة بين يديه، ويقول بإنكار: «أتعرفون فلان الذى يقولون عنه ويعيدون؟.. زاملنى عهد الدراسة فصلاً فصلاً، وكان تلميذاً خاماً لا يطمع أن يدركنى يوماً ما؟» أو يهتف متهمكاً: «يا ألطاف الله؟.. وكيل وزارة؟.. ذلك الغلام القذر الذى لم يكن يعي مما يلقى عليه شيئاً؟ هى الدنيا!» ثم يروح محدثاً إخوانه بأى نبوغه المدرسى، وما تبأله به المدرسوں. هكذا تلوثت عواطفه بتمرد ثائر وسخط خبيث وكبراءة حتى، واعتداد كاذب بمواته، مما جعل حياته عذاباً متصلة وشقاء مقىماً. ثم وجدت هذه العبرية المزعومة نفسها مهملة في الدرجة الثامنة بمحفوظات وزارة الأشغال، ولكنها لم تسكن، ولم تستسلم، ولم تيأس، ومضت تلتمس السبل إلى تحطيم الأغلال، وشق الطريق إلى الحرية، والمجد والسلطان، وكابت التجارب، وتوثقت بمحاولة تلو المحاولة. وقد فكر أول ما فكر في التحضير - من بيته - لشهادة القانون، فهو العلم الذي انجدبت إليه آماله من بادئ الأمر، ولم يكن عن الشهادة محيد، لأن المحاماة لم تعد اجتهاداً كما كانت على عهد سعد والهليباوى، فراح يقتني الكتب القانونية، ويستغير المذكرات، وأكب على الدراسة عاماً مدرسياً كاملاً تقدم في نهايته إلى الامتحان، ولكنه سقط في مادتين. وطعن كبراءة طعنة بخلاء، وأخرج أمام الذين

تبعدوا أنباء عبقريته باهتمام ، وجعل يعتذر عن إخفاقه بوظيفته ، وبادعاء مرض وهمى أقعده عن مواصلة الدرس ، ولم يشن عن ادعاء المرض بعد ذلك على سبيل الاحتياط والحذر . وخاف أن يجرب الامتحان مرة أخرى ، وأشفق من تعريض عبقريته للتجارب الظاهرة التى يطلع الناس على نتائجها فما إلى العلم الحر ، وبادر بإعلان احتقاره للامتحانات والشهادات ، ثم أقنع نفسه بأن إخفاقه فى امتحان القانون جاء نتيجة لعدم استعداده له . لا لتفصير أو لقلة كفاية ، وعدل عند ذاك عن دراسته ليجد المجال الطبيعي الذى خلقت له عبقريته الشهيدة ، وهكذا خسر عاماً وربحت مكتتبته عدداً لا يستهان به من كتب القانون . ثم فكر فى تكريس حياته للعلم ، وتحير بين الأبحاث النظرية والاختراعات العلمية أيها يختار؟ ثم أفلح عن فكرة الاختراع بحججة أن البلد خال من المصانع والمعامل ، وهى ميادين التجارب ، ومهبط الوحي الإبداعى ، ورکز آماله فى العلم النظري ، وطبع فى أن يكتشف نظرية يوماً يغير بها آفاق العلم الحديث ، ويقفز إلى سماء الخلود بين نيوتن وإينشتين . وتوثبت به الهمة ، فراح يتتابع ما وقعت عليه يداه من ملخصات الطبيعة والكيمياء ، ويطالعها باهتمام وشغف . وبعد دراسة عام طويل وجد نفسه حيث بدأ لم يتقدم خطوة نحو هدفه البعيد ، ثم اقنع بأن التعمق فى العلم يتطلب دراسة تحضيرية لم تتع له .

وغلبه الجزء وكثيراً ما يغلبه ، فيتش من الدراسة العلمية النظرية ، وسough يأسه نفسه بأن البحث النظري ليس دون الاختراع حاجة إلى المعامل ومعاهد الأبحاث ، وأن جو مصر بصفة عامة لم يتهيأ بعد للعلم ، ولم يجد ضرورة للاعتذار هذه المرة عن إخفاقه للغير ، لأنه كان تعلم أن يخفي أهدافه عن الناس جميعاً ، بيد أن ذلك لم يمنعه من أن يذيع بين الزملاء والصحاب أنه يكرس وقت فراغه للمعرفة والاطلاع . . المعرفة الحرة التى تسمى على الدراسة المدرسية والشهادات

الحكومية، والاطلاع العميق الذي يجعل من صاحبه عالماً بعيد الغور.

وضاع عام ثان زادت فيه المكتبة صنفاً جديداً من كتب العلم، ثم تساءل متبعاً متحيراً: ترى لأى شيء خلقت مواهبه على وجه التحقيق...؟ لا شك أنه لم يعرف نفسه بعد، ولو عرف نفسه لحفظه وقتاً - أحق به أن يحفظ - من الضياع هدراً بغير ثمرة. فما حقيقة ميوله؟، لقد انتهى من القانون والعلم ولكن ليس القانون والعلم بكل شيء. هنالك ما يضارهما جللاً وجمالاً فما سر ولعه بشوقى والمنفلوطى؟ ما طربه للبيان الساحر؟ ألا يجوز أن يكون استعداده الحق للأدب؟ وأجمل به من فن لا يستوجب التمرس به شهادة ولا دراسة مدرسية. فما عليه إلا أن يقرأ كما قرأ شوقى وحافظ ومطران من قبل. وما عتم أن استقبلت مكتبته ضيوفاً جدداً من أزاهير الشعر والنشر أكب عليها بشغف وحماس بلغ حد الغضب؛ ووقع في رحلاته على قول ابن خلدون: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين وهي : كتاب الكامل للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي على القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربع فتبع لها وفروع منها» فتهنئ كأنما وقع على كنز واقتني الأركان الأربع، وقرأها جمِيعاً بما طبع عليه من حماس وسرعة، فلما أن فرغ منها تساءل مسروراً: «هل صرت الآن أدبياً؟»، وأمسك بالقلم وصدقت عزيته على أن يكتب، وكتب موضوعاً سماه: «على شاطئ النيل» أفرغ فيه فنه وإلهامه؛ وأرسله بالبريد إلى إحدى المجالس، ومضى يتخيَّل ما عسى أن يستقبله به القراء من الإكبار والإعجاب، وكيف أنه قد يكون أول درجات الشهرة والمجد، وحسبه هذا فما يطمع في أجر غير المجد الأدبي. وظهرت المجلة وفتَّشَ عن مقاله فما وجد له أثراً، ففتر حماسه وتعثرت أماناته في الخجل، ولكنه لم ييأس فناجي نفسه بانتظارها أسبوعاً آخر، ومضت أسبوعاً آخر دون أن تتاح للمقال فرصة

الظهور. لقد قرأت أركان الأدب الأربعه التي يعد ما سواها تبعاً لها وفروعها منها، فهو أديب بحكم ابن خلدون، وما أدرك ما ابن خلدون؟ فكيف لم ينشر مقاله؟ هل أهمل القوم نشره لأن كاتبه غير معروف؟ أو لأنه لم يستشعف إليهم بشفيع؟ أو تراهم عجزوا عن فهمه؟! .. وفكري في أن يذهب إلى المجلة بنفسه ليقف على حقيقة الأمر، ولكنه لم يستطع لأن خجله كان يقف له بالمرصاد دائماً. ثم تناهى آثار الصدمة الأولى وكتب مقالاً ثانياً عن العدالة فلم يكن حظه أحسن من الأول، فكتب ثالثاً عن «جنابة الفقر على النبوغ» فلم يكن خيراً من سابقيه. وتوبّث للكتابة بعناد وإصرار من ناط بها أمله الأخير فحطمت محاولاته جمِيعاً على صخرة الإهمال الباردة، وأعاد كتابة أكثرها وأرسلها إلى مجلات مختلفة، فلم يجد بينها من ترحم أمله المعذب، وتنقذه من هاوية القنوط. وكان آخر مقال كتبه عن «تفاهة الأدب» فضاع كما ضاع إخوته. وانكسر عن محاولاته محطم النفس مطعون الفؤاد. لقد تأmer عليه سوء الحظ - عدوه القديم - وخيث طوابيا النقوس ولؤم الطياع. فلم يساوره شك في قيمة مقالاته الأدبية، بل ظنها خيراً مما بدأ به المفلوطي نفسه وما يتبيه به كثير من المعاصرين ولكنَّه سوء النية وفساد الطوية! .. وتبدت الأحلام جمِيعاً. لا ما أضيق العيش وما أظلمه! . ورمى بالقلم، وتضاعف ما به من حقد وتبرُّد وألم، ويُشنَّ أخيراً من المجد والسلطان، وامتلأت نفسه سخطاً وغضباً على الدنيا والناس، والعظمة والعظماء خاصة! وما العظمة؟ .. أو ما العظمة كما تعرفها مصر؟ .. أجاب على ذلك بكلمة واحدة: «الظروف المواتية»، بل قال عن سعد نفسه على حبه: «القدر مهد له صهره سبل النجاح، ولو لا صهره ما كان سعداً الذي نعرفه». وكان يردد كثيراً: «إن الوظائف الكبرى في مصر وراثية» أو يقول: «إذا أردت التفوق في مجتمعنا فعليك بالقحة والكذب والرياء، ولا تنس نصيبك من الغباء والجهل» أو يقول ساخراً:

«ما هؤلاء الأدباء الذين يلشون الصحف والمجلات؟.. أمن الأدب الحق أن تستعين على البروز فيه بالسياسة والحزبية؟ وهل يعجز عن بلوغ ما بلغوا من مجد كاذب إلا كريم؟» أو يقول محتدا غاضبا: «والله لو أردت أن أكون عظيماً في مصر ما عجزت.. ولكن قاتل الله الكرامة!» وحرق الغضب نفسه حتى تركها شعلة من لهب غير مقدس وحطاماً من رماد، ولكن الحياة لا تتحمل الغضب في كل حين، فما من معدى عن سويعات راحة وإن تكون راحة القنوط، فكان يستريح إلى اليأس كلما لج به الغضب أو الحقد، وفي تلك السويعات كان يقول لنفسه: ألا ما جدوى العناid فى هذه الدنيا؟.. إذا كنا نموت كالسوائم ونتن فلماذا نفكر كالملائكة؟.. هبني ملأت الدنيا مؤلفات ومختروعات فهل تختار مني ديدان القبر أو تلتهمني كما التهمت جثتي ريا وسكينة؟؟.. الدنيا أكاذيب وأباطيل وما المجد إلا رأس الأكاذيب والأباطيل. وسلم نفسه إلى عزلة عقلية وقلبية مريرة. ينس من الحياة فهرب منها، ولكنه خال وهو يدبر عنها يائساً عاجزاً، أنه يزهد فيها متعالياً متكبراً ولذلك لم يهجر عادة القراءة، لأن الكتب تهيء للإنسان الحياة التي يهواها، فتعالى بحياة الكتب على حياة الدنيا، وظفر منها بيلسم للألم كبرياته، واستعار ما بها من قوة، فحالها قوة ذاتية، وكان أفكارها أفكاره وسيطرتها سيطرته وخلودها خلوده، وقد عدلـ بعد إخفاقه المتواصلـ عن القراءة المنظمة المحددة الهدف، واندفع يقرأ ما تقع عليه يده، وعنى عناء خاصة بالكتب الصفراء لأنها في نظره عسيرة وعزيزة المناal، وانكب على القراءة بسرعة وشرامة وأعصاب متوتة فلم يتمتع بقراءة مجدية ولا نافعة، وأصحابه سوء هضم عقلي، فكان يعرف أشياء وأشياء ولكن لم يتقن شيئاً أبداً، ولم يتعود عقله التفكير مطلقاً ولكن كانت الكتب تفكّر له وتتأمل بدلاً منه. ولم يكن يعنيه التفكير ولا التأمل وإنما كان همه الحقيقي أن يحدث الغد بما



رموزها ويفقه أسرارها، ويتحرق شوقاً إلى وقت يتاح له فيه السيطرة على القوى الكونية والاستئثار بفاتح المعرفة والقوة والسلطان! . أوشك أن يجن لهفة وأن يذوب هياماً. متى يدين له عرش النفوذ اللامائي فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، ويعيث بنـ يشاء، فيرفع ويختضن ويغنى ويفقر ويحيى ويحيـ؟ ولكن لم تتحمل أعصابه الجهاد طويلاً ولا قدر على قضاء الليالي الطوال مختلياً بأرواح الشياطين فاضطرب حبل أمنه وأرهقت أعصابه وصرعه الخوف والوهم فتلجمه المرض وأوشك أن يسلمه للجنة أو الموت! ولم ير بدا من العدول عن سعيه والتزول عن أطماعه فأعاد الكتب إلى صاحبها ويشـ من المجد للمرة الأخيرة بعد أن جـ جميع السبل والمسالك المفضية إليه. وجعل يتساءل في حزن بالغ: ماذا بي؟ هل حلـ في روح نجس؟ لماذا أصرع دائماً إذ لا يفصل بيني وبين ما أريد سوى ذراع؟! وسقط تحت أنفاس المحاولات الفاشلة والأمال الخائبة والأوهام الضائعة؟! واطـ مجرـ الأيام وتقدم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ، بل جعل يجد لألمه لذة غامضة، وكان يتـهم حدوث الظلم بداع وبغير داع ويتلقـ ما يقضـ به عليه من ألم ممزوج بتلك اللذة الخفية. وعسى أن يتساءل متحدياً ساخراً: أليس جـيلاً أن ينهض العالم جميعـه لمقاتلة إنسان فرد؟! .. أليس مما يطيب به الغرور أن يتـوفـ له سوء الحظ ذلك التـور الذى إن دل على شيء فعلـ الحسد والخـوف؟! . بلـ فقد قضـ لـحكمة سلفـتـ أن يكون الشـقاء نصيب العقول الفـنـةـ فىـ هـذـهـ الدـنـيـاـ ..

وقد كان لالتـاذـهـ بالـأـلـمـ هـذـاـ أـثـرـ فىـ تـوجـيهـ مـيـولـهـ السـيـاسـيـةـ المتـقلـبةـ، فـمـالـ دائمـاـ إـلـىـ الحـزـبـ المـغلـوبـ عـلـىـ أمرـهـ بـصـرـفـ النـظرـ عـنـ مـبـادـئـ السـيـاسـيـةـ، وـسـرـعـانـ ماـ يـتـمـثـلـ نـفـسـهـ فـىـ مـوـقـفـ زـعـيمـهـ يـتـلـقـىـ ماـ يـتـلـقـىـ مـنـ ضـرـوبـ الـاضـطـهـادـ وـالـاعـتـداءـ وـيـنـوـءـ بـماـ يـنـوـءـ بـهـ مـنـ أـلوـانـ التـبعـاتـ وـالـواـجـبـاتـ، يـجـدـ فـىـ هـذـاـ وـذـاكـ أـلـاـ لـاحـصـرـ لـهـ ولـذـةـ لـاـ شـبـهـ فـيـهاـ.

والواقع أن خلقه هذا لم يكن اتفاقا ولا تحت تأثير الإخفاق فحسب ولكن له أصول بعيدة ترجع إلى عهد نشأته الأولى، حين كان الطفل الأول لوالديه، فدرج على الرعاية والحب والتدليل، ولكنه كان. كذلك الطفل الذي ادخره حظه لكي ينهض بأعباء أسرة محطمة وهو دون العشرين، فلم تتلطف معه الدنيا. فضلا عن أن تدلله. ساعة واحدة! ..

\* \* \*

لبث مستلقيا في الفراش دون أن يغمض له جفن، وجعل يقلب عينيه في سقف الحجرة وجدرانها وأرضها، وتساءل قلقا: ترى هل تطيب له الحياة في هذا الحى العجيب؟! .. ونazuعه الحنين إلى شارع قمر وحى السكاكينى والبيت القديم، وعلى أنه لم يفارقه كذلك ذاك الشعور المشرق بالأمل الوضاء بالتلطع، ثم ملات البيت حركة متصلة وأتاه صوتاً أمه والخادم فأدرك أنها مي يستأنفان نشاطهما لفرش الشقة وإعداد الحجرات. وتصاعدت إليه من الطريق ضجة مزعجة وضوضاء فظيعة فأنكرها وأصفى إليها بانتباه فتبين له أنها أصوات أطفال يلعبون ويغنون، وكأنه ضاق برقاده ذرعاً فنهض إلى النافذة المطلة على العمارت وفتحها وراح ينظر منها إلى الطريق، فرأى جماعات من الصبيان والبنات يملئون الطريق متصايحين متضااحkin وقد انقسموا فرقاً أكب كل فريق على رياضة، فبدأ الطريق وكأنه ناد رياضي ساذج فهذه جماعة تلعب بالحديد وتلهف الأكف بالطرة، وهذه جماعة تلعب بالبلى، وتلك عصبة تحجل وتلك أخرى تتصارع، واقتعد الصغار الطواريرقصون ويعنون ويصفقون. اضطربت الأرض وضج الجو وثار الغبار فأيقن لا أقيولة منذ اليوم! وسمع أناشيد عجيبة «يا عم يا جمال..» و«يا أولاد حارتانا توت توت» و«الجبل ده عالي يا عمى» إلخ إلخ. فحار بين الدهشة والحنق والسرور! .. ثم تصاعد صوت جهوري

أجشن غليظ النبرات يصبح كالرعد القاصف «ملعون أبو الدنيا!». وكرأه صياحه بصوت منغوم على إيقاع كفين شديدين!.. وكان الصوت صاعدا على الأرجح من دكان تحت النافذة مباشرة ولكن من داخلها فلم يستطع رؤية ذلك الذي يتغنى بسب الدنيا ولكنه لم يتمالك نفسه فأغرق في الضحك حتى تورد وجهه الشاحب، واشرأب بعنقه من النافذة فاستطاع أن يرى لافتة الدكان وقد نقش عليها بخط جميل «نونو الخطاط».. ترى هل يكتب الرجل لوحات في سب الدنيا وبيعها المتذمرين والساخطين؟.. ألا ما أجر أن يبتاع منها ما يشفى غليله!..

### ٣

واختفى شعاع الشمس المنعكس على زجاج النافذة العليا من العمارتى تواجه نافذته، فأدرك أن الشمس تغيب وراء قباب القاهرة المعزية بالجهة الخلفية، وصعد بصره إلى مئذنة الحسين السامقة تنطلق بجلال في غلالة من ظلال المغيب فهزت مشاعره وأيقظت قلبه. ثم ارتفق حافة النافذة يردد ناظريه ما بين أسطوح الدكاكين التي تتوسط العمارتى، والنواذن والشرفات المطلة من واجهات المبانى، والمرات المقاطعة، رأى نوافذ مغلقة وأخرى شبه مفتوحة وشرفات تسعى فيها ربات البيوت يجمعن الغسيل أو يملأن القلل، وقد أوشك الطريق أن يخلو من الصبية كأنما أفزعها دنو الليل، وكان يرغب أن ينطلق إلى الخارج ليرى عن كثب مشاهد الحى الجديد، ويكتشف طرقاته ومسالكه، ولكن غلبه التعب على رغبته لما بذل من جهد في تنظيم مكتبه، هذا إلى تعوده لزوم البيت حتى ندر أن يفارقه بعد عودته من

الوزارة، فأجلَّ تنفيذ رغبته. وترك النافذة فتربع على شلته. وهي جلسته المختارة إذا تهياً للقراءة. واستخرج من المكتبة كتاباً يقرأ فيه حتى يأزف ميعاد النوم.

وكان والده في تلك الأثناء يتربع على سجادة الصلاة والمصحف بين يديه يتلو ما تيسر منه في صوت مسموع، غير متبيه إلى أخطاء القراءة العديدة التي يتتابع عثوره بها. كان عاكف أفندي أحمد في الستين من عمره، وقد أرسل لحية بيضاء أكسبت وجهه التحيل وقارا، وفرض على نفسه عزلة قاسية عقب إحالته على المعاش وهو في أواسط العمر وشرق الآمال، وبدا وكأنه كرس حياته للعبادة وتلاوة القرآن، ولم يكن يفارق البيت إلا فترات متباعدة للتريض المنفرد أو زيارة الأضرحة. وربما كان لعسره المالي - إذ لم يجاوز معاشه ستة جنيهات - الأثر الأول فيما اتخذ في حياته من نظام، ولكن رضى أخيراً عن طيب خاطر بحياته وألفها بل وأحبها أيضاً شاكراً حامداً. وكانت أقسى أيام حياته وألمها تلك التي أعقبت إحالته على المعاش، فقد انقطع مورد رزقه أو كاد، وتهددت الفاقة أسرته البائسة، وأجبر على اعتزال العمل والنشاط، وأقصى عن الوظيفة وجاهها، وهب كالمحنون للذود عن كيانه، فسعى واستشفع بكل شفيع، ولكن ذهبت مسامعيه أدراج الرياح. قدَّ العريضة تلو العريضة، والالتماس وراء الالتماس دون جدوى أو رجاء، حتى علم أخيراً بالحقيقة المحزنة وهي أن باب الحكومة قد أغلق دونه إلى الأبد. وكان في الحقيقة طاهر اليد إلا أنه ثبت إهماله وجاء تطاوله على المحققين فزاد الطين بلة، ثم لم يسكت بعد ذلك عن شكوى الظلم والظالمين، واستنزل اللعنات عليهم أجمعين، وراح تحت تأثير الغضب والحقن واليأس يتهمكم بالحكومة والموظفين، ويقول إنه أحيل على المعاش لأنه أبي أن تمس كرامته، وأن الوظيفة أضيق من أن تتسع لإنسان يحترم نفسه، وبعد أن كان ينكر تطاوله على هيئة

المحقدين، جعل يفاخر به ويبالغ فيه، ولم يعد له حديث سواه، فصار ضحكة المتغامزين، وقد عطف الصحاب والأقارب، وحافظ بادئ الأمر على صلته بالناس، فتردد على قهوة فيتا بغمرة يلاعب بعض الصحاب النرد، ولكن خلقه ساء بعد فاجعته، فأصبح ضيق الصدر سريع الغضب. فاحتدى يوما على لاعب فانفجر الآخر هائجا وصاح به: «يا طريد الحكومة!» فلم تطأ قدمه قهوة بعد ذلك، وانزوى بعيدا عن الناس والدنيا، واختار العبادة ملادا وسكتا، ولم يعد للماضي أثر في نفسه، وسارع بالشفاء إليه نهوض ابنه أحمد بأعباء الأسرة، وكان الابن قد ورث عن أبيه تبعته ومرضه!

على أنه لا ينبغي أن نهمل عاملاتاما في شفاء الأب، وهو الأم. حوت منذ البدء مزايا لا يستهان بها في حساب السعادة العائلية، فتمنت بمنصبي موفور من الحسن الذي رمّقته القاهرة على أيام شبابها بعين الإكبار والإعجاب، وما زالت. وقد شارت الخامسة والخمسين. على وسامه وقسامه، وولع بالصبغ والألوان، وذوق في الأزياء، وما زالت لحيمة جسمية وإن اعتورها الاسترخاء، خبيرة بصفات السمن والتجميل، مشهورة بخفة الروح والدعابة اللطيفة والنادرة الخلوة، لا تضاهيها امرأة في قدرتها على أن تألف وتؤلف، فكثرت صويحباتها، وتعددت البيوت التي تزورها وتستزيرها، واستقبلتها النسوة والأوانس بالسرور والغبطة شأن أعضاء الأسرة ولذلك لم تتأثر بالضائقه التي نزلت بيتها، فلما انقضت يد بعلها عنها انبسطت لها أيادي الصديقات الحبيبات بالهدايا، فحافظت على مستواها المعهود من الأنقة والتجميل. وكانت لها على زوجها دالة، فمسحت عن صدره الحزن بلطفها ودعابتها وتفاؤلها، وكانت تقول له ضاحكة: «لقد انتهيت يا عاكف أفندي من الحكومة فافرغ لي!»، أو تداعب لحيته قائلة: «من أجل الورد ينسقى العليق!»، ولكن كان صدرها يضيق إذا رأت بعلها

مكبا على القرآن، ويكبرها عاكفا على مكتبه، فتصبح بهما: «هلا علمت مني القراءة لأجاور معكما؟!». ولشد ما أحنقها أحمد ياهماله نفسه، فكانت ترُوّح على خديها كأنما تلطمهمما وتهتف مؤنثة: «كَبَرْتْ أمك وجعلت سمعتها كالطين! هاك الكواه فما البذلتك مسترخية متقبضة؟!.. وهاك الحلاق فما لذقتك مخضرا؟!.. والدنيا بالأفراح حافلة، فما انزواوك بين الكتب الصفراء؟! كيف تركت رأسك يصلع وقدالك يشيب؟! كبرتني!.. كبرتني!..» فكان أحمد يبتسم إليها ساخراً ويفيظها قائلاً: «الطمى كيف شنت ألسنت في الأربعين؟!» فيهولها التصريح بالحقيقة الفظيعة، وتنهى قائلة: «آخرس قطع لسانك الطويل.. هل رأت الدنيا قبل اليوم ابنا يدعى عمر أمه؟!».

ومع ذلك فلم تخل حياتها من الحزن، كانت مريضة، أو هكذا توهمت، ولكن لم يأس على مرضها أحد من حولها، وقد اقتنعت على مر السنين بأن عليها أسياداً، وبأن لا شفاء لها إلا بالزار، وطالما توسلت إلى بعلها ليسمع لها بإقامة حفلة زار، ولكن الرجل لم يচنع إلى توصلاتها. واستيقع أحمد الفكرة وإن لم يساوره شك في وجود العفاريت، وكان قريب عهدـ وقذاكـ بالتجربة التي أوشكت أن تنتهي بجنونه، فيثبتت المرأة من استمثالهما، وفجعت بشهود حفلات الزار إذا اتفقت في بيوت الصديقات، حتى قال أحمد يوماً متعجبًا: «حقا إن أسرتنا ضحية الشيطان.. ألم يغير والدى بتحدد لكلب حقير من الموظفين فقد وظيفته؟!.. وألم يحضرنى على تعلم السحر فأشففدت على الجنون؟! وها هو ذا يركب أمى ويهمئ لها خرابنا!».

ولكن الله سلم، فقد غالب مرح الست دولتـ أم أحمدـ على حزنها، كما غلبت الحناء على وميض الشيب بمفرقها..

\* \* \*

لم يستطع أحمد أن يركز انتباهه في القراءة لما أحدثه تغير المكان في نفسه من اليقظة والقلق، فمضى في مطالعة فاترة متقطعة ومضى من الليل ساعة فسكتت ضواعه النهار، ولكن لتحول محلها ضواعه أشد وأفزع سرعان ما جعلت الحى جميعه كمسرح من مسارح روض الفرج الشعبية. أما مصدرها فالقهاوى العديدة المنتشرة في جوانب الحى، فالراديو يذيع أناشيد وأحاديثه بقوة وعنف فكأنه يذيع في كل شقة، والنُّدل لا يكفون عن النداء والطلب في أصوات مقطوعة ملحنة «واحد سادة.. وشاي أخضر.. تعميره على الجوزة.. وشيشة حمى..» ودق قطع النرد والدمينو وأصوات اللاعبين! فخال نفسه في طريق مزدحم بالمارلا لا في شقة وعجب كيف يتحمل أهل الحى ضواعه أو كيف يغمض لهم جفن؟!

ولم يزل ملازم الشلة حتى بلغت الساعة التاسعة فقام لي保姆، وأطفأ المصباح ورقد على الفراش بعد أن أحكم غلق النافذتين، ولكن الضواع لم تزل تملأ حجرته وتتدوى في أذنه، فذكر سكون السكاكينى في مثل هذه الساعة من اليوم وتأسف من الأعماق، ثم لعن الغارات التي أجبرتهم على هجر مسكنهم القديم الهادئ، فاستشار ذكرى تلك الليلة الجهنمية التي زلزلت القاهرة زلزاً مخيفاً، وملأت الذكرى شعوره وضاعف من تأثيرها جثوم الليل حتى لم يعد يحس من ضواعه .

كانت الدنيا نائمةـ تلك الليلة المفزعةـ يستقبل ليالها هزيעה الأخير وكما تعودت القاهرة في مثل تلك الساعة من الليل أطلقت صفارات الإنذار نعيها المتقطع الذميم، فاستيقظت الأسرة ونهض أحمد لإطفاء المصباح الساهر في الصالة الخارجية ثم عاد إلى رقاده ليغط في النوم مرة أخرى شأنه كل ليلة، إذ لم تعرف القاهرة قبل تلك الليلة إلا الغارات الاستكشافية ولم تسمع سوى طلقات المدفع المضادة للطائرات، ولكنه

لم يسكن إلى النوم ، وراح يرھف أذنيه رافعا رأسه عن الوسادة في دهشة وانزعاج ، فقد سمع بوضوح أزيز طيارات ما في ذلك من شك ، اتصل وقعه لا يغيب ولا يهمن ، بل جعل يزيد وضوحا ويعلو شدة فضاق به صدرا وامتلا منه رعبا ، ولكن خاطرا طمأنه بعض الاطمئنان ، فلم يفصل بين سكوت الصفاره وسماع الأزيز إلى دقيقة أو بعض دقيقة وهي مدة غير كافية بطبيعة الحال لوصول الطيارات المعادية حيث يسبق الإنذار وصول الطيارات بربع ساعة على الأقل ، فبات مرجحا أن تكون الطيارات إنجليزية حلقت للمطاردة . وانتظر أن ينقطع الأزيز ولكنه اتصل اتصالا مرهقا للأعصاب وكأن الطيارات اختارت بيتهما مركزا تدور من حوله ، ونهض ثانية وغادر الحجرة يتلمس طريقه في الظلام إلى حجرة والديه وقال عند الباب بصوت مسموع : « هل أنتما مستيقظان؟ » فجاءه صوت أمه قائلة : « لم ننم بعد ، أما تسمع شيئا؟ » فأجاب أحمد : « بلى أزيز طيارات .. وقد سمعته عقب الإنذار مباشرة! » فقال والده : « الأغلب أن تكون إنجليزية » فقال أحمد : « لها ، وطمأنه اتفاق الظن بينه وبين أبيه فعاد إلى حجرته ، وقبل أن يمس جنبه الفراش أضاءت الحجرة المظلمة بنور عجيب آت من الفضاء أعقبه صفير مبحوح انتهى بانفجار شديد دوى في سماء القاهرة دوى شديدا مزعجا ، فانتفض رعبا وتولاه فزع جنونى وقفز نحو الباب لا يلوى على شيء ، وضاعف من رعبه أن الحجرة لم تزل مضاءة بذلك النور الوهاج الذى اخترق نوافذها من الخارج داعيا القذائف إلى أهدافها ، وتتابعت الانفجارات الشديدة واحتللت تفجرها بذلك الصفير المبحوح المقوت ، فارتجلت الأرض ارتجاجا وزلزل البيت زلزالا ، ولم ينقطع الضرب لحظة واحدة ويدا كان السماء ستظل تقدف الأرض بهاتيك الرجمون الشيطانية فى ذلك العناد الشيطانى الجبار . ووجد والديه فى الصالة ، الأب معتمدا ذراع الأم يوشك أن يسقط صريع الفزع

والإهراق، فهرع إليهما وتأبط ذراع والده وصاح بهما «هلما إلى مخبأ العماره» ومضوا مسرعين تتقدمهم الخادم، وتساءل بصوت متهدج مضطرب: «ما هذا النور؟ هل شب حريق في الخارج؟» فقال أحمد وهو يعالج أنفاسه المضطربة ويتبين موقع قدميه من السلم: «هي مصابيح المغسيوم التي قرأتنا عنها في الجرائد» فقال الرجل: «ربنا يلطف بنا». وكان السلم مكتظاً بالهابطين الداعين الله من قلوبهم الواجهة، وكلما حدث انفجار ارتجت الجدران وتعالى صرخ يضم الآذان وصوت النسوة وأعول الأطفال. وانطفأ نور المغسيوم فجأة والضرب في عنفوانه والموت في حومانه فساد الظلام، وحدث هرج ومرج فزلت أقدام وعثر أناس وزاد الفزع والارتباك، ثم بلغوا مخبأ العماره -البدروم- بعد جهد جهيد. وكان مضاء بمصابح خافت، مغطاة نوافذه بستائر كثيفة سوداء، واعتمد سقفه على عمد أفقية قامت على عمد حديدية رأسية، ووضعت حول جدرانه أكياس من الرمل، وعلى ضوء المصباح الخافت لاحت وجوه تعلوها صفرة الموت، جاحظة عيونها مرتجلة أوصالها، هاذية ألسنتها، ووقفوا ثلاثة متقاربين يذوبون لهفة أن يكشف الضرب للحظة واحدة فأخذوا أنفاسهم ويلواريقهم، ولكن الضرب اشتد وبدا من اشتدادات الانفجارات أنه أخذ يقترب منهم! وهنا حرك ساقيه في الفراش فزعًا من هول الذكرى وهو يغمغم: «تبالها من ليلة» وتنهد من أعماق صدره وفتح جفنيه، فعادت ضوضاء الحى إلى وعيه، وذكر أنه رقد لينام لا يستذكر آلام أفعض ليلة في حياته، ولكن هيئات... لقد هجمت عليه الذكرى بقوة لا تقاوم، أجل، أخذ الضرب يقترب، بل انفجرت قذيفة خال القوم الفرعون أنها انفجرت في صدورهم وروعوهم، فرفعوا أيديهم كأنما يتقوّبوا بها السقف إذا انهار عليهم، واشتد الصرخ والدعاء وجرى اسم الله على كل لسان، وقوى شعور مفزع بأن القذيفة الثانية ستسقط على رءوسهم! وهوت القذيفة

التالية! .. رباء هل يمكن أن ينسى ذلك الصفير المبحوح - صفير الموت -  
وهو يهبط عليهم لا مهرب منه ولا مفر! .. وكيف تقلقلت العمارة  
وطقطقت النوافذ قبل أن تبلغ القذيفة الأرض! .. ثم كيف دوى  
الانفجار فشك الأسماع وصم الآذان ورج الأمخاّخ ومزق الأعصاب  
وختق الأنفاس! .. لقد تقوست الظهور في انتظار المقدور.. . وقبض  
اليأس القلوب .. وتعجلت النفوس النهاية مختارة الموت على  
انتظاره .. أجل لم يعد بينهم وبين الموت إلا قذيفة لعلها تغادر في تلك  
اللحظة مكمنها من الطيارة! .. ولكن القذيفة - وهنا ابتسمت ابتسامة  
حزينة - لم تسقط! .. أو سقطت بعيداً، فقد ابتعد الضرب سريعاً كما  
جاء سريعاً، لم يجعلهم الموت كما أوهّمهم .. أراهم وجهه ولكن لم  
يذّقهم طعمه .. أو أَجَّلَ ذلك لليلة أخرى، فباعد الضرب، ثم خف عن  
ذى قبل، وبات متقطعاً ثم انقطع فلم يعد يسمع إلا طلقات المدافع، ثم  
ساد السكوت! .. واسترد التعباس أنفاسهم، وتبادلوا نظرات الشك  
والرجاء، وانفكّت عقد ألسنتهم فهذوا كالمجانين، ومضت ربع ساعة  
رهيبة ثم انطلقت صفارات الأمان! .. يارحمة الله! .. هل ذهب  
الموت حقاً؟ .. هل يدركهم نور الصباح؟ ودبّت الحركة وأضيئت الأنوار  
وانطلق أناس إلى الخارج وجاء آخرون من الجهات القربيّة، وانتقلت  
روايات، قالوا العباسية خراب .. أما مصر الجديدة فقل عليها السلام،  
وقصر النيل أمست أثراً بعد عين، ومخازن الترام دمرت وجثث العمال  
أكواه! ..

وتصعدوا إلى شقّتهم يغمر صدورهم سرور عصبي، سرور من ثجا  
من الموت وعقابيل الخوف لم تزل ناشبة في صدره، ومضوا باقيّة الليل  
أيقاظاً يتكلّمون. وفي نهار اليوم الثاني بدا الحمى وكأنه أزمّع الهجرة،  
وتتابعت عربات النقل تحمل المتاع الضروري إلى الأحياء التي حسب  
الناس أنها آمنة أو إلى القرى المتاخمة للعاصمة حتى خلت عمارات من

ساكنيها، وضاعت مناظر الهجرة من خوف الأسرة. خصوصاً الأب الذي تضعف قلبه الضعيف من عنف الغارة، فنشأت في رأسه فكرة الهجرة مع المهاجرين، وإذا كان من المتأثرين بدعائية المحور الإسلامية فقد اعتقاد راسخاً في أن حياد دينياً كحى الحسين لا يمكن أن يقصد المغيرة بسوء، فجد في البحث عن مسكن فيه، فاهتدى إلى هذه الشقة، وكان النقل.. وإن ينسى اليوم الذي أعقب ليلة الغارة، فلم يكن للقاهرة حدث إلا حديث الليلة الماضية، واستفاض الناس في الكلام بأعصاب متوتة وفقوس قلقة، وضحكتوا جميعاً ضحكتا فيه سرور النجاة وتوتر الخوف، وشعر أحمد بدنو الموت دنوا جعله يحس تردد أنفاسه على وجهه، بل هنالك ما هو أفعع من الموت نفسه، كأن يلقى به على قارعة الطريق مقطع الأوصال أو مشطور الرأس، وربما الحق بعد ذلك بذوى العاهات المستدية، أو كأن ينجو من الموت ويدرك البيت من فيه فيجد نفسه وأسرته بلا مأوى وبلا أثاث وبلا لباس! يجعل يدعو ربه ويستشفع بنبيه، فالحياة محبوبة ولو كانت خائبة بائسة، وأعجب من هذا أنه مال إلى الترفية عن نفسه وتهيئة السرور لها ما أمكن، فغلب حرمه الطبيعي وابتاع لدى عودته إلى البيت صندوق بسكت بالشيكولاتة وهو طالما اشتهرت نفسيه وحرمها إياه حرضاً على القليل من النقود التي تعود أن يودعها صندوق التوفير كل شهر، ولكن عندما أتى المساء غشي القلوب هم وكابة، وبيات الكل في ذعر عظيم، ولم يغمض لإنسان جفن، وتيقظت ذكريات الليلة المفترسة، واختلت الحواس، فصار كل نفير صفاراً إنذار، وكل صفة باب انفجار قبلة، وكل خشخše أزيز طيارة..؟ وهما هم أولاء قد انتقلوا فهل تطمئن قلوبهم حقاً؟! العمارات حدثة البناء متينة، ولها مخباً يضرب بقوته المثل وهذا جوار الحسين.. ولكن ألم تدرك حصون وتخرب جوامع؟! آه لكم يعذينا حب الحياة، ولكم يقتلنا الخوف، ومع

و غاب به التفكير في الرائحة الغريبة عن أفكاره فتهيأ للنوم  
و هو لا يدرى .. وما لبث أن استرق الكوى خطاه إلى جفنيه فأخذ  
معاقدهما ..

وعند الساعة السابعة من صباح اليوم الثاني كان جالسا إلى السفرة يتناول فطوره الذي يتكون عادة من فنجان قهوة وسجارة ولقطات مع قطعة من الجبن أو قليل من الزيتون. وغادر الشقة فصار في الردهة الخارجية التي تفصل بين الشقق، وقبل أن يبلغ السلم سمع وقع قدمين خفيفتين وراءه فنظر خلفه فإذا الفتاة في أولى سنّي الشباب مرتدية مريحة مدرسية زرقاء ومتأنقة حقيبة الكتب، وقد التقت عيناهما لحظة خاطفة ثم أعاد رأسه وقد تولاه ارتباك، والارتباك طبيعته إذا التقت عيناه بعيني أنشى! ولم يدر هل الأليق أن يسبقها إلى الطريق أو أن يتتحى لها جانبها فزاد ارتباكه وتورد وجهه الشاحب وبدأ فيلسوف إدارة المحفوظات بوزارة الأشغال كالطفل الغرير يتعثر حياء وخجلًا.. وتوقفت الفتاة كالداهشة وانتقلت إليها عدوى ارتباكه، فلم يجد بدا من أن يتتحى جانبها وهو يهمس بصوت لا يكاد يسمع: «تفضلى!». فمضت الفتاة إلى حال سبيلها وتبعها متساقلاً متسائلًا أصاب يا ترى أم أخطأ؟.. وبم حدثت نفسها عن تردد وارتباكه؟!.. وعند باب العمارة أيقظه صوت جهوري من أفكاره يصبح «ملعون أبو الدنيا» فالتفت إلى يسراه فرأى نونو. كما ظنــ يفتح دكانه، فسرى عنه وابتسمت أساريره وغمغم «يا فتاح يا عليم!» ثم سار في طريقه والفتاة على بعد منه غير بعيد حتى بلغت السكة الجديدة فانعطفت إلى بسارها ومضت نحو الدراسة وواصل هو مسيره إلى محطة الترام. ولم يكن رأى من وجهها سوى عينيها. استقرت عليهما عيناه لحظة حين التفاته إليها. عينان نحلافان ذواتا

مقلتين صافيتين وحدقين. عسليتين، وبدتا لغزارة أهدابهما مكحلتين، يقطران خفة وجاذبية، فحركتا مشاعره، وكانت الفتاة تتخطى عنبة الشباب البافع فلا يمكن أن يجاوز عمرها السادسة عشرة، بينما هو في الأربعين، فأكثر من عشرين عاماً تفصل بينهما! ولو أنه تزوج في الرابعة والعشرين - وهي سن زواج معقول - لكان من المحتمل أن يكون أبياً لفتاة في مثل عمرها ونضارتها! وأخذ مجلسه من الترام وهو ما زال يتصور تلك الأبوبة التي لم تتحقق.

وسرعان ما خمدت نشوة التأثير بالعينين، وفتر حماس الحنين إلى الأبوبة، واجتاحت صدره انفعال عنيف قاتم شأنه إذا اقترب من أنسى أو اقتربت أنسى منه، ذلك أنه يحب النساء حب كهل محروم، ويخافهن خوف غريب خجول، ويقتنهن مقت عاجز بائس. فأية أنسى جميلة ترك في وجدها انفعالاً شديداً، يضرب في أعماقه الحب والخوف والمقت. وقد كان لنشأتها الأولى أكبر الأثر في تكييف طبيعته الشاذة، فخضعت طفولته لصرامة أبيه وتدليل أمه، صرامة ترى القهر عنوان الحنان، وتدليل محبة ومغرم لو ترك الأمر له ما علمه المشي خوفاً عليه من العثار. فنشأ على الخوف والدلال، يخاف أباء والناس والدنيا، ويأوي من خوفه إلى ظل أمه الحنون، فتهضي بما كان ينبغي أن ينهض به وحده. فبلغ الأربعين ولم يزل طفلاً، يخاف الدنيا ويأس لأقل إخفاق، وينقص لدى أول صدمة وما له من سلاح سوى سلاحه القديم البكاء أو تعذيب النفس، ولكن لم يعد يجدى هذا السلاح، لأن الدنيا ليست أمه الحنون، فلن ترق له إذا امتنع عن الطعام ولن ترحمه إذا بكى، بل أعرضت عنه بغير مبالاة، وتركته يمعن في العزلة ويجتر العذاب، فهل يصدق الوالدان أن ذلك الكهل الأصلع الخائب قد ذهب ضحيتهم؟!

ومع ذلك كله سجل قلبه تاريخاً في حياة القلوب.

سطر أولى كلماته وهو في السنة الأولى من المدرسة الثانوية، وما

يعنينا من سرده إلا دلالته على طبعه. كان غلاماً ناضراً متأنقاً، ولعله ورث الأنقة من والدته، فجذب إليه يهودية صغيرة حسناء من بنات الجيران! فأحمد عاكف - كما ترى - كان يوماً ما جذباً! كانت تلعب في طريقه وتربق مرجعه من المدرسة في نافذتها، ولا تضن على عينيه بلاحتها ودلال أنوثتها فأصلت وجданه نيرانا ولكنها لم تستطع أن تبعث في قلبه الجسارة أو الشجاعة. ألهبت قلبه وجداً ولكن قصارى ما كانت تدفعه إليه شجاعته أن يرمي بها بلحاظ مغمم وجل سرعان ما يرتد أمام نظرتها وهو كليل، ولكنه على رغم خجله طارحها الغرام صراحة بفضل جسارتها هي. كانت جسورة العوبا لا يردعها عن هواها رادع، فاستطاعت أن تعالج حياءه بجسارتها، وتبعته ذات أصيل حتى أدركه ثم نادته فالتفت إليها بوجه كالجمان، فابتسمت إليه ابتسامة لطيفة فأجابها بابتسامة مقتضبة في حياء وخفر فقالت له «هلم نتمشى في شارع عباس!» فأطاع دون أن ينبس بكلمة وسارا جنباً إلى جنب والشمس تقدمهما نحو المغيب، وتعمدت أن تدنو منه وأن تلامسه في رفق فجعل يبتعد كأنما يخاف أن تخسب أنه المتعمد وهو يذوب شوقاً إلى اللمس الذي بجانبه، ثم تأبطةت عيناه وهي تصبحك ضحكة لم تخل من الارتباك، فطرفت عيناه ونظر فيما حوله بخوف فسألته في دعاية: «أتخاف؟!» فقال بصوت رقيق: «أخاف أن يرانا أحد من بيتك!» فهزت كتفها استهانة وقالت: «لا تبال هذا» فلاحت في عينيه نظرة عجب فاستدركت متسائلة «أما تزال خائفاً؟!» فقال بعد تردد «أخاف أن يرانا أحد من بيتنا!» فأغرقت في الضحك وعرجت به إلى بستان وهي تغمغم: «نحن الآن في أمن من الرقباء!» وتمشياً في سكون الشمس تذوب في الشفق، وظلال المغيب تتدنى في الأفق فتجعل منه سرادقاً قائماً لاستقبال الليل الزاحف، ثم قالت الفتاة الجريئة لتحتال على حيائه: «حلمت حلماً ياله من حلم؟» فقال وقد أخذ يأنس بها: «خيراً إن

شاء الله» فقالت «حلمت أنك قابلتنى وقلت لى أريد... ثم ذكرت كلمة لن أعطيها لك حتى تقولها بنفسك، فحضر ما هي؟!» فاشتد عليه الارتكاب وقال بيسان ملعم: «لا أدرى» فقالت بصوت عذب «بل تدرى وتدارى... قل! فحلف لها بسذاجة أنه لا يدرى، فقالت: «لا فائدة من الكذب على... أولى بك أن تتذكر... كلمة أول حروفها ق!» فصمت وقد خفق قلبه واضطربت أنفاسه فقالت: «والحرف الثانى ب!» فلزم صمته وغض بصره فاستطردت تقول: «والثالث ل... قل ما الحرف الأخير!» فابتسم مرتبكا ولكنه لم يدر كيف يتكلم، فقرصته فى ذراعه وهمست فى أذنه «إذا لم تخرج عن صمتك فلن أكلمك أبدا!» وفعل التهديد فعله فرسم بأصابعه فى الهواء تاء مربوطة! فضحك بسرور وقالت: «الآن اعترفت بما ت يريد ولن أضن به عليك!» ثم أدنت منه وجهها وقد أيأسها خجله الشديد من الانتظار فأخذ قبلة مضت عقود من العمر كاملة وهو يحترق توقا إلى مثلها. وهكذا كان دائما: إحساسا عنيفا وخجلا مؤئسا. وكان يحلو لتلك اليهودية الحسناء أن تداعبه بالسخرية من قسمات وجهه، فآمن بسخريتها، واستقبع وجهه أكثر مما ينبغي، ووجد سببا جديدا يقوى به خجله الطبيعي فتضاعف، ولو أمكن رجلا أن يسلد على وجهه نقابا لكان ذاك الرجل، وكان ذلك من بواعث المبالغة فى تأنقه حينا التى انقلب فصارت إهمالا زريا حين أدركه اليأس... .

واختفت اليهودية الحسناء من حياته فجأة، فما هو إلا أن خطبها شاب من بنى جنسها حتى هجرت لعيتها لستقبل حياة الجد، غير عابثة بالجروح الدامى الذى أحدثته فى قلب غض. ييد أن القلوب الغضة سريرا ما تندمل جروحها. وفي الفترة النهائية من المرحلة الثانوية دانت أسباب الجوار أيضا بينه وبين صبية حسناء هى صغرى بنات أرملة من صديقات والدته، فألفت بينهما المودة وتشجيع الأمين اللتين ما برحتا

تدعونهما بالعروسين . ولم يكن ذاك الحب الثاني كالأول الذي كان أول يقظة لقلب مفطور على الإحساس ، ولكن حوت الصبية مزايا نادرة في رجاحة العقل ومتانة الخلق مما جعل ضياعها من بين يديه خسارة كبيرة أسف عليها أكثر الأسف . وكثيراً ما كان يحدث نفسه قائلاً : إنه لو تزوج من فتاته كما أرادت أمه وأمها لتمتع بحياة زوجية سعيدة قليلة الأشباء . ولكن عقب حصوله على البكالوريا حللت الكارثة بأسرته فأحيل أبوه إلى المعاش ودفع به هو إلى مواجهة الشدة فانتزع من نعيم الآمال ورمى به إلى جحيم اليأس ، وأصبح حتماً على الفتاة إذا أرادت أن تبقى عليه أن تنتظر عشرة أعوام ربما ينتهي من تربية أخيه . والظاهر أن أمها لم تشجع التضحية المطلوبة لما فيها من انتظار طويل ، وغلبت حكمة الفتاة - نفسها - على عاطفتها فانقطعت الأسباب وتبددت الأحلام ، وكفر أحمد بالحب وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميماً . فالحب الذي ثمل به قلبه بين يدي اليهودية وهم ضال ، أو مرض ملازم للمراهقة كتوقع التسنين للطفل . وقد قضت مرارة الحقيقة بالعقاب الصارم على من يرکن لعهد امرأة .. سواء أكانت خطيبته عقالاً وفضلاً أو كاليهودية التي علقته ما شاء لها الهوى ثم هجرته كما يهجر الإنسان حجرته ، في فندق بميدان المحطة ..

وانقضت بعد ذلك عشرون عاماً من حياته وقلبه من الحياة خواء يكابد مرارة عيشة فقيرة حقيرة مترعة بالهموم مثقلة بالتبعات ضيقية بالأمل . ولو سكنت ثائرته لأمكنه أن يجد في حياته من لذات التضحية والقيام بالواجب ما يعزيه عن خيبة آماله جميماً ، ولكن غضبه لم يسكت وحدته لم تلن فلم يزل ساخطاً متبرماً حافظاً ، لأن إنساناً ألف أن يكون المعبد الذي يقدم على مذبحه القربان لا يتحمل أن يصير كبش التضحية . وشغل بأحزانه وتبعاته وعزلته عن الحياة فكأنما رمى بقلبه - الذي لبث طوال أربعة أعوام كفيثارة دائمة الترنيم - إلى بئر آسنة فاختنق

وعاش بلا أمل بلا حبيب، وبلا قلب، لا يأنس بالحياة ولا يدرك معنى أفراحها، فدفعه القنوط من النجاح إلى العزلة، ودفعه القنوط من الحب إلى البغاء. وكأنه لم يكفه ما اعتنق من سوء ظن بالمرأة فألقى به سوء حظه بين يدي الأنوثة التعسة المشوهة ليزداد إيماناً بعقيدته المريضة. فاقنع نفسه -سوء نية- بأن المرأة الحقيقية هي البغى! .. فهي المرأة الحقيقية وقد جلت عن وجهها قناع الرياء، فلم تعد تشعر بضرورة ادعاء الحب والوفاء والطهر. على أن البغى قد نالت من نفسه أكثر من ذلك فقد أودت بالبقية الباقيه من ثقته بجدارته كرجل، إذ أنه اعتقد أن البغى إذا أحببت رجلاً فإنما تحبه لما يجذبها فيه من فحولته وجاذبيته الطبيعية بصرف النظر عن اعتبار القيم الاجتماعية وظروف التربى والجوار، فعسى أن تكون اليهودية أحبته لأنها لم تظفر بسواء، أو أن خطيبته أحبته لدعائى الجوار وإيحاء الأمهات. أما البغى فلا تختار حبيباً من بين عشرات الرجال الذين يتربدون عليها للداع من هذه الدعائى، فإذا كان لم يستطع أن يجذب إليه بغيا طوال هذا الدهر فما ذلك إلا لأنه عاطل من جاذبية الجنس.. وهكذا عانى وهم نقيبة الجنس كما عانى نقيبة الدمامنة من قبل ..

ولما أتى أخوه رشدى دراسته وحصل على بكالوريوس كلية التجارة وتوظف بنك مصر منذ عامين. وكان أخوه الآخر قد توفي منذ أمد بعيد. شعر بحق بأن مهمته قد انتهت بل وكللت بالنجاح، وساوره أمل. وهل ينعدم من الحياة الأمل؟ - أن يراود السعادة، فقد يظفر بالسعادة وإن ينس يأساً نهائياً من الجاه والسلطان، وسعى إلى أن يخطب كرية أحد التجار المقيمين في غمرة، ولكن والدها رده رداً جميلاً. وعلم الكهل أن أمها قالت عنه «إن مرتبه صغير وعمره كبير!». وترنح من هول الضربة التي هوت على كبرياته، وثار ثورة عنيفة، وكبر عليه. وهو العبقري الذى حشد الكون ما به من سوء حظ لمكافحة عبقريته. كبر عليه أن ترفضه أثني

من بنات حواء، بل أن ترفضه خاصة لأنه حقير!.. أيقال عنه حقير؟!  
فمن العظيم إذن؟!.. وكور قبضته متوعدا الدنيا بالويل والثبور والشر  
يتطاير من عينيه بالأمس هجرته حبيبه لأنه صغير لا ترجى منه فائدة،  
والاليوم ترفضه فتاة لأنه كبير لا ترجى منه فائدة، فمتى كان ذا فائدة؟!..  
أذهب العمر هباء؟!.. أضاع المجد وعزّ السعادة وانتهى كل  
شيء؟!.. وصار دأبه بعد ذلك ذم النساء ورميهم بكل نقية، فهن  
حيوانات ماكرة ومكرهن سيء قوامه الطمع والكذب والتفاهة، إنهم  
أجساد بلا روح، إنهم مصدر آلام الإنسان وويلات البشرية، وما  
أخذهم بظاهر العلم والفن إلا خدعة يختفين وراءها ريشما يوقعون في  
شباكهن الضحايا، ولو لا شهوة خبيثة أليقت في غرائزنا ما ظفرن برجاء  
ولا مودة.. وهن.. وهن.. وكثيرا ما يقول لزملائه «شرعت لنفسي-  
والحمد لله- ألا أتزوج على كثرة ما واتتني الفرص، لأنني أبي أن يتنهبني  
حيوان قدر لا روح له ولا عقل!» لقد جعل منه عجزه عن النجاح عدوا  
للدنيا، فجعل منه عجزه عن المرأة عدوا للمرأة!.. ولكن أعماقه  
اضطربت بالرغبة والعاطفة المنحومة المحرومة.

إن انفعاله لأمرأة عابرة- كما حدث اليوم- حقيق بإهاجة أعماقه  
وسرعان ما يذكر تاريخه القديم الحديث مع المرأة فيشور، ويساوره ذاك  
الشعور العميق الطافح بالحب والخوف والمقت..!

وعاد ظهرا إلى الحى الجديد، وغمغم مبتسمـا وهو يدنو منه: «ثانى  
عطفة على اليمين ثم ثالث باب على اليسار!»، وذكر وهو يرتقى السلالم

الخلزونى فتاة الصباح ذات الوجه الأسمر والعينين العسليتين النجلاويين ، ترى هل يراها مرة أخرى؟ .. وفى أية شقة وفي أى طابق من هذه العمارة تقىم؟ .. ولبث فى البيت . وقد أكملت أمه فرشه وتنظيمه . حتى العصر ، ثم بذاته أن يجعل فى طرقات الحى الجديد مستطلاً ومستكشفاً ، فارتدى ملابسه وانطلق إلى الخارج . وتربث قليلاً أمام باب العمارة ، وجعل ينظر فيما حوله كأنما ليختار ناحية يبدأ منها استكشافه . ولكن قبل أن يجمع على رأى شعر بشخص يدنو منه فالتفت إليه فرأى الرجل الذى حسب صباح اليوم أنه المعلم نونو ، وقد أقبل بخطوات ثقيلة مبتسمًا ابتسامة ترحاب وسرور ، ومد له راحة غليظة كخف الجمل وقال :

- أهلاً وسهلاً بالجبار الجديد! .. ويا ألف نهار أبيض !  
 وسلم الجبار الجديد .. ولم يكن يتوقع تلك المفاجأة من صاحب «ملعون أبو الدنيا!» ، وقال وقد ابتسمت أساريره :

- أهلاً وسهلاً بك يا معلم !  
 فأشار المعلم إلى كرسى موضوع أمام دكانه وقال والابتسامة لا تفارق شفتيه الغليظتين :

- شرفنا بالجلوس دقيقة .. دا يوم سعيد !  
 وتردد أحمد . لأن قبول دعوة المعلم ينافق الغرض الذى خرج من أجله . ولكن لأن طبعه النافر لا يستسيغ مثل هذه الدعوة الكريمة بغير تردد ، وقرأ الآخر تردداته فى وجهه ، فقال بصوته الجھوري الخشن :

ـ حلفت بالحسين . إن لم تكن قاصداً غایة تستوجب العجلة . إلا ما شرفتنا .. يا ولدي يا جابر هات شايا .. وهات نارجيلة !

وقبل أحمد . بسرور يعادل تردداته . الدعوة شاكرة ، ومضى إلى الكرسى بينما غاب المعلم لحظة ثم عاد بكرسى آخر وجلساً متقابلين .

كانت دكان الخطاط مثل بقية الدكاكين حجماً وأناقة، وقد غصت باللافتات الجميلة، وتوسطتها طاولة رصت عليها قنينات الألوان والأقلام والمساطر، وأسندت إلى إحدى قوائمها لافتة كبيرة كتب في أعلىها بالألوان الزاهية «محل بقالة خان جعفر» وتحت ذاك العنوان لاح اسم صاحب البقالة مرسوماً بالرصاص لم يلون بعد. وكان الرجل يرتدي جلباباً ومعطفاً أبيض وطاقية. في الخمسين أو نحو ذلك، ربع القامة متين البنيان، كبير الوجه والرأس واضح القسمات، يمتاز وجهه بصدغين وفم واسع، وشفتين ممتلتين، ولون قمحى مشرب بحمرة.

وقد جلس وهو يقول:

- محسوبك نونو الخطاط.

رفع أحمد يده إلى رأسه وقال:

- تشرفنا يا معلم، محسوبك أحمد عاكف بوزارة الأشغال!  
وكان لا يحب ذكر وظيفته إرضاء لكرياته، فكانت لحظات التعارف لحظات تعذيب، بيد أنه لم يتالم هذه المرة كعادته لإتقانه بما يكتنه أمثال المعلم نونو للموظفين من احترام. وقد رفع الرجل يديه إلى رأسه احتراماً ثم ابتسم ابتسامة لطيفة، وقال بما طبع عليه من صراحة:  
- أنت شرفتم حيناً يا سادة ولكن هل جئتم حقاً إلى هنا خوفاً من الغارات؟

وعجب أحمد عاكف كيف عرف سبب هجرتهم وما يمض عليهم في الحى الجديد سوى ليلة واحدة! .. ف Hodg the man بنظره إنكار وتساءل:  
- من قال لك ذلك؟

فقال المعلم ببساطة:

- الحوذى الذى نقل أثائكم، الناس جمِعاً تهاجر هذه الأيام!  
فقال أحمد عاكف يدافع عن «شجاعة» أسرته:

- الواقع أن أحيا نا المعرضة للخطر كادت تخلو ، وقد حملنا مرض والدى بالقلب وخوفنا عليه على هجر بيتنا القديم آسفين !  
وعند ذاك جاء غلام المعلم بالشاي والنارجيلة ، فوضع النارجيلة أمام المعلم ، ثم أتى بكرسى من الدكان وضعه أمام الضيف ووضع الإبريق عليه . وعزم على ضيوفه أن يحسوا الشاي وأقبل على النارجيلة بلذة وشهوة ، وأخذ نفسا طويلا روى به غلة خيشومه ثم استدرك قائلا :

- حسن أن يلتمس الإنسان سبيل الطمأنينة وإن كان العمر واحدا والرب واحدا والمكتوب حتما تشوفه العين . إنى يا عاكف أفتدى من المتوكلين على الله ، وما عرفت حتى الآن طريق المخبا . أى مخبأ يا سعادة البيك ؟ ! .. هل يستطيع نونو أن يراوغ القدر ، أو يؤجل قضاء الله ؟ ! .. ألم تسمع صالح عبد الحى وهو يغنى «نصيبك في الحياة لازم يصيبك» ؟ ! .. بيد أنى أدعوا الله أن يكفيانا شر الأيام ، وأعود فأقول إن حظنا حلو ، فلولا حكمة بعض الناس ما فزنا بهذا الجوار السعيد !

ولاحظ أحمد أن كلام الرجل حوى أوله سخرية به . وإن كانت سخرية غير مقصودة . بينما حوى آخره ما يستوجب الشكر ! .. فابتسم قائلا :

- شكرنا يا معلم ، فلطالما قال لنا الحكماء إن حى الحسين آمن !  
فأخذ الرجل نفسا عميقا ثم زفره سحابة من الدخان كثيفة وقال :  
- صدقوا ثم صدقوا ، إنه حى مبارك محبوب ، مكرم من أجل صاحبه ، وسوف ترى فيما يقبل من الأيام أنك لن تستطيع السلوك عنه أو الزهد فيه ، وسوف يدعوك شيء من الأعمق إليه .. تفضل خذ نفسا من النارجيلة .

فسكره أحمد معترضا ، وكان يحتسى الشاي بلذة مصغيا لصاحبته ،

وكأنما أراد أن يجاريه في التدخين ولكن على طريقته فاستخرج سيجارة من علبه وأشعلها مبتسمًا. وقد أحس نحو محدثه بارتياح لما وجده فيه من غرابة لم يعهد لها في أحد من الناس قبله، وأعجبته بساطته وصراحته وقوته، وأهم من هذا جميعه أنه شعر نحوه باستعلاء تلق غروره المدبر فمال إليه. أما المعلم نونو فاستدرك قائلاً:

- لماذا ترغب عن النارجيلة؟! .. إن هي إلا سيجارة بباء، أو دخان مكرر مطهر، وفوق ذلك فلحضرتها سلطنة، وقرقرتها موسيقى، وفي شكلها «سكس أبيل».

فلم يملك عاكف نفسه من الضحك فأرسل ضاحكة رفيعة ضاعت في جلجلة ضاحكة المعلم التي تصاعدت كخوار عال متصل انتهى بسعال متقطع استمر حتى انقطع نفسه، ثم قال وأساريده ما تزال ضاحكة:

- أتحسب أن البلدي جاهم؟ ألم تعلم أن زوار هذا الحى من الإنجليز أضعاف أضعاف أمثالهم من أولاد العرب؟ .. ودين الحسين ورب الحسين لتسرن بحينا سرورا لا مزيد عليه، ول يكن جوارا سعيدا وأياما سعيدة رغم هتلر وموسوليني!

- بإذن الله .. إن شاء الله!

وقال المعلم بلغة الإغراء:

- وفينا أفندية محترمون كحضرتك!

فقال أحمد بسرعة:

- أستغفر الله يا معلم، أستغفر الله.

- والحسين وجده .. بل إن جل أصدقائي أفندية من خيرة هذا الحى، فالعمارات الجديدة جذبت أسرًا طيبة كثيرة، يوجد هنا كل ما نريد .. القهوة والراديو واللطف والنارجيلة، بل هنا متسع لمرضية الله ومعصيته على السواء!

فضحك أحمد قائلًا:

-أعوذ بالله من معصية الله !

فحملق المعلم في وجهه، ثم قال مستدركا بصراحتة الغريبة كأنه يعرفه منذ سنين طويلة لا منذ دقائق :

-المرضية والمعصية كالنهار والليل لا ينفصلان، وفوقهما مغفرة الله  
ورحمته .. أحنبلى أنت؟!

-كلا .. كلا ..

-تعجبني !

-ولكن كيف يتسع هذا الحى لمعصية الله؟

-أوه .. يا ما تحت الساهى دواهى .. فصبرا حتى يأتيك اليقين ، ومع ذلك فليس الذنب بذنب حينا ، الذنب ذنب الأحياء الأخرى ، لقد ضاقت بالفساد ، فصدرت ما يزيد عن حاجتها إلينا ، على حد قول الراديو عن التجارة العالمية . هنا نحن نتصدر المواد الأولية والأحياء الأخرى توردها مصنوعة ، فمن بعض أطراف هذا الحى تصدر الخدمات فتحولها الأحياء الأخرى إلى غانيات ، فى هذه الحرب قلبت الدنيا رأسا على عقب ، تصور يا إنسان أنى سمعت بالأمس بنت بائعة فجل تدعوا أختها فتقول «تعالى يا دارلنچ» !

وضحك أحمد بسror، وانبسط وانشرح صدره، وقال وغرضه الأول أن يستدرج محدثه إلى الكلام :

-حيكم طاهر يا معلم رغم هذا كله ، فالفساد هناك فوق ما يتصوره العقل !

-اللهم احفظنا .. إلا أنه من الحكم لا نركب الهم أنفسنا ، دع الهموم واضحك واعبد الله ، الدنيا دنيا الله ، والفعل فعله ، والأمر أمره ، والنهاية له . فعلام التفكير والحزن؟! .. ملعون أبو الدنيا!

- هذا شعارك المحبوب يا معلم طالما صعد إلى حجرتى ترديدك له .  
- أجل ملعون أبو الدنيا ، هذا شعار الاستهانة لا اللعن أو السب .  
ولكن هل تستطيع أن تلعنها بالفعل كما تلعنها باللسان؟ هل  
تستطيع أن تستهين بها وتضحك منها إذا أفترتك؟ .. وإذا أعرتك؟  
وإذا كربتك؟ وإذا أجاعتكم؟ صدقنى أن الدنيا كالمرأة تدبر عنن  
يجشو بين يديها ، وتقبل على من يضرها ويلعنها ، فسياسى مع  
الدنيا ومع النساء واحدة ، واتكالى من قبل ومن بعد على الله  
سبحانه ، ورب يوم يستدبر ولما يفتح الله علينا بعليم ، ولا يدرى أحد  
ماذا يأكل العيال وما أملك ثمن النارجيلة ، فما أزال آخذنا في الغناء  
واللعن والتنكية ، وكأن العيال عيال جارى والفقير راكب عدوى ،  
ثم تفرج ، فيطلب منا عمل وأقبض مقدم الاتعاب ، افرح يا نونو ،  
اشكر الله يا نونو ، خذى يا زينب اشتري لحمة وأنت يا حسن هات  
فجلا ، اجرى يا عائشة ابتعنى بطيخة . املأ بطنك يا نونو ، كلوا يا  
أبناء نونو ، واشكرون يا زوجات نونو .

ولفت سمع أحمد قوله: «زوجات نونو» فتساءل ترى كم زوجة  
يضم حريم نونو؟! .. وهل يحدثه بأسراره الداخلية بمثل صراحته هذه  
عن فلسنته العامة؟! .. ولم يجد سبيلا إلى غرضه إلا بالحيلة ، فسألة:  
- كان الله في العون ، الظاهر أن أسرتك كبيرة .

فقال الرجل ببساطة:

- أحد عشر كوكبا ، وأربع شموس .

ثم أشار إلى نفسه وكم قائلًا:

- وقمر واحد!

فتردد عاكف لحظات ، ثم قال:

- أزواج أربع؟

- ما شاء الله .

- وإن خفتم ألا تعدلوا؟

- ومن قال عنى إني ظالم؟

- وهل تستأجر بعما لذلك بيوتاً أربعة؟

- بل شقة واحدة كشقة حضرتك ، مكونة من حجرات أربع في كل حجرة أم وأبناؤها!

فلاحت الدهشة في وجه الرجل ونظر إلى محدثه بانكار ، فضحك المعلم ضحكته العظيمة بفخار ، وقال :

- ما الداعي للدهشة يا أحمد أفندي؟

فأاتت أحمد جراءة ليست من طبعه ، وسأله :

- لماذا لم تقعن بو واحدة؟

- واحدة؟! .. أنا خطاط ، والنساء كالخط أنواع لا يغنى نوع عن نوع ، فهذه نسخ ، وتلك رقعة ، وثالثة ثلث ، ورابعة فارسي ، أنا لا أوحد إلا الله .

- ولكن أليس الأربع بأكثر مما ينبغي؟

ـ ليتهن كفيتني ، أنا والحمد لله أكفي مدينة من النساء ، أنا المعلم نونو والأجر على الله !

- وكيف تجمعهن في شقة واحدة! .. ألم تعلم بما يقال عن غيرة النساء؟

ـ فهز المعلم منكبيه العريضين استهانة وبصق على الأرض ، ثم قال :

- هل تصدق ما يقال عن النساء وغيرهن ومكرهن؟! .. كل أولئك سجايا خلقها ضعف الرجل . المرأة في الأصل عجينة طرية ، وعليك أن تشكلها كما تشاء ، واعلم أنها حيوان ناقص العقل

والذين فكمّلها بأمرين : بالسياسة والعصا! .. فما من واحدة من نسائى إلا مطمئنة إلى أنها الأثير المفضلة ، وما من واحدة استوجبـت أكثر من علقة واحدة ، ولن تجد مثل بيـتى سعادة وهدوءا ، ولا مثل زوجاتى حشمة وتنافسا في ارضياتى ولذلك لم يجرؤـن على مغاضبـتى حين علمـن بأنـى لـى خليلـة!

فصاحـ أحـمدـ عـاكـفـ:  
ـ خـليلـةـ!

ـ سبحانـ اللهـ ربـيـ! مـالـكـ تـدـهـشـ لـأـنـفـهـ الـأـشـيـاءـ؟ أـقـولـ إـنـ طـعـمـيـةـ  
الـبـيـتـ لـذـيـذـةـ، وـلـكـنـ مـاـرـأـيـكـ فـيـ طـعـمـيـةـ السـوقـ؟

ـ وـهـلـ تـرـضـىـ زـوـجـاتـكـ عـنـ خـلـيلـتـكـ؟

ـ الرـضـاـ يـساـوـيـ التـعـودـ عـلـىـ الرـضـاـ، وـأـنـتـ بـرـجـولـتـكـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـحـمـلـ  
الـمـرـأـةـ عـلـىـ مـاـ تـرـيدـ فـتـعـمـلـ مـاـ تـشـاءـ، وـتـؤـمـنـ بـمـاـ تـشـاءـ، وـالـرـجـلـ القـوـىـ  
لـاـ يـلـجـأـ إـلـىـ الطـلاقـ إـلـاـ إـذـاـ وـاقـقـ هـوـاهـ.

فـابـتـسـمـ أحـمدـ وـقـالـ:  
ـ عـوـفـيـتـ يـاـ مـعـلـمـ!

ـ وـأـخـذـ الـمـلـمـ أـنـفـاسـاـ مـتـابـعـةـ، ثـمـ سـأـلـ ضـيـفـهـ:

ـ هـلـ أـنـتـ مـتـزـوجـ يـاـ أحـمدـ أـفـنـدـيـ؟

ـ فـأـجـابـ بـاـقـتـضـابـ وـقـدـ اـمـتـعـضـتـ نـفـسـهـ:

ـ كـلاـ..

ـ وـلـاـ وـاحـدـةـ؟

ـ وـلـاـ نـصـفـ وـاحـدـةـ.

ـ فـضـحـكـ الرـجـلـ، وـقـالـ بـصـرـاحـتـهـ الـمـعـهـودـةـ:

ـ أـنـتـ بـغـيرـ شـكـ نـطـاطـ كـبـيرـ!

فابتسم أحمد ابتسامة غامضة، ولم يعرض لقوله بنفي أو إثبات،  
قال نونو ضاحكاً:  
ـ عوفيت.. عوفيت!

وبلغ المعلم نونو من نفسه مال ميلغه سواه، فأحدث فيها يقظة  
عنيفة، كأن شيئاً ينافقه قوة وصحة وابتساماً، وإقبالاً على الحياة،  
وفوزاً وسعادة، فأعجب به إعجاباً استمدّه من عجزه عن مجاراته،  
وقدّ عليه لتفوقه وسعادته، إلا أنه كان حقداً خفيفاً لا يقاوم بما أحدهه  
في نفسه من شعور بالاستعلاء، فغلب ميله إليه حقده عليه، واستثار فيه  
رغبة جديدة للاختلاط به ويعيده العجيب.

وعندما استأذن في الانصراف، قال له المعلم:  
ـ عليك بقهوة الزهرة هي قهوة صغيرة، ولكنها تجمع أفنديّة هذا الحى  
المحترمين، وستعرف فيها الصفوّة من جيرانك، هلا حضرت هذا  
المساء؟!

قال أحمد وهو يودعه:  
ـ إن لم يكن هذا المساء، فمساء الغد إن شاء الله.  
وسلم عليه شاكراً، ثم مضى إلى ما كان بسبيله من اكتشاف أنحاء  
الحى الجديد.

## ٦

وعند مساء اليوم الثاني غادر العمارة ووجهته قهوة الزهرة، فوجدها  
عند مدخل شارع محمد على الكبير، وهو السابق لشارع إبراهيم باشا.  
وكانت في حجم الدكان ذات مدخلين أحدهما على شارع محمد على

والثانى على الممر الطويل الذى يؤدى إلى السكة الجديدة . وقد وجد فى الحى من أمثال هذه القهوة عشرات حتى قدر قهوات الحى بمعدل قهوة لكل عشرة من السكان . وأقبل على القهوة متمهلاً متربداً لأنه لم يتعد ارتياح المقاهى ولا ألف جوّها . وما كاد يعبر بابها حتى رأى المعلم نونو يتوسط جماعة من الأفنديّة بينهم واحد من أهل البلد . ورآه المعلم فنهض قائماً مبتسمًا وقال بصوته الجھورى الخشن :

- أهلاً وسهلاً تفضل يا أحمد أفندي !

فاقترب منه بقامته الطويلة النحيفة تلوح على شفتيه ابتسامة ارتباك وحياء . ماداً يده بالسلام ، فتلقاها براحتة الغليظة ، ثم التفت إلى الجماعة قائلاً :

- جارنا الجديد أحمد أفندي عاكف الموظف بوزارة الأشغال .

فنهض الرجال نهضة واحدة في لطف واحترام زاد من ارتباكه وحياته ، ومضى يسلم عليهم واحداً فواحداً والمعلم يقدمهم قائلاً :

- سليمان بك عٌتَّةً مفترش بالتعليم الأولى ، سيد أفندي عارف بالمساحة ، كمال أفندي خليل بالمساحة أيضاً ، الأستاذ أحمد راشد المحامي ، المعلم عباس شفة من الأعيان .

وأوسعوا له مكاناً بينهم ورحبوا به أياماً ترحيب ، فأخذ يأنس بهم وينفض عن نفسه الارتباك والحياء . وما لبث أن ساوره شعور سعيد بالعزّة والاستعلاء أحسن إخفاءه بابتسامة حلوة ونظره حية .

لم يخامر شكّ قط في تفوقه على هؤلاء الناس من جميع الاعتبارات والوجوه ، فهو من أهل السكاكيّنى وهو من أبناء الدراسة أو الجمالية ! وهو المفكّر والعقل الكامل وهم لا شيء من هذا جمّيعه . بل خال أن وجوده بينهم تعطف جميل وتواضع محبوب ، بيد أنه تسأله متّحراً ترى كيف السبيل إلى تفهيم هذه الجماعة حقيقة قدره وإطلاعهم

على مزاياه العقلية والثقافية؟ .. كيف يقنعهم بعظمته ويدعوهم إلى احترامه! .. لا شك أن ذلك آت لا ريب فيه إذا اتصلت المودة وتكرر اللقاء. فلا عليه من تأخيره جلسة أو اثنتين! .. وتقلب بصره بين الوجوه الجديدة يعاينها باهتمام. فهذا سليمان عنة المفتش رجل في الخمسين أو يزيد، قبيح الوجه لحد الازدراء، قميء ذو أحدياد، يذكرك وجهه بالقرد في انحدار جبهته وبروز وجنته واستداره عينيه وصغرهما وكبر فكيه وفطس أنفه، إلا أنه حرم من خفة القرد ونشاطه، فبدا وجهه ثقيلاً جامداً متوجهماً كأنه سيؤخذ بجريرة قبمه، أما أجمل ما فيه فمبحة قهرمانية لعبت أنامل يمناه بحباتها، ومن عجب أن صورته على قبها لم تهج مقته ولكنها استارت هزءه وسخريته، والمدعو سيد عارف كهل في مثل سنّه على وجه التقرير، صغير الحجم رقيق الأعضاء، لبشرة وجهه نعومة وفي نظرة عينيه براءة، أما كمال خليل فرجل تلوح في عينيه الرزانة. كبير العناية بهنداهه وأناقته، معتدل القامة يمبل للبدانة، وكان أحفل القوم استقبالاً للجار الجديد. ثم تحول إلى أحمد راشد باهتمام خاص، فوجده شاباً في ريعان الشباب، مستدير الوجه ممتلئاً كبير الرأس تكاد تخفي صفحه وجهه نظارة سوداء عميقه السواد. أثار هذا الشاب اهتمامه لأنّه محام، والمحامي رجل متعلم، والمحاماً مهنة طمع فيها أول عهده بالأعمال وعجز عنها وإن لم يقر بعجزه قط . فما يزال يحقد على المحامي حقده على الأديب والعالم، وقد اعتاد أن يشعر نحو الواحد منهم كما يشعر الرجل نحو آخر تزوج من فتاة يحبها، فوجد فيه عدواً وتوثب للانقضاض عليه، ولم يبق من الجماعة إلا المعلم عباس شفة، وهو شاب ذو سحنة زنجية توحي ملامحه الغليظة الدمية بالدناءة والوضاعة، قد ارتدى جلبباً فضفاضاً وشيشباً وترك رأسه بلا غطاء فانتقض شعره الملفلف وزاده دمامه وقبحاً وبدأ شيئاً

حقيرا لا ينقصه سوى لباس السجن! .. واحتلت الجماعة على صغرها أكثر من ثلث القهوة، وجلس القهوجى إلى صندوق الماركات على كتب منها وكأنه - لاشراكه في أحاديثها - واحد منها! .. وبينما أقبل المعلم نونو وكمال خليل أفندي على أحمد عاكف أيها إقبال ثابر سليمان عنة على جموده وتجهمه كأنما نسيه نسيانا تماما! .. أما الأستاذ أحمد راشد فجعل ينصلت إلى حديث يذيعه الراديو.

ووجهَ كمال خليل الخطاب إلى عاكف قائلاً:

- علمنا أن حضرتك آت من السكاكينى!

فحننى أحمد رأسه قائلاً:

- أجل يا أستاذ!

فسألَه الرجل باهتمام:

- أحقاً لم ينج من بيوت الحى إلا عدد قليل؟

فضحكَ أحمد قائلاً:

- الحقيقة أنه لم يهدم سوى بيت واحد.

- يا للناس من الإشاعات! .. فماذا فعلت تلك الفرقعة الهائلة التي خلناها في بيوتنا؟

- كانت فرقعة في الهواء!

فتتحول الأستاذ أحمد راشد عن الراديو - مما دل على أنه لم يستغرق كل انتباذه - وسأل الجار الجديد:

- وهل سقط طوربيد حقاً ولم ينفجر؟

فقالَ أَحمد وقد شعر بسرور لتحول الشاب إليه:

- وقيل طوربيدان ولكن أحبط بهما وعالجهما الخبراء.

فقالَ أَحمد راشد:

- من لنا بذاك الخبرير الكندى الذى قرأتنا عنه فى أنباء الحرب؟ .. يقال  
إنه أنقذ أحياe كاملة فى لندن!

فتساءل سيد عارف كالمتهمكم وكان من محبي الألمان:

- أما تزال توجد أحياe كاملة فى لندن؟

فابتسم أحمد راشد وقال عاكف:

- صاحبنا من أنصار الألمان!

وضحك المعلم نونو قائلا مكملأ قول المحامي:

- لأسباب طيبة!

وتورد وجه سيد عارف، ولكن المعلم نونو لم يرحمه فأرسل  
ضحكته العظيمة مرة أخرى وقال:

- يحسب أن الطب الألماني يستطيع أن يعيد الشباب!

وقطب سيد عارف جبينه مستاء، والظاهر أنه كبر عليه أن يصارج  
بمثل هذا الكلام أمام رجل ما زال جديدا في جماعتهم، وأدرك أحمد  
عاكف أن وراء ملاحظة نونو ما وراءها، ولكنه لم يبد على وجهه أنه  
سمع شيئا، وأراد نونو أن يستدرك هفوته فراح يحدث الضيف عن الحى  
المجديد مثنيا عليه بما يعلم حتى علق أحمد راشد على كلامه قائلا:

- هذا الحى هو القاهرة القديمة، فهو بقایا متداعية حقيقة بأن تهز  
الخيال وتوقظ الحنان وتثير الرثاء، فإذا نظرت إليها بعين العقل لم تر  
إلا قذارة تقتضينا المحافظة عليها التضحيـة بالبشر، وما أجدـرـ أن  
نحوها لتـبعـ للناس التـمـتعـ بالـحـيـاةـ الصـحـيـةـ السـعـيـدةـ!

وتتبـهـ أحمدـ إلىـ ماـ فـيـ قولـ صـاحـبـهـ منـ جـدـةـ عـسـىـ أنـ تنـزـلـهـ منـ القـومـ  
مـنـزلـةـ المـحدثـ المـاهرـ وـالمـفكـرـ الذـكـرىـ، خـاصـةـ وـأـنـ لـشـهـادـتـهـ الـحـكـومـيـةــ.  
ليـسانـسـيـةـ الـقـانـونــ. مـكـانـةـ يـدـيـنـ لـهـ الجـهـلـاءـ وـالـسـذـجـ، فـخـافـ أنـ يـتـازـ  
عـلـيـهـ، فـوـبـ لـلـنـضـالـ، وـأـجـمـعـ عـلـيـهـ مـعـارـضـتـهـ بـأـيـ ثـمـنـ، فـقـالـ:

- ليس القديم من البقاء مجرد قذارة، فهو ذكرى قد تكون أجل من حقائق الواقع، فتبعد في النفوس فضائل شتى! .. إن القاهرة التي ت يريد أن تمحوها من الوجود هي القاهرة المعزية ذات المجد المؤثل.  
أين منها هذه القاهرة الجديدة المستعبدة؟  
ووقع هذا الكلام من نفوس القوم موقعًا حسناً فرأه في أعينهم، فسر به، وأراد أن يهتم الفرصة ليعلن عن علمه فقال:  
- معذرة يا أستاذ أحمد فقد قرأت عن تاريخنا مجلدات جعلت تعلقى

: به أمراً مقضياً!

فقال السيد عارف:

- الظاهر أن أحمد أفندي من عشاق التاريخ!  
فسر أحمد بما هيأه كلام الرجل من فرصة أطيب للحديث عن معارفه، فقال مبتسمًا:  
- الواقع أنني لا أُعشق التاريخ أكثر من غيره من فروع المعرفة،  
والحقيقة أنني أنفقت أكثر من عشرين عاماً في تحصيل المعارف المختلفة!

فولاه القوم نظرات دلت على الاهتمام، وفسر هو ذلك الاهتمام بأنه أكباد فرقض قلبه طرباً، ولكنكم ولدو يستطيع أن ينفذ إلى عيني أحمد راشد خلال عويناته السود ليقرأهما. وقد سأله كمال خليل:

- ولماذا تدرس هذه المعارف يا «أستاذ»؟! .. أتحضر لشهادة ما؟  
وعلى قدر سروره بلقب أستاذ غص بيقية السؤال فقال باستكبار:  
- أيه شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة؟! .. ما الشهادة إلا لعبه يستبق إليها الشبان، أما دراستي فلا غاية لها إلا العلم الحق، وربما مهدت بها يوماً إلى التأليف المتوج.  
فسألته أحمد راشد وعلى ثغره ابتسامة أحنته:

- ما معنى أن الشهادة لعبة؟

فقال أحمد كاظما حنقه:

- الشهادة ليست دليل العلم!

- أهي دليل الجهل؟

فأخذ غيظه يفور حتى أجهده أن يكتمه، ثم استدرك قائلاً:

- أعني أن الشهادة هي الدليل على أن شاباً حفظ بعض المواد بضع سنين، والعلم الحق شيء غير هذا البتة!

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن الجدل، وكان يعطف على رأى محدثه في الشهادات. بل أنه لم يغب عنه الحدة التي يسوق بها رأيه، مما جعله يميل إلى فرض احتمال وجود أسباب أخرى لذاك الرأى غير التي أعلنها. ورحب أحمد عاكف بصمته لأنه يرجع كفته عليه أمام «العوام» الذين يجالسونهما!.. وساد الصمت ببرهة، وجعل المعلم نونو يفرغ الشاي في أكواب الجلوس. ودار عاكف ببصره في المكان، فلاحظ لأول مرة أن غلاماً يجلس على كرسى جنب كمال خليل أفندي، ولم يدر أكان موجوداً قبل مجิئه أم أنه جاء في أثناء اشتغاله بالحديث، ولكنه أيقن من أول وهلة أنه ابنه، لشابه لا تخفي عن النظر العابر، وتركه بصره إلى غيره ولكنـه عاد إليه سريعاً، فقد استوقفه انتباـهـه «شيء» في وجه الغلام لم يدر ما هو على وجه التحقيق. ولم يستطع أن يرمـيـ إلـيـهـ بطـرـفـهـ طـويـلاـ، فجعلـ يـخـتـلـسـ منـ وجـهـ نـظـراتـ حـائـرـةـ منـ وـرـاءـ كـوـبـ الشـايـ وهوـ يـحـتـسـيـ منهـ رـشـفـةـ بـعـدـ أـخـرـىـ.ـ ماـ الـذـىـ جـذـبـ اـنـتـبـاهـهـ إـلـىـ ذـلـكـ الـوـجـهـ فـكـادـ أـنـ يـنسـىـ آـثـارـ المـعرـكـةـ التـىـ خـاصـ غـمارـهـ؟ـ!ـ.ـ لـعـلـهـ شـعـورـ غـامـضـ بـأـنـهـ رـآـهـ مـنـ قـبـلـ،ـ بـأـنـهـ رـأـىـ هـاتـيـنـ العـيـنـيـنـ الـواـسـعـيـنـ،ـ وـنـظـرـاتـهـمـاـ الـحـلـوةـ السـاذـجـةـ.ـ وـمـثـلـ هـذـاـ الشـعـورـ لـاـ يـرـيحـ صـاحـبـهـ حـتـىـ يـتـضـعـ الغـامـضـ مـنـ الذـكـرـيـاتـ عـلـىـ ضـوءـ التـذـكـرـ

والعرفان، وإن كان في الغالب لا يفيد شيئاً ذا بال. ولذلك ألح عليه هذا السؤال «أين رأيت هذا الوجه؟ ومتى كان ذلك؟». في السكاكيين؟ .. في الترام؟ .. في الوزارة؟ .. وردت ذاكرته على عناده وإلحاحه ببعث ساخر معدب، فجعلت تدنى إلى وعيه الصورة وترميه بأطياف الزمان والمكان حتى خال أنه ظفر بها أو كاد، ثم لا تلبث أن تتبلع الأطيف في ظلمة عميقة، وتتراجع بالصورة عن الوعي المشوق، فيعود الغموض والإبهام والمحيرة إلى ما كانت عليه. ورغم أخيراً أن يعرض عن تذكر شيء ليست معرفته بالطلب الهام، ولكن الحقيقة أن ذاكرته لم تعد الشيء الوحيد الذي يحيره ويلاع عليه! الحقيقة أن رغبة صادقة أو شعوراً عميقاً راح ينزع بقلبه إلى العينين النجلاويين ونظرتهمما الخلوة السادجة!! فكلما اختلس نظرة استثار في أعماقه حناناً ووداداً وانجذاباً !! وملكته المحيرة. وتولاه الحياة، وحضر أعين الجلوس حذر مريب مذهب!! فأطرف ممسكاً بعروة الكوب وقلبه شديد الخفقات. وأبي خياله أن يفارق الغلام، فعلق وجهه وتمثل نظرة عينيه، ودار قلبه عطفاً ووداداً وهياماً. وهمت عيناه أن تخونا إرادته ولكنه شد عليهمما بخوف وغضب، وتساءل متثيراً عما دهاه؟! .. بيد أن المعلم نونو انتشله من خلوته النفسية المحيرة فسأله:

- لا تحب أن تتسللى بلعب شيء؟

فنظر إليه كمن تنبه من سبات بفتحة وقال ببساطة:

- لا أدرى عن الألعاب شيئاً!

فضحك كمال خليل قائلاً:

- إليك الأستاذ أحمد راشد قريناً وشبيهاً في ذلك، فتسامراً معاً ريشماً نلعب ساعة ..

ثم التفت الرجل إلى ابنه، وقال له:

- هلم إلى البيت يا محمد.

فخفق قلب عاكف ، وأرسل نحوه ناظريه ، فتبعاه وهو يسير بخطى لطيفة حتى غبيه الباب . فعاد يقول لنفسه متৎرا : « هلا ذكرت متى عرفت هذا الغلام؟ ». وكانت الجماعة قد انقسمت فريقين ، فلعب المعلم نونو وكمال خليل الدومينو ، ولعب سليمان عنة وسيد عارف النرد . أما عباس شفة فتزحزح بكرسيه إلى مجلس المعلم « القهوجي » ، وتنحى أحمد راشد ليوسع للاعبين ، فصار جنب أحمد عاكف . وشعر الرجل باقتراحه فتغير شعوره العجيب وتثبت مرة أخرى للنضال وال伊拉克 . وذهب الهيام وجاء الغضب والخذل! .. والتفت الشاب نحوه قائلا برقه :

- كيف حالك يا أستاذ؟! .. لا تحسين أني قد يهم عهد بخان الخليلى لقد سبقتك إلى هنا بشهرین !

فابتسم عاكف مسرورا بتودد الآخر إليه ، وقال كالمتسائل :

- الغارات أيضا؟!

- تقربيا! .. الواقع أن مسكننا القديم في حلوان أخلى لأغراض عسكرية فرأيت أن أنتقل إلى القاهرة قريبا من مكان عملي ، ووجدت مشقة في البحث عن شقة خالية حتى أرشدنى صديق إلى هنا!

فقال أحمد عاكف وقد أخفض صوته :

- ياله من حى مزعج!

- أجل! .. ولكنه مسل وغريب وحافل بالفنون والنماذج البشرية المدهشة . أنظر إلى القهوجي الذى يحدثه عباش شفة ، أنظر إلى عينيه الذاهلتين! .. إنه يزدرد نصف درهم من الأفيون كل أربع ساعات ، ويقضى فى عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب أن يفيق .

- وهل تطيب الحياة على هذا النحو؟!

- لا أدرى! .. المؤكد فقط أن اليقظة التي نحبها ونستزيد منها بالقهوة والشاي يقتها الرجل وكثيرون أمثاله: وتراء إذا أجبر بسبب ما، على البقاء فيها مدة، متثائباً، دامع العينين، شرس الخلق، ولا تسكن ثائرته، ويصفو مزاجه حتى يغيب عن الوجود، وبهيم في عالم الذهول: أهى لذة عصبية تكتسب بالعادة؟! .. أم سعادة وهمية تهرب إليها النفس من شقاء الواقع! .. علم هذا عند المعلم نفسه!

إنه يخاف شقاء الواقع، كواحد من هؤلاء المدميين، ويهرب منه أيضاً لأنّذا بعزلته وبكتبه، فهل هو أسعد حالاً منهم؟! .. ورغم عن الاسترسال في ذلك الموضوع، فسأل محدثه وقد غير لهجته:

- هل أستطيع أن أكتب على دراستي في مثل هذه الموضوعات؟

- ولم لا؟ .. الموضوعات قوية حقاً، ولكن العادة أقوى، وسوف تألف الموضوعات حتى ليزعجك سكونها. وقد كنت باديء الأمر ألقاها متوجهما متقدراً يائساً، أما الآن فترانى أكتب مرافعاتي وأراجع مواد القانون هادئاً مطمئناً وسط هذا الدوى الذي لا ينقطع.

الاترى أن العادة أمضى سلاح نواجه به غير الدهر؟!

فهز رأسه موافقاً، وقال كأنه يستذكر أن ينفرد الآخر ولو بهذا القول المبتذر:

- ولذلك قال ابن المعتز:

إن للمكروره لذعة هم فإذا دام على المرء هانا  
فابتسم أحمد راشد ابتسامته الغامضة. وكان لا يحفظ الشعر ويحتقر الاستشهاد به فتساءل في رفق:

- أأنت يا أستاذ عاكف من الذين يستشهدون بالشعر؟

## فتسائل عاکف پانکار:

-وماذا ترى في ذلك؟

- لا أكاد أفهم !

-أريد أن أقول إنني أكره الاستشهاد بالشعر لأنني أكره الرجوع إلى الماضي . أريد أن أعيش في الحال وللمستقبل وحسبى ما في الماضي من حكماء هم أهل للإرشاد والتوجيه !

وكان أحمد عاكف على عكس صاحبه يحسب أن الماضي انطوى على العظمة الحقيقة، أو أنه لم يعرف غير بعض ثناذج العظمة الماضية ولا يدرى شيئاً عن عظماء «عصرنا» فثارت ثائرته وقال منكراً:

-وفيم إنكار عظمة الغائبين، وفيهم الأنبياء والرسالات!

- لعصابنا، سله كذلك!

فتساءل في هذه: وأوشك الرجل أن يعلن دهشته ولكنه كان أحقر من أن يهدى - في حديث دهشته إلا إذا أوجب ذلك جهل محدثه - لا علمه طبعا.

## - ومن رسل العصر الحاضر؟

-أضرب مثلًا بهذين العقريين: فروفيد وكارل ماركس!

وشعر ييد تضغط على عنقه فتكم أنفاسه! بل شعر بجرح عميق في  
كرامته، لأنه لم يسمع قبل الآن بهذين الاسمين! .. وأضمر لصاحب  
غضبا جنونيا. ولكن لم يسعه إظهار جهله فهز رأسه هزة العارف العالم

أ.د. أم كلثوم عثمان العلاق - الأستاذ

وكان سرور المحامي الشاب بعثوره على إنسان مثقف لا يعادله سرور فراغ في المناظرة رغبة قوية، وأدنى كرسيه إلى كرسى صاحبه حتى لم يعد يفصل بينهما شئ وقال بصوت لا يسمعه سواه:

- لقد هيأت فلسفة فرويد للفرد فرص النجاة من أمراض الحياة الجنسية التي تلعب في حياتنا الدور الجوهري. ونهج له كارل ماركس سبل التحرر من الشقاء الاجتماعي، أليس كذلك؟  
وتحقق فؤاد الكهل الحاقد الغاضب، ولم يدر هذه المرة كيف يعارض فضلا على أن يتصر، فراغ عن مواجهته إلى التحايل عليه فقال بهدوء وصدره يغلق:

- مهلا.. مهلا يا أستاذ، لقد كنا مثلك متحمسين، ولكن تقدم العمر ومداومة الفكر حقيقة بالزمام الإنسان حدا من الاعتدال.

فقال أحمد راشد بلهجة لم تخل من حدة:  
- ولكنني أحسن التفكير فيما أطلع عليه؟

- بغير شك إلا أنك شاب وستكتسب بالعمر حكمة حقيقة، ألم تسمعوا يقولون «أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة!».

- مثل قديم أيضا!  
- وحكيما!

- لا حكمة في الماضي!  
- رباه!

- لو وجدت في الماضي حكمة حقيقة لما صار ماضيا فقط!  
- وديننا؟

فرفع الشاب حاجبيه دهشة، ولو استطاع عاكف أن يستشف ما وراء النظارة السوداء لرأى نظرة احتقار تورث الجنون. وغمغم الشاب:

- يا للسذاجة !

وكان عاكف قرأ فلسفه إخوان الصفا الدينية فرغم أن يلخصها في  
كلمات لمحده البغيض ليدفع عن نفسه تهمة الأخذ برأى العوام في  
الدين من ناحية وليغمض على صاحبه كما غمض عليه ، فقال :

- إن في الدين ظاهرا حسيا للعوام وجوهرا عقليا للمفكرين ، فهناك  
حقائق لا يضيق المثقف بالإيمان بها مثل الله والناموس الإلهي  
والعقل الفعال !

فهز الشاب منكبيه استهانة وقال :

- إن العلماء المعاصرين يعلمون بما في الذرة من عناصر ، وبما وراء عالمنا  
الشمسي من ملايين العوالم ، فأين الله ، وما أساطير الديانات ؟ ! ..  
وما جدوى التفكير في مسائل لا يمكن أن تحل ، وبين أيدينا مسائل لا  
حصر لها يمكن أن تحل وينبغى أن نجد لها حل !

ثم ابتسם الشاب ابتسامة سريعة وقال وقد غير لهجته المتداقة :

- لا يجوز أن نشرك ثالثا من جماعتني في هذا الحديث !

- طبعا .. طبعا يا أستاذ ، ولكن لا تنس أن أول العلم كفر دائمًا .

وقطع عليهمما الحديث ارتفاع صوت سليمان عنة بالغضب ،  
والظاهر أن ملاعبه سيد عارف أغاظه بهذره فتهيج القرد وصاح به :

- إن الله الذي سلبك قواك عادل حكيم !

وذكر أحمد عاكف ما قيل عن سيد عارف منذ ساعة فنظر إلى  
أحمد راشد مبتسمًا فرد الشاب على ابتسامته ابتسامة ذات معنى  
وقال :

- صاحبنا يجرب الأقراص ويعقد بها رجاء صادقا !

ولفت انتباهمـا جماعة من لابسى الجلاليب أحاطوا بهائدة عند

مدخل القهوة ومضى كل منهم يعد رزمة ضخمة من الأوراق المالية، وكان منظراً يستدعي الدهشة لما فيه من أوجه التناقض، فقال أحمد عاكف:

- لعلهم من أغنياء الحرب!

فقال الآخر موافقاً:

- سيهجرون طبقة ويلحقون بأخرى!

- إن الحرب ترفع كثيرين من السفلة!

- السفلة! .. هذا صحيح ولكن لا يوجد حد فاصل بين السفلة والطبقة العالية، فأرستقراتيو اليوم كانوا سفلة الأمس. ألا تعلم أن رعاع الغزارة انتهوا في الماضي أراضينا بحكم الغزو؟ .. وها هم أولاء يكونون طبقة عالية ممتعة بالجاه والسؤدد والامتيازات التي لا حصر لها.

ولأول مرة يميل إلى موافقته دون نزوع إلى المعارضة، فقال:

- هذارأيي!

فاستدرك الشاب قائلاً:

- وويرى كارل ماركس أن العمال سيظفرون بالنصر النهائي فيصير العالم طبقة واحدة ممتعة بالضرورات الحيوية والكمالات الإنسانية، هذه هي الاشتراكية!

ولزما الصمت كأنما أجهدهما التعب، فجعل عاكف يفكر متآلاً: يا لها من آراء! .. فرويد وماركس، الذرات وملائين العوالم، الاشتراكية! .. واحتلّس منه نظرات ملتقطة بالحقد والكراءة والحنق. فما كان يظن قط أنه سيعثر في خان الخليلى على من يتحدى ثقافته، ويجبره على التسلّيم بأن فوق كل ذى علم عليما! .. أفلًا يظفر بالراحة في هذه الدنيا؟ !

وعند ذاك خلع الشاب نظارته ليمسح عينيه بمنديله فاكتشف أن عينه  
اليسرى زجاجية! ودهش أول وهلة، ثم غمره شعور بالارتياح  
خبيث، لأنه وجد في عوره وجهه للاستعلاء عليه أيا كان هذا  
الوجه! ..

ولبث فترة قصيرة، ثم غادر القهوة عائدا إلى البيت هائج النفس ثائر  
الكرامة، وحسن حظه ذكر فجأة الغلام! .. وسرعان ما تغيرت حاله  
ورفت على حواسه الملتهبة نسمة رطيبة أذهبت رياح الحقد والغضب،  
وتمثلت لخياله العينان النجلاءان، والنظرة الفاتنة، فتنهد متثيرا،  
وهمس لفؤاده «سأراه حتما مرة أخرى!».

## ٧

ونهض في الصباح المبكر نشيطا، ففتح النافذة وأطل منها على الحى  
العجبى فوجد الحى يتمتعى مستيقظا فالدكاكين ترفع أبوابها ونواخذ  
الشقق تفتح على مصاريعها وباعة اللبن والصحف ينطلقون إلى الطرق  
المتشابكة منادين بغير انقطاع. وجذب انتباذه قدوم جماعات من  
«مشياخ» المعاهد الأولية الغلمان يسيرون زرافات نحو معاهدهم فى  
جب سوداء وعمم بيضاء فذكروه «بالفسار» فى المقلى وأنصت إليهم  
مستلذا وهم يرثلون معا «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن  
 شيئا مذكورا». وجعل رأسه يروح معهم ويتجىء حتى ختموها «يدخل  
من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما»، فذكر لتوه  
أحمد راشد المحامى فهو من الذين أعد لهم العذاب الأليم! .. وإن به  
لحقيق!

وعند عصر ذاك اليوم وقد جلس وأمه فى الصالة يشربان القهوة  
قالت له المرأة بسror :

- زارنى اليوم نساء الحى من الجيران للترحيب بي والتعرف إلى كما  
جرت العادة .

فابتسم أحمد الذى يقدر سرور أمه بمعرفة الناس وولعها بالزيارة  
وقال لها :

- هنئنا لك !

فضحكت وهى تتناول منه سيجارة ، ثم أشعلتها وهى تقول :

- فيهن نساء لطيفات سيملاًن غربتنا حرارة وحبورا !

- لعلك أن تنسى بهن الصديقات القديمات من نساء السكاكينى  
والظاهر والعباسية !

فكبـر علـيـها قـولـه وصـاحـتـ بـه :

- أينـسـى الـكـرـيم أحـبـابـه ؟! .. هـنـ روـحـى وـحـيـاتـى ، ولـنـ يـفـرـقـ بـيـتنا  
الـبـعـدـ مـهـمـاـ اـمـتـدـ وـطـالـ .

- وـنـسـاءـ الحـىـ منـ أـىـ نوعـ هـنـ ؟

فـقـالـتـ المـرـأـةـ باـهـتـامـ وـبـلـهـجـةـ منـ يـنـبـرـىـ لـلـدـفـاعـ :

- لـسـنـ مـنـ السـفـلـةـ وـلـاـ مـنـ الغـرـ كـماـ ظـنـتـ ، وـبـعـضـ الـظـنـ إـثـمـ ، وـكـانـ  
بـيـنـ الـلـائـىـ زـرـنـىـ زـوـجـ موـظـفـ بـالـمـسـاحـةـ يـدـعـىـ كـمـالـ خـلـيلـ ، وـزـوـجـ  
آـخـرـ بـالـمـسـاحـةـ أـيـضاـ يـدـعـىـ سـيـدـ عـارـفـ ، وـجـاءـتـنـىـ أـيـضاـ زـوـجـ صـاحـبـ  
مـقـهـىـ الزـهـرـةـ وـشـقـيقـتـهـ ، وـالـزـوـجـةـ اـمـرـأـةـ طـيـبـةـ الـقـلـبـ ، أـمـاـ شـقـيقـةـ  
زـوـجـهـاـ فـيـنـطـلـقـ فـيـ عـيـنـيـهاـ الـمـكـرـ وـالـشـرـ ، وـإـنـ سـتـرـتـ ذـلـكـ كـلـهـ بـغـلـالـةـ  
شـفـافـةـ مـنـ الرـقـةـ وـالـبـتسـامـ !

- دـارـيـهاـ هـىـ وـأـمـثالـهاـ بـالـلـطـفـ ، فـإـنـهـ إـنـ يـبـلـغـهـاـ شـىـءـ عـنـكـ مـنـ وـرـاءـ  
وـرـاءـ كـشـفـتـ وـجـهـهاـ عـلـيـنـاـ !

- لا سمح الله يا بني، أما أتعجب ما صادفت اليوم فهو أن المست  
توحيدة حرم كمال أفندي خليل - وهي جسيمة كالحمل أو كأمك  
أيام شبابها - صديقة قديمة .. عرفتها في دكان بهلة العطار بالتربيعة.

- وأنتما تسعين معاً إلى وصفات السمن!

- هو ذلك .. وتبادلنا التحية هناك مرات، ولكننا لم نتقدم وراء ذلك  
في سبيل التعارف!

- ها هي ذى الأيام تعارف بينكم!

ثم ذكر أن هذه السيدة أم الغلال محمد! .. ولم يكن ذكره في نهاره  
إلا حين جاء ذكر أمه، فعجب كيف نسيه طوال ذلك الزمن، وقد كان  
قبل عشرين ساعة منه القلب والخيال! .. ولكن أمه لم تدعه لأفكاره  
فضحكت ضحكة عالية وقالت:

- وأخذنا في كذب النساء طويلاً وكذب النساء لذيد، فهذه أبوها فقيه  
كبير يتبارك الناس بتقبيل يديه، وتلك كريمة تاجر واسع الشروة،  
والثالثة قريبة مدير حسابات الداخلية، والرابعة مرضت مرضًا  
أنفقت على علاجه عشرات الجنيهات!

وضحكا معاً، ثم سألها الكهل وما زال ضاحكا:

- وكيف كان كذبك؟

فقالت وهي تحدجه بنظره ضاحكة:

- يسيراً لا شرط عليه يوم الحساب، فأبوك أحيل على المعاش منذ  
زمن يسير، وكان مفتضاً بالأوقاف، وأما أبي - جدك - فكان تاجرًا  
وأنت يا نور عيني رئيس قلم بوزارة الأشغال، ولذلك من العمر اثنان  
وثلاثون عاماً لا غير فتذكري!

- يا خبر!

- لا فائدة من الاعتراض، وإياك وتكذيب الكذب! .. وأنا أكبرك  
بثلاثة عشر عاماً، فأنا في الخامسة والأربعين.

- هل ولدتني وأنت طفلة؟  
- الأئن تلد في الثانية عشرة من عمرها!  
- هذه أخته وليس بأم!  
- صدقـت فالولد الأكـبر أخـو والديـه، أما أخـوك فـوكيل بنـك مصر  
بـأسـيـوط!

فـهزـ الرجل رـأـسه عـجـباـ وـقـالـ :  
- كـيفـ تـؤـاتـيـكـنـ الجـرـأـةـ عـلـىـ تـزـيـيفـ حـقـاقـقـ لـنـ تـخـفـيـ طـوـيـلاـ عـنـ أـعـيـنـ  
الـجـارـ، وـلـابـدـ أـنـ تـنـكـشـفـ حـقـيقـتـهاـ يـوـمـاـ مـاـ؟  
فـقـالـتـ بـبـسـاطـةـ :

- غـداـ تـؤـلـفـ العـشـرـةـ بـيـنـ قـلـوبـنـاـ وـنـعـرـفـ الـحـقـيقـةـ روـيدـاـ روـيدـاـ بلاـ سـخـرـيـةـ  
وـلـاـ تـعـبـيرـ، وـلـوـ أـنـيـ قـلـتـ الـحـقـيقـةـ بـغـيـرـ زـيـادـةـ، لـماـ صـدـقـتـنـيـ كـمـاـ لـاـ  
يـصـدـقـنـيـ الـآنـ، وـلـاـ تـقـصـنـ مـنـ رـأـسـ الـمـالـ بـدـلـاـ مـنـ أـنـ يـتـقـصـنـ مـنـ  
الـفـائـدـةـ!

- يـاـ لـكـنـ مـنـ كـاذـبـاتـ لـاـ يـشـقـ لـهـنـ غـبـارـ!  
- وـمـاـذـاـ عـلـيـكـ مـنـ هـذـاـ؟ـ!ـ طـوـبـيـ لـكـذـبـ غـايـتـهـ الرـفـعـةـ وـالـفـخـرـ. إـنـ  
كـذـبـ النـسـاءـ بـلـسـمـ جـراـحـ دـامـيـةـ، مـتـعـكـ اللـهـ بـعـرـوـسـ تـعـاطـيـكـ أـجـمـلـ  
الـكـذـبـ وـأـشـهـاـ!  
فـضـحـكـ الـكـهـلـ عـلـىـ اـمـتـعـاضـهـ لـذـكـرـ الـعـرـوـسـ وـكـرـرـ قـولـهـ السـابـقـ  
قـائـلاـ :

- يـاـ لـكـنـ مـنـ كـاذـبـاتـ لـاـ يـشـقـ لـهـنـ غـبـارـ!  
وـلـحـظـتـهـ غـامـزـةـ بـعـيـنـيـهاـ وـسـأـلـتـهـ :  
- وـأـنـتـ يـاـ بـنـىـ أـلـاـ تـكـذـبـونـ؟ـ  
وـصـمـتـ قـلـيلاـ، لـاـ لـأـنـ الـجـوـابـ غـائـبـ، وـلـكـ لـأـنـهـ تـفـكـرـ قـلـيلاـ فـيـماـ  
تـنـوـءـ بـهـ حـيـاتـهـ مـنـ أـلـوـانـ الـكـذـبـ، ثـمـ قـالـ :

-نكتب ، ولكن فى أمور أجل !

-عسى أن يكون تافها عندنا ما هو جليل عندكم ، ولكن هل تعد  
العمر والفخر بالجاه والسؤدد أمورا تافهة؟

-كذب الرجال جليل كالرجولة نفسها! .. فأين أنت من كذب التجار  
والسياسة ورجال الدين؟! .. كذب الرجال محور هذه الحياة  
الخليلة التى تشاهدin آثارها فى معترك الحكومة والبرلمان  
والمصانع والمعاهد ، بل هو محور هذه الحرب الهائلة التى رمت بنا  
إلى هذا الحى الغريب .

وعلم أنها لم تفهم من قوله إلا أقله ، فسر لذلك سرورا مضاعفا ، ثم  
ذكر أمرا فسألهما :

-ألم تترك زوجة من حريم المعلم نونو؟

-ملعون أبو الدنيا؟! .. لقد حدثنى بسيرته طويلا ، ولكن الرجل  
يحرم على أزواجه الخروج أو النظر من النوافذ ، وربما انقضى العام  
فى إثر العام وهن قابعات فى دارهن راضيات قانعات!

-حقيقة من يتغنى بلعن الدنيا ألا يأمن إليها!

-والله يا بني المرأة مظلومة كالدنيا ، ولكن ما علينا من هذا فهل  
سمعت بشخص يدعى سليمان عنة؟  
-المفتش؟

-تدعوه توحيدة هانم بالقرد!

ولعل قولها هذا أول صدق تقع فيه!

-وقالت عنه ضاحكة إنه يفكر في الزواج!

-وأية فتاة ترضى بهذا القرد العجوز بعلا؟

-كثيرات لا حصر لهن ، فالمال نصف الجمال على الأقل ، فالفتاة هي  
التي تصيده وتتجدد فى طلبه حتى لا يفوتها الزواج منه قبل الخامسة  
والخمسين .

فأسألها ضاحكاً:

- وهل ينتهي الرجل عند هذه السن؟

- لا قدر الله، ولكنها لا تستحق في معاشه إذا تزوجت منه بعدها.

- فهى ترحب في الزواج منه وتراهن على موته! .. فمن عسى أن تكون هذه العروس الحكيمه؟

- قالت السيدة توحيدة هانم إنها كريمة يوسف بهله العطار، وإنها الجمال عينه، فقد جمعت الحسن من طرفه: الطبيعي والصناعي! فتمثل أحمد عاكف صورة القرد العجوز باشمئاز، وعجب كيف يحظى بما لا يطمع هو فيه من إقبال الحسان! .. ألم تبذر يده امرأة. ليست بحال الجمال عينه. قائلة: إن عمره كبير؟! .. وأراد أن يتخيّل صورة كريمة العطار، فذكر فجأة وهو لا يدرى السمراء الحسناه ذات العينين النجلاويين التي التقى بها في الردهة الخارجية! .. فانقبض صدره وسأل أمه:

- هل يقيم العطار في عمارتنا؟

فقالت:

- كلا بل يسكن في بيت القاضي!

فتنهد ارتياحا! ثم تساءل ترى لأى أسرة تتتمى الفتاة؟ وما لبث أن كتم صيحة كادت تفلت من شفتيه! .. فقد ذكر في تلك اللحظة عيني الغلام محمد، وذكر أين رآهما أول مرة في وجه السمراء الحسناه في الردهة الخارجية! .. وهذا ما حاول تذكرة فعز عليه ساعتنذ وأضناه! .. فالغلام شقيق الفتاة بغير شك، وخفق فؤاده، ولكنه شعر بارتياح عميق وسرور لذيد ونجابت وساوسه وحيرته وخجله! .. وكان سروره باكتشافه من القوة بحيث لم يعد يلقى بالا إلى حديث أمه! .. فما زالت تتكلّم وما زال يتباهي في أحلامه.

وعندما أتى المساء ماضى إلى الزهرة، ولم يمض دون تردد، فإن ارتياح المقاھى حدث جديد عليه لم يتعدوه ولم يألفه، وكان حرصه على عزلته الثقافية يعادل تباھيه بها، فلو لا ما يدعوه إلى هناك من مصاولة أحمد راشد والظهور على الآخرين ما وجد خروجه على عزلته أمراً ميسوراً. ولم يلتقط في الزهرة بأحمد راشد؛ وسأل عنه فقيل له إنه كثيراً ما ينزعه العمل عن الحضور إلى القهوة. على أن الجلسة لم تصرّ رغم ذلك. فاترة، وأحياناً المعلم نونو والمعلم زففة «القهوجي» بظرفهما الجميل. وتكلم أحمد عاكف كثيراً وضحك طويلاً، وقد أخذ يستهويه الاجتماع بالناس أو بالظرفاء من الناس خاصة. ويجد في الأنس بهم ما يجد التعب المنهوك أسلم جنبه للرقاد. وعاد إلى البيت في العاشرة، فعكف على المطالعة زهاء الساعتين وأطيف الحياة الجديدة تترافق أمام عينيه بين السطور. وما عهد قط الاستغراق في القراءة. ثم نهض إلى فراشه وراح في النوم. ولم يدر أطّال به النوم أم قصر، ولكنه استيقظ على صوت منكر لم يتتبّه إلى حقيقته في الثانية الأولى من استيقاظه، ثم أدرك كنهه فخفق قلبه خفقة فزعة، وقفز إلى أرض الحجرة بسرعة جنونية، وتحسّن شبشب بقدميه فوضّعهما فيه ثم اندفع إلى الصالة الخارجية فالتحق بشبحي والديه تقدّمهما الخادم الصغيرة، وسأله أبوه بصوت متهدج:

هل تعرف الطريق إلى المخبأ؟

فأجاب الخادم عنه بسرعة:

ـ أنا أعرفه يا سيدى .

وسبقت الأسرة إلى الباب فى ظلمة حالكة ، وخرجوا جميعا إلى الردهة الخارجية متحسسين الحائط إلى السلم الخلزونى ، وهناك بلغت آذانهم جلبة اليقظة التى شملت الدور جميعا ، ومنزق السكون صفقات الأبواب وهى تغلق ، ووقع أقدام المهرولين على السلم ، وتصاعد أصواتهم بالكلام والضحكات العصبية . وهبطت القافلة مهتدية إلى الداربزين تخوض بحار الظلمات ، ويسوقها الخوف والفزع ، وفي الطريق أرشدتهم أشباح السكان وأصواتهم إلى الطريق فلم يحتاجوا إلى الاستدلال بخادمهم ، وكانت الطرق المسقوفة تبدو كداخل البيوت مظلمة ، أما الآخر فيخفف شعاع النجوم الشاحب من شدة ظلمتها . وعاد بهم الخوف إلى ذكريات تلك الليلة الجهنمية فانقضت صدورهم وجعلوا يقلبون وجوههم فى السماء كلما لاحت لهم . ثم بلغوا مدخل المخبأ فى تيار من القوم غير منقطع ، وهبطوا مع سلمه فى باطن الأرض حتى وجدوا أنفسهم فى مكان متسع ببرأ عينهم - المخدرة بالظلام - بمصابيحه الكهربائية القوية ، وكان سقفه وجدرانه ترك فى نفس المشاهد أثرا عميقا بصلابتها وشدة مراسها ، وقد التصقت بجوانبه مقاعد خشبية مستطيلة ، وبعشرت فى وسطه كثبان من الرمل . ومضت الأسرة إلى أحد الأركان واتخذت مجالسها وتفرق القاعدون إلى الأركان والمقاعد ، ووقف خلق كثيرون وسط المخبأ من ضاقت عنهم المقاعد . وشاع الخوف أول الأمر فلم ينفع الاجتماع ولا النور ولا صلابة الجدران فى تلطيف حدته ، ومضت فترة انتظار مؤلمة نطقت فيها الأعين بعذاب الصدور ، ونظر أبوه فى ساعته ثم غمم قائلًا :

- الساعة الثانية صباحا ! .. نفس ميعاد الليلة الفظيعة !

وكان أحمد يعاني ما يعانيه أبوه وأكثر ، ولكنه قال بلهجته هادئة ما استطاع :

- كان الضرب خطأً فلن يتكرر إن شاء الله!

ومضت الدقائق متابعة والسكون مطبق ، وطالت فترة السكون فأخذ الأمن يتسلل إلى الجوانب الخافية ، وشاع الهمس والكلام ، وعلا ضحك كثير ، ثم طمأن القوم بعضهم بعضا ، ونظر أحمد في الوجوه القريبة منه فوجدها غريبة وقد استيقوا إلى الحديث في جلبة ، قال رجل منهم :

- لن يبلغ الأذى مهبط رأس الحسين .

فقال له الآخر :

- قل إن شاء الله !

- كل شيء بمشيئة الله .

- وهتلر ينطوي على احترام عميق للبقاء الإسلامية !

- بل يقال إنه يبطن الإيمان بالإسلام !

- ليس هذا عليه بعيد ، ألم يقل الشيخ لبيب التقى النقى إنه رأى فيما يرى النائم على بن أبي طالب رضى الله عنه يقلده سيف الإسلام؟!

- فكيف ضربت القاهرة في متصرف هذا الشهر؟

- ضربت السكاكيني وهو حتى غالبية سكانه من اليهود!

- ترى ماذا يتضرر الأم الإسلامية على يديه؟

- سوف يعيد - بعد فروغه من الحرب - إلى الإسلام مجده الأول ، وينشئ من الأم الإسلامية اتحادا كبيرا ، ثم يوثق بينه وبين ألمانيا بعهود الصداقة والتحالف !

- لذلك يؤيده الله في حروبها !

- وما كان لينصره لو لا جميل طوبته ، وإنما لكل أمرىء مانوى !  
استمع الكهل إلى المحتاورين بلذة وإنكار ، وكانت غالبيتهم من أهل البلد ولكن لم يكن يتصور أن تبلغ بهم سذاجة التفكير هذا الحد من

الأوهام! .. أو أن تؤثر فيهم الدعاية. إن كان هناك دعاية. هذا التأثير المضحك، ولكنه لم ينكر على حوارهم لذته وفكاهته غير المقصودة، وما كان ليحرم نفسه من متعته لو لا أن وقع بصره اتفاقاً على غريه الأستاذ أحمد راشد متمشياً على كثب منه، فنهض إليه فوراً فتصافح ثم قال له عاكف:

-لم نرك اليوم.

فقال الشاب ذو المنظار الأسود:

-شغلت بدراسة قضية!

واستثار القول غيرته فلم ينس بكلمة وراح المحامي يقول ملقياً نظرة شاملة على ما حوله:

-رأيت جميع الإخوان هنا معنا إلا المعلم نونو طبعاً

فابتسم عاكف قائلاً:

-أعجب به من رجل غريب الأطوار!

-يتلخص في الكلمات الآتية «ملعون أبو الدنيا».

-هذا شعاره أو قل إنه نشيله.

-ما كان أجدره أن يعيي الموت لو لا قضاء الهرم.

-هو الإيان!

-إنه يشعر بالله شعوراً عميقاً، ويحس به في كل مكان يحله ويتوكل عليه بكل قلبه، ويطمئن كل الاطمئنان إلى أنه لن يتخلّى عنه، وتراءه يلم بالمعصية دون أدنى شك في غفرانه ورحمته.

فتنهد عاكف وقال:

-هذا رجل سعيد كما علمت!

فهز الشاب رأسه بما يشبه الاحتقار وقال:

-سعادة عجماءات، سعادة الجهل والإيان الأعمى، السعادة التي

يعيش الطغاة بفضل تملکها رقاب البلهاء، ومن المضحک أن تجد هذه السعادة الحمقاء من يأسى عليها بين الحکماء؟!.. فتش عن السعادة الحقة على ضوء العلم والعرفان، فإذا وجدت مكانها قلقا وسخطا وشقاء فتلك آيات الحياة الإنسانية الفاضلة الحقيقة بتطهير المجتمع من نعائصه والنفس من أوهامها، الحقيقة ببلوغ السعادة الحقة، إن سعادة نونو لا تفضل شقاءنا - نحن دعاة العلم والإصلاح - إلا كما يمكن أن يفضل الموت براحتة المزعومة نعمة الحياة بمتاعها وكفاحها!

ولم يجد عاكف من نفسه لتوتر أعصابه بجو المخا قوة يتثبت بها للنضال والمعارضة فقال مبتسما:

- ألا ترى أنه ينعم الآن بفضل سعادته العميماء برقاد لذيد بينما نشقى  
نحن جميرا برطوبة الليل؟

فضحک الشاب وكان أملك لجنانه من الآخر وقال:  
- لا شك أنه ينعم الآن برقاد لذيد لا شريك له فيه إلا معشوقة  
الأزواج!

فبدأ على وجه عاكف ما يشهد له بأنه لم يفهم شيئا، فابتسم المحامي واستدرك قائلا:

- ألم تسمع عنها بعد؟!.. إنها امرأة هائلة، وظيفتها الرسمية «زوج عباس شفة»، أما تذكره؟.. أما بيتها فيستقبل كل مساء جمهرة أرباب البيوت بهذا الحى، فسمها المعلم زفتة القهوجي «معشوقة الأزواج»!.. فلاح فى وجه عاكف الاهتمام الذى يشيره هذا الحديث، وتساءل:

- أتعنى..!؟..  
- نعم.

- وعباس شفة؟!

- زوج رسمي، زوج وجد في الزوجية مهنة ومرتزا!

- أذلك تحفون به على حقارته وقبحه؟

- إنه عزيز ذو مقام عظيم!!

وتمثل عاكف وجه الرجل الذي وشعره المنفوش باحتقار شديد،  
وتحرك في تلك اللحظة الشاب فتحرك معه، يسيران في بطة شديد  
مستعرضين الجلوس والواقفين، حتى رأيا سيد عارف جالسا إلى جوار  
حسناً نصف واضعة على حجرها طفلة، فغمغم الشاب:

- صاحبنا سيد عارف وحرمه!

فسألَه عاكف باهتمام واستحياء:

- وحرمه؟! .. وكيف تزوج؟!

- كما يتزوج الناس، وهو رجل عادى لولا حالة طارئة غير ميسوس  
منها، ورجاؤه كبير في الأراضي الألمانية، ولن ..

ولم يتم أحمد راشد كلامه فقد قطعه دوى طلقة شديدة، تابعتها  
طلقات متقاربة، وارتجمف عاكف وخال أن جسمه كله ارتجمف فخاف أن  
يكون غريمه قد اطلع على رجفته. وساد سكون عميق وحارث في  
العيون نظرة قلق وخوف، وقال أناس: «هذه طلقات مدافعة مضادة».  
يطمئنون أنفسهم ويطمئنون الآخرين، ولكن الكلام - أيًا كانت مقاصده -  
أحدث في النفوس القلقة المنشطة جزعاً وحنقاً، وجاء رجل من الخارج  
مهرولاً وقال وهو يلهث: «السماء ملائى بالأنوار الكاشفة؟»، فاشتد  
الخوف بالأفتدة، ثم سمعت طلقات أخرى بعيدة استمرت فترة وجيزة  
قبل أن يطبق السكون مرة أخرى، وطالت فترة السكون وأمتدت فعادت  
الطمأنينة إلى النفوس، وتعالى الهمس ثم ضج المكان بالكلام:

- لن تعود مأساة الضرب الأعمى.

-لقد اعتذر راديو برلين عن غارة متتصف سبتمبر!  
-كانت غارة إيطالية فالألمان لا يخطئون!  
فابتسم أحمد راشد. استطاع أن يتسم ثانية. وقال لصاحبه:  
-أرأيت إلى هؤلاء المتعصبين للألمان؟!.. وأنت؟!.. هل أنت  
كهؤلاء؟  
وكان عاكف يتلذذ. كعادته. بمشاركة المغلوبين عواطفهم، ولما كانت  
الغلة للألمان في ذاك الوقت فقد قال بغير تردد:  
-كلا.. إنني مع الحلفاء قلبا وقلبا، وأنت؟!  
فسوى المنظار الأسود على عينيه وقال:

-لى أمل واحد: أن يتتصر الروس ويحرروا الدنيا من الأغلال  
والآوهام!

وابتعد قليلا عن جماعة المتحدثين فرأيا في نهاية الجناح الآخر من  
المخبأ على يمين الداخل. صاحبهما كمال خليل وأسرته!.. ورمى  
عاكف نحوه بناظريه باهتمام شديد فرأى سيدة مفرطة في السمن،  
والغلام محمد في بيجامة، والفتاة السمراء ذات العينين التجلاويين  
الساذجتين، رأى جهرة ما جعله الشوق يلتمسه في غير موضعه،  
وجاءت الحقيقة مطابقة لما سر باكتشافه منذ ساعات معدودات، ولم  
يسعه إدامة النظر فرد الطرف متمنيا ممتلئا، ثم سمع أحمد راشد يقول  
بصوت خافت:

ـ كمال خليل وأسرته!

ـ فسأل:

ـ بهذه الفتاة كريمته؟

ـ نعم.. له محمد ونوال وفتاة كبرى متزوجة!  
ـ واختلس منها نظرات ليملا عينيه من النظرة الساذجة تقطر خفة.

وكانت ملتفة في معطف شتوى وقد أرسلت شعرها الأسود في ضفيرة غليظة، ومضت تثناء بمرسلة نظر ناعسة، ورأهـا كمال خليل فأقبل نحوـها مبتسما ووقفـوا معاً يتحدثـون، وأدركـ عاكـف أن إقبالـ الرجل عليهم لابـد ملـفت أعينـ أسرـته إلـيـهم وأنـه لا يـبعـد أن تـفحـصـه العـينـان التـجلـاـوـانـ إنـ لمـ تكونـا تـفحـصـتـاهـ بالـفـعلـ فـى جـلـابـاهـ الفـضـفـاضـ، وـطـاقـيـتـهـ الـبـيـضـاءـ، فـتـورـدـ وـجـهـهـ حـيـاءـ وـقـلـقاـ وـتـسـأـلـ تـرـىـ هـلـ تـذـكـرـهـ؟ـ..ـ وـلـمـ يـطـلـ المـطـالـ بـوـقـوفـهـ مـعـاـ فـانـطـلـقتـ صـفـارـةـ الـأـمـانـ وـدـبـتـ فـيـ المـخـاـ حـرـكـةـ عـامـةـ شـامـلـةـ، فـحـيـاـ عـاكـفـ صـاحـبـيهـ وـمضـىـ إـلـىـ وـالـدـيـهـ، وـانـهـرـهـ أـبـوهـ قـائـلاـ بـحـدـةـ:

- أتخلّى عنا ساعة الضرب وتهرب نحونا عند الأمان؟  
فقالت أمّه ضاحكةً :  
- الله معنا في جحيم الأوقات!

واندسوافى التيار المتوجه نحو الباب يسيرون فى بطء شديد حتى  
ارتقوا السلم إلى الطريق، وعادوا إلى عمارتهم وقد أضاء الطرقات ما  
انبث إلية من نور النوافذ، وصعدوا إلى شقتهم فى جمع من السكان  
عرف أحمد صوت كمال خليل بين أصواتهم. وسارع الرجل إلى فراشه  
يراود النوم كرة أخرى، ولكن فرقت بينهما طويلا صورة ذات العينين  
النجلاويين والنظرة الخلوة.

واقترب رمضان فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيام قلائل . ولكن رمضان لا يأتي على غرة أبداً ، وتسبيقه عادة أهبة تلقي

بمكانته المقدسة ، ولم تغفل أم أحمد عن ذلك . وكانت في الواقع المسئولة الأولى عن جلال الشهر وجماله . فجعلت منه يوماً حديث الأسرة قائلة : إنه شهر له حقوقه كماله واجباته . وكان قولها موجهاً لأحمد فأدرك مغزاها وقال مدافعاً عن نفسه :

- رمضان له حقوقه ما في ذلك من شك ولكن الحرب ضرورة قاسية  
جارت على جميع الحقوق !

فقالت الأم بلهجة دلت على عدم الارتياب :  
- لا قطع الله لنا من عادة !

فاستيقظ بخله وقال بشيء من الحدة :

- لم يمض رمضان كما مضى غيره من الشهور ، وسنعرض ما فاتنا منه  
فيما يقبل من أيام السلم !  
- والنقل والكتافة والقطائف !

ووقدت هذه الأشياء من نفسه موقعها ساحراً . على استيائه . لا  
لاشتئانها فحسب ، ولكن لما دعته من ذكريات الشهر المحبوب وعهود  
الصبا خاصة ، ييد أن الذكريات الحنونة لم تغرن عن حقيقة الغلاء  
الواقعة ولم تلطف من حدة حرصه ، فقال بلهجة حازمة رغم تحرك  
الحنان في قلبه :

- لندع الكماليات في ظروفنا الحاضرة القاسية ولندع الله الكريم أن  
يعيننا على ضرورات الحياة .

وأصغر الوالد باهتمام إلى أقوال ابنه وإن تظاهر بعدم الاكتتراث ،  
وما إلى تأييد الأم فيما تقول ولكن شجاعته لم تواه ، فلما صاغ ابن  
رأيه في تلك اللهجة الحازمة ، قال الوالد بصوت هادئ :

- ولا تغلل يدك إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط .  
وأدرك أحمد أن أبيه من حزب أمه ، ولم يسعه أن يواجهه بمثل

صراحته في مخاطبة أمه، لتعوده مهابته من ذنوبه أظافره، وأشفق. كما أشفق دائمًا من أن يعرض عن يده إذا امتدت له بطلب بعد أن صار أكبر اعتماده عليه، فسكت مرتبكًا متثيرًا حتى قال عاكس أفندي أحمد الأل:

حسبنا قليل من الصنوبر والزبيب لضرورتهما في الحشو، ونصف لفة قمر الدين لتغيير الريق، ولتفريح الكنافة بمرة واحدة، ومن القطائف. وهذه لا تقل في السمن - برتين، وليس هذا عليك يكثير.

فهاله الأمر، وأيقن أنه سينفق في هذا الشهر ما اعتاد توفيره كل شهر من النقود القلائل، ربما أجبر على سحب مبلغ آخر من صندوق التوفير، الأمر الذي ينفص عليه صفوه، ثم ذكر شيئاً آخر لا يقل خطورة عن الكنافة والنقل فقال:  
-واللحوم؟!

**فقالت أمّه بما لها عليه من دالة:**

- سمحت الحكومة ببيع اللحوم طوال الشهر الكريم، وما ذلك إلا لأن قطعة اللحم حقيقة بأن تسند قلب الصائم المنهالك!  
فقال أحمد معترباً:

- ولكن ميزانيتنا أصغر من أن تقوم بابتياع رطل لحم كل يوم مع الحاجيات الأخرى !

قال الوالد مستعينا بقليل من الدهاء:

- صدقـت والأفضل أن غتنـع عن اللـحوم مـرة كل ثلاثة أيام !  
وانشـغلـت الأم في الأيام الـياقـية بـتهـيـة المـطـبخ ، وـتبـيـض الأـوـانـى  
وتـخـزـين ما تـيسـر من النـقل والـسـكـر والـبـصـل والـتـوابـل . وـكان لمـقدم  
رمـضـان في نـفـسـها فـرـحة وـسـرـور ، ولو أـنـها لم تـؤـد فـريـضـة الصـيـام إـلا مـنـذ

سنوات قلائل، إذ إنه شهر المطبخ كما أنه شهر الصيام. أو لأنه شهر الصيام. وأجمل من هذا أنه شهر الليالي الساهرة والزيارات الممتعة، حيث تدار الأحاديث على قزقة اللب والجوز والفستق. ومن حسن الحظ أن رمضان وافق ذلك العام شهر أكتوبر، وهو شهر معتدل، وغالباً ما يصفو جوه ويطيب فيلذ فيه السهر حتى يتبيّن الخطأ البعض من الخطأ الأسود من الفجر.

وجاء مساء الرؤية، وانتظر الناس بعد الغروب يتساءلون، وعند العشي أضاءت متذنة الحسين إيذاناً بشهود الرؤية. وقد اجتنزوا بالإضاءة عن إطلاق المدافع لظروف الطوارئ. وزينت المتذنة بعقود المصابيح مرسلة على العالمين ضياءً للألاء، فطاف بالحى وما حوله جماعات مهللة هاتفة «صيام صيام كما أمر قاضى الإسلام». فقابلتها الغلمان بالهتاف والبنات بالزغاريد، وشاع السرور فى الحى كأنما حمله الهواء السارى، فلم يلک أحد عاكف أن يقول:

-أين من رمضان شارع قمر هذا رمضان البهيج؟!  
فابتسم الوالد وقال:

-وماذا رأيت مما رأيت يا غلام؟!.. أشهدت رمضان فى حيناً الجديداً هنا قبل اندلاع الحرب؟.. إنه النور والسرور، إنه الليل المنار اليقظان، إنه الليل العامر بالسمار والمنشدin والله البرىء، وفي أيام الفتوة والصحة كنت أسرى قبل السحور فى جمع من الإخوان من السكاكيين إلى حيناً هذا نتسحر كوازع ولحم الرأس وندخن البورى فى مقهى الحسين ونستمع إلى أذان الشيخ على محمود ثم نعود مع الصباح الباكر.

فسألته أحمد:

-متى كان ذلك؟

فقال الرجل بلا جهد:  
ـ وأنت في العاشرة!

آه.. تلك الأيام العذاب، أيام السرور والمرح والتدليل، لقد اتفق له ولوالده عهد واحد يكياه معاً. ومضى أحمد ذاك المساء. كعادته الجديدةـ إلى مقهى الزهرة. وقد استسلم لهذه العادة الجديدة التي استأثرت بنصف الوقت المخصص للمطالعة، ووجد في العاشرة لذة ليست دون لذة القراءة والعزلة.

واجتمع بالصحاب الذين أخذ يألفهم ويألفونه، ودار الحديث عن سهرات رمضان وكيف يقضونها. فقال عباس شفةـ زوج معشوقة الأزواجـ بصوته المبحوح:

ـ لا تتعبو أنفسكم في التفكير فلنا في سهرات رمضان الماضية أسوة: نحن نجحـ إلى قهوتنا بعد الفطار ونسمر بها حتى منتصف الليل ثم ننتقل إلى «هناك» لنصل سهرتنا بالسحورـ.

وتتبهـ أحمد إلى «هناك» هذه وتساءل ترى هل يستبيـون المنكر في شهر التوبة؟! .. علىـ أن سبيـلهـ كان واضحـاً فـسيـلـيـثـ بينـهمـ ماـ بـشـواـ فيـ المـقهـىـ ثـمـ يـعـودـ إـلـىـ بـيـتـهـ فـيـطـالـعـ حـتـىـ السـحـورـ وـهـكـذاـ حـتـىـ يـخـتمـ الشـهـرـ.

## ١٠

وفيـ الـيـومـ الـأـوـلـ مـنـ الصـيـامـ كـابـدـ أـحـمدـ عـاـكـفـ تـعبـاـ مـرـهـقاـ،ـ فـشقـ عـلـيـهـ أـلـاـ يـشـرـبـ قـهـوةـ وـيـدـخـنـ سـيـجـارـتـهـ عـلـىـ الرـيقـ،ـ وـمـضـىـ إـلـىـ الـوزـارـةـ مـتـوـجـعـ الرـأـسـ مـتـشـائـماـ،ـ وـغـالـبـ تـعبـهـ مـغـالـيـةـ يـائـسـ حـتـىـ دـمـعـتـ عـيـنـاهـ مـنـ

الثاؤب واسترخت جفونه . وذكر أن أحمد راشد وأمثاله لا يعانون تعبا ولا حرمانا فسره أن يحتقره ويتعالى عليه . وعاد إلى البيت ظهرا وقد نهكه التعب ، فاستلقى على فراشه وراح في نوم عميق صحا منه قبل الفطار بساعة واحدة . وذهب إلى الحمام فرطب وجهه وأطرافه ، وفي طريق عودته رأى والده في حجرته متربعا على سجادة الصلاة يقرأ في الكتاب ، فمر به ساكنا ، وعطف رأسه إلى المطبخ فرأى أمه مشمرة عن ساعديها ، ودعاه المطبخ إلى الوقوف بعض الوقت عند عتبته ، فأجال بصره فيه متشمما فطاف بطبق كبير حفل بماء السلطة من بقدونس وجرجير وجزر وبصل وطماطم ، خضرة يانعة وحمرة فاقعة ، فانشرح صدره وتخلب ريقه ، وانتقل إلى سلطانية الفول فلم يستطع صبرا وزايل مكانه . وفي الصالة مر بالسفرة وقد هيئت فوضع على ركن منها العيش وفرقت أمام كراسيها أكواب الماء وتوسطها طبق ملآن بالفجل ، فهرع إلى حجرته وأغلق الباب . وكان أبي الأهرام بغير قراءة ليتسلى بمعطالعته في الساعة الأخيرة المعروفة بشدتها وثقلها فأكب عليه حتى فرغ منه ، ونظر في الساعة فعلم أنه لا يزال عليه أن يتضرر نصف ساعة أخرى ! .. وتجهم وجهه ، ثم لم ير بدا من فتح النافذة المشرفة على العمارات ليقطع الوقت بالنظر ، ورأى المعلم نونو يغلق دكانه وأطفاله يتظروننه يكادون يسدون الطريق سدا . ثم مضى يحفون به ويتعلق الصغار بساقيه ويصيحون جميعا في جلبة تحسده عليها محطة الإذاعة . وقد أوشك الطريق أن يخلو إلا من باعة الزبادي ، وشاهد شعاع الشمس الأخير يتقلص عن أسوار العمارات التي تواجهه من وراء مربع الحوانين العظيم ، والنواخذة المفتوحة تعلن عن السفر الحافلة ، وعلى الشرفات انتصب القلل وانتشرت أطباق الخشاف المكللة بخلافات بيض ، وأنقى الهواء بروائح التقلية ونشيش المقلبات فتاه في دنيا الطعام الساحرة .. ثم تحول عن هذه النافذة إلى النافذة الأخرى المطلة من جنب على خان

الخليلى القديم ففتحها وارتفق حافتها، ورمى بطرفه إلى الحى القديم  
فوجده صامتا ساكنا تلوح قبابه المعزية كأنها تسجد تحية للشمس المولية،  
وكان يواجه نافذته عن قريب جناح العمارة الأيسر بنوافذ مغلقة، ولكنه  
سمع حركة خفيفة هفت من عل، فرفع بصره فرأى شرفة الجiran - التي  
تواجه نافذته ولكن فى الطابق الأعلى من العمارة - ورأى فى الشرفة فتاة  
مكبة على تطريز شال انسحب ذيله على حجرها وهى جالسة على  
كرسى ملتفة الساقين، وعرفها من أول نظرة - حتى قبل أن ترفع إليه  
عينيها - فاهتز صدره، فما كان يحسب أن شقة كمال خليل فى هذا  
الجناح الذى يواجهه، ولا أن فتاته دانية إلى هذا الحد، فشعر بارتياح  
وسرور . ورفعت الفتاة عينيها إليه ثم ردهما بسرعة إلى إبرتها فنظر فى  
العينين العسليتين النجلاويتين لثالث مرة، وفي تلك اللحظة الخاطفة من  
التقاء العيون اضطرب قلبها وغله الارتباك وتولاه الحباء فتوردو وجهه  
الشاحب واختلجم جفناه ولم يدر ماذا يصنع ولا كيف يتخلص من  
موقعه . ونكس رأسه الأصلع وهو يود لو يختفى من النافذة ريشما يأخذ  
أنفاسه ، ترى هل عادت إلى النظر إليه؟ .. هل ترنو الآن إلى  
صلعته؟ .. وشعر بأن موضع نظرها من رأسه يشتعل كما تشتعل الورقة  
تحت أشعة الشمس المتجمعة فى بؤرة . ومضى وقت طويل أو قصير  
حتى تنبه على طقطقة الكرسى فرفع رأسه فرآها قد نهضت لتذهب إلى  
الداخل ، وحال أنه لمح على وجهها بشير ابتسامة وهي تتحول لتدخل .  
وعاد إلى النافذة الأخرى متسائلاً ما معنى هذه الابتسامة؟ .. لماذا  
ابتسمت الصبية؟ .. هل تسخر من صلعته؟ .. أو تضحك من نظرته  
الوجلة الخجول؟ .. أم تعجب لما حسبته غزل كهل فى سن أبيها؟ .. إى  
والله فى سن أبيها؟ .. فلو تيسير له الزواج فى إيانه لأنجب فتاة فى مثل  
سنها ، ولما أمكن أن تبعث مثل تلك النظرة فى أطرافه ما بعثت من ارتباك  
واضطراب وحياء ، ولكن قضى أن يفقد جنانه لدى أي صبية ، وأن

تستثير جوعه وحياءه أبراً النظارات! .. وابتسم ابتسامة يأس وخجل فافترت شفتها عن أسنان صفر! .. ودوى المدفع، وتصايد الأطفال فعجب كيف انقضت نصف الساعة بغير تفكير في الجوع أو العطش، وهتف المؤذن بصوته الجميل «الله أكبر.. الله أكبر»، فأجاب أحمد بصوت مسموع «لا إله إلا الله». ثم تحول عن النافذة ذاهبا إلى الصالة. والتأم جمع ثلاثتهم حول السفرة، ثم غيروا ريقهم على عصير قمر الدين حتى رووا ظمأهم، وأنت الأم بطبق الفول المدمس فأقبلوا عليه بنهم شديد وتركوه أبيض من غير سوء، فقال الأب وهو يعتصر بقليل من الماء:

ـ أظن الأوفق أن تؤخر الفول حتى نصيب من أنواع الطعام الأخرى  
ـ وإلا امتلأنا به وحده.

فقالت الأم ضاحكة:

ـ هذا ما تقوله كل عام ولكنك لا تذكره إلا عقب الفراغ من الفول؟  
ـ ولكن لم يزل في البطون متسع فجىء باللوبيا والفلفل المحسو  
ـ واللحم الحمر وتعاونت الأيدي والأعين والأسنان في عزم وسكون.  
ـ ولم يكن الطعام الشيء الوحيد الذي يلذ أحمد، فهناك خواتر سارة  
ـ زحمت رأسه الصغير الأصلع، حدث من شهوة الطعام نفسها، من هذه  
ـ الخواتر: أن الفتاة جارته، وأن شقتها تشرف على شقته، فاللقاء  
ـ متضرر، والتقاء العينين مرقب، والتفاعل محتمل، والانفعال مؤكد.  
ـ ومن يدرى بعد ذلك ماذا يحدث؟ .. سيرمى بالقلب في بحر لجي يعلو  
ـ به أمل ويسلل به قنوط، ويذهب به رجاء ويجهى به يأس، وييخيفه أفق  
ـ مظلم ويطمسه شاطئ آمن، فيما يدرى أين المستقر ولا أيان المتهى،  
ـ وحسبه من السرور يقطة دبت في قلب موات، وليقظة القلوب فرحة  
ـ وإن أدى الإنسان ثمنها من دمه وراحة باله، وهل ينكر أن قلبه جمد من  
ـ البرد وبرم بالنوم وضاق بالراحة؟ .. فيها هي ذي يقطة تدب، وتبشر

الشرفه بدوامها، ما عقباها؟.. ما غايتها؟.. لا يالى فى سروره  
الراهن ما ينطوى عليه غده، فليشرق الأفق أو فليغرب، ولبيتسم الحظ  
أو فليتجهم، فبحسبه أن قلبه صحا، وأنه منذ أيام يتفضل فى  
اضطراب، ويضطرب فى سرور، ويسر فى حيرة، وتحير فى رجاء،  
ويرجو فى خوف، ويخاف فى لذة. هذه هى الحياة، والحياة أجمل من  
الموت، مهما كابد الحى من تعب ووجد الميت من راحة.

## ١١

وغادر البيت قبل العشاء إلى «الزهرة» فاجتمع بالصحاب، وراحوا  
يتسامرون ويحتسون الشاي ودار الحديث حول الصيام، وكيف أن كثيرين  
-من أهل القاهرة خاصة- لا يؤدون فريضته لأوهى الأسباب.

وشهر سيد عارف بالمعلم زفتة وعباس شفة فقال ضاحكا:  
قد يستطيعان أن يمتنعا عن الطعام والشراب، أما «الكيف» فأمر  
يهون دونه الدين!

قال عباس شفة متهمكما:

-ألا تفضل أن تصير «رجالاً» مثلنا، ولو قارت المعاصي؟!

فاصطعن سيد عارف لهجته قائلاً:

-دائى له دواء أما داؤك يا سيد الأزواج فلا دواء له؟!

فهز عباس شفة منكبيه وقال دون أن يتلعثم أو يتورد وجهه:

-لا تعيرنى ولا أغيرك!

بل نحتكم إلى المعلم نونو.. يا معلم نونو أيهما تفضل أن تكون:  
عباس شفة أم سيد عارف؟!

فضحك نونو ضحكته العظيمة وقال :  
- لا خيرت بين أن أكون أحدكمًا فقط !  
فقال سيد عارف بإيمان :

- سبحان من يحيى العظام وهي رميم ، وغدا ترد الأقراص كيد  
الخاسدين إلى نحرهم !  
فضحك عباس شفة ضحكة داعرة وقال :  
- وقتذاك نهنى أنفسنا !

ونهاهم سليمان عنة عن الإمام بمثل ذاك الهدر علانية في شهر  
رمضان ، ولم يكن صادقا في نهيه لهم ولا غاضبا حقا للشهر الكريم ،  
ولكن «قافية» الأقراص أمست مملولة منذ دهر طويل ، فيئس من أن يأتي  
قاتل بجديد . ثم راح كمال خليل يحدث عن ليالي رمضان منذ أقل من  
ربع قرن ، قبل أن تغمر موجة الاستهتار التقليدي الديني المؤثلة ، وكيف .  
كانت بيوت السراة تظل مفتوحة طوال الليل تستقبل القاصدين ،  
وتستقرىء مشاهير المقربين حتى مطلع الفجر ، وقال إن بيتهما القديم - بيت  
أبيه . كان ضمن تلك البيوت العامرة ، وتساءل أحمد عاكف : ترى هل  
يصدق الرجل فيما يقول أم يقتصر أثر زوجه اللحيمة ؟ ! .. وتسامروا  
ساعة طويلة حتى تعبت أستهتم فأمسكوا عن السمر وأخذوا في  
اللعب . ووجد أحمد عاكف نفسه منفردا بالمحامي الشاب ، فأدرك أن  
جاءت نوبة النضال والتحدي ، ولحظه بطرف لم يعلن عما يضطرم في  
باطنه من الموجدة والمقت . وقبل أن ينبع أحدهم بكلمة مر بالمقهى  
جماعة من الصبيان والبنات ملوحين بالصابع هاتفين بأناشيد رمضان  
سائلين «العادة» من النكل واللاليم ، فأتبعهم المحامي ناظريه حتى  
اختفوا ، وابتعدت أصواتهم الرفيعة ، ثم التفت إلى صاحبه قائلاً باللهجة  
مرة :

- نحن شعب من الشحاذين .

فأدأر أحمد عاكف رأسه إليه كالمبتسم، وقد بات يوجس خيفة من الاشتباك معه في الحديث، وإن تظاهر بالاستهانة، وتوثب للانقضاض والتحدى. واستطرد أحمد راشد قائلاً بنفس اللهجة:

- شعب من الشحاذين وحفلة من أصحاب الملائين. فليس يتابع للشعب غير العمل الوضيع أو امتهان الشحادة، والعمل الوضيع لا يعني عن الشحادة!

فهز أحمد عاكف رأسه ونظر لمحدثه نظرة لا معنى لها ولا ذ بالصمت والصمت في مثل حاله مأمون العاقب. فهو يعنيه عن خوض ماليس له به علم، ويجهى له جواً آمناً لاحتياط الفرص السانحة. أما صاحبه فاستدرك يقول:

- ليس يوجد شر من نظام يقضي على أنساب بالانحدار إلى مستوى الحيوان الأعجم.

ولست أدرى كيف تطيب الحياة ليقوم عقلاً وهم يعلمون أن غالبية قومهم جياع لا يدخل بطونهم ما يقيم أو دهم، جهلاء لا ترتفع عقولهم عن أدمغة الدواب، مرضى تستوطن الجراثيم أجسادهم الهزيلة. ألم يخطر لهم أن ينادوا ببدأ المساواة بين الفلاحين والحيوانات مثلاً؟ .. فإن للحيوان على سادة الريف حقاً في الغذاء والمأوى والصحة لا مراء فيه، ولم يقر بمثله للفلاح!

ولم يعد يستطيع كبح شهوة المعارضة، وكبر عليه أن يستمر الشاب في محاضرته وأن يقنع هو بالإنصات كالتلاميذ فقال:

- إذا كان للفلاح حق فلماذا لا يطالب به؟  
قال المحامي بحدة:

- الفلاح مضغوط تحت المستوى الأدنى للإنسانية، فلا يمكن أن يطالب بشيء، ولكن خلائق بكل إنسان أهل لشرف الإنسانية أن يمد

يده ليرفع عن كاهله المتهالك هذا الضغط ، وقد يها حارب الرق  
الأحرار لا العبيد!

وتنازعـتـ الكـهـلـ عـواـطـفـ جـاءـتـ مـتـنـاقـضـةـ .ـ فـجـانـبـ منـ نـفـسـهـ اـرـتـاحـ لـماـ  
يـقـولـ الشـابـ ،ـ فـلـوـ اـعـتـدـلـ مـيـزـانـ الـعـدـالـةـ فـىـ هـذـاـ الـوـطـنـ ماـ عـاـقـهـ عـنـ إـتـامـ  
تـعـلـيمـهـ عـائـقـ ،ـ وـلـبـلـغـ مـاـ يـشـتـهـىـ مـنـ الشـرـفـ فـىـ الـحـيـاـةـ .ـ وـاحـتـقـرـ جـانـبـ آخـرـ  
اـهـتـمـامـهـ الـحـمـاسـىـ بـالـمـشـكـلـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ ،ـ وـرـأـىـ أـنـهـ دـوـنـ مـاـ يـنـبـغـىـ أـنـ  
يـفـكـرـ فـيـهـ «ـالـمـشـقـفـ»ـ مـنـ أـمـورـ الـعـقـلـ كـالـمـنـطـقـ وـالـتـصـوـفـ وـالـأـدـبـ!ـ ..ـ ثـمـ  
ذـكـرـ عـنـفـ الشـابـ فـىـ حـدـيـثـهـ وـثـقـتـهـ بـرـأـيـهـ فـتـارـتـ كـبـرـيـاـوـهـ ،ـ وـغـلـبـتـهـ عـلـىـ  
أـمـرـهـ ،ـ فـقـالـ بـحـدـةـ:

ـ لـوـ أـنـ الـفـلـاحـ يـسـتـحـقـ أـكـثـرـ مـاـ هـوـ مـتـاحـ لـهـ لـنـالـهـ ،ـ وـالـحـقـ لـمـ يـقـدـرـ  
عـلـيـهـ ،ـ وـمـاـ عـادـاـ ذـلـكـ فـهـرـاءـ فـىـ هـرـاءـ!

ـ وـثـبـتـ الشـابـ نـظـارـتـهـ عـلـىـ عـيـنـيـهـ بـحـرـكـةـ عـصـبـيـةـ ،ـ وـقـالـ بـلـهـجـةـ غـرـبـيـةـ:  
ـ أـلـأـتـ مـنـ أـتـبـاعـ نـيـتـشـةـ يـاـ أـسـتـاذـ؟ـ

ـ رـيـاـهـ وـمـنـ نـيـتـشـةـ هـذـاـ؟ـ ..ـ أـلـاـ يـكـنـ أـنـ يـوـجـدـ رـأـيـ ..ـ وـلـوـ كـانـ مـنـ وـحـىـ  
الـغـضـبـ وـالـحـنـقـ ..ـ مـنـ غـيرـ قـائـلـ سـابـقـ مـنـ الـحـكـماءـ الـذـيـنـ يـجـهـلـهـمـ كـلـ  
الـجـهـلـ?ـ ..ـ وـكـيـفـ يـجـيـبـ الشـيـطـانـ الـبـغـيـضـ?ـ !ـ ..ـ هـدـاهـ عـقـلـهـ إـلـىـ سـبـيلـ  
وـاحـدـ رـأـيـ أـنـهـ يـخـلـصـهـ مـنـ الـفـخـاخـ التـىـ يـنـصـبـهـ لـهـ عـدـوـهـ ،ـ فـقـالـ وـقـدـ غـيرـ  
لـهـجـتـهـ ،ـ وـخـفـفـ مـنـ شـدـتـهـ:

ـ إـنـكـ يـاـ أـسـتـاذـ رـاشـدـ تـدـفـعـنـىـ إـلـىـ أـحـادـيـثـ لـيـسـتـ بـذـىـ بـالـ!  
ـ حـيـاتـكـ لـيـسـتـ بـذـىـ بـالـ?

ـ دـعـ الـفـلـاحـ إـلـىـ نـفـسـهـ أـوـ إـلـىـ مـنـ يـعـنـيـهـ أـمـرـهـ .ـ أـلـمـ تـقـرـأـ شـيـئـاـعـنـ  
أـرـسـطـوـ?ـ ..ـ أـلـمـ تـلـمـ بـفـلـسـفـةـ أـخـوـانـ الصـفـاـ الـدـينـيـةـ?ـ ..ـ أـلـمـ تـشـفـ  
شـتـىـ الـعـارـفـ الـرـوـحـيـةـ?ـ

ـ فـلـاحـ الـاـنـزـعـاجـ فـىـ وـجـهـ الشـابـ وـقـالـ:

ـ إـنـ مـثـلـنـاـ مـثـلـ رـيـاـنـ السـفـيـنـةـ تـخـرـ عـبـابـ مـضـيقـ ثـائـرـ تـهـبـ عـلـيـهـ رـيـحـ

زعزع عاصفة، فيفور زخاره ويصطحب ركامه، فتعلو السفينة  
وتسلل وتغسل ذات اليمين وذات الشمال، مضطربة البنيان مزلزلة  
الأركان، فهل يجوز للريان - وتلك حال السفينة - أن يولى آلة  
القيادة ظهره ليرمي بطرفه إلى الأفق متأملاً ومنشداً؟! .. نحن نجتاز  
الآن مضيق الموت تكتنفنا الآلام من كل جانب. فلنأخذ من الآلام  
ذخيرة لتأملاتنا. حقاً إن للأبراج العاجية لذاتها، ولكن ينبغي أن  
نقاوم أنانيتنا إلى حين.

- فأنت في سبيل أن تنقذ البائسين من وهذه الحيوانية تضحي بإنسانية  
المثقفين وقتل أرواحهم!

- قلت إلى حين .. ألم تر إلى فترة الحرب وكيف تحول العلماء - وهم  
أشرفخلق - إلى نوع من المجرمين!

- ومع ذلك فلك نصيبك من التأملات البعيدة كالفلك والذرة!  
فضحوكأحمد راشد - لأول مرة - بصوت مرتفع فلفت إليه جماعة  
اللاعبين وجعل المعلم نونو يقول له :  
- إن ضحكتكم فأعلمنا!

فسكت المتحاوران حتى شغل عنهم اللاعبون ثم قال المحامي :  
- لا غنى عن التسلح بالعلم للمكافحة الحق ، لا للاستغراف في تأملاته  
ولكن لتحرير النفس من أصفاد الأوهام والترهات ، فكما أنقذنا  
الديانات من الوثنية ينبغي أن ينقذنا العلم من الديانات؟!  
وهنا احتد سليمان بك عنة كعادته إذا خسر « عشرة » واشتباك معه  
سيد عارف في مصاولة لاذعة لم تلبث أن انتظمت جميع المتواطئين من  
أهل المجنون فانقطع حديث رمضان الأول .

\* \* \*

وعند متصف الثانية عشرة نهض أحمد عاكف يريد الانصراف فقام  
معه المعلم نونو وهو يقول :

- سأذهب إلى البيت لأحضر معطفى لأن الجو تشتد ببرودته عند  
الفجر .

ومضيا معا . وفي الطريق سأ المعلم صاحبه :

- لماذا لا تقد السهرة حتى السحور؟

فقال الكهل بلهمجة فاترة :

- إنى أمضى الوقت ما بين الساعة الثانية عشرة وما بين السحور فى  
القراءة !

- أتقرأ كتابا؟!

- أجل . وما يقرأ غير الكتب؟!

- وفيم هذا التعب؟

فابتسم أحمد عاكف وقال :

- هواية يا معلم نونو!

- ولكن الهواية ينبغي أن تكون ذات فائدة ما : فهل تطيل الكتب  
العمر؟! .. تدفع المرض؟! .. تمنع المقدور؟! .. تجنب  
الشقاء؟! .. عملاً الجيب؟!

فقال أحمد وما زال يبتسم وقد عاوده شعور الاستعلاء والسرور :

- بل أريد أن أكتب كتابا أيضا!

- هذا أنكى وأمر ، هل أنت صحفي؟

- هبني أجبت بالإيجاب؟

- مستحيل .

- ولم؟

- أنت ابن ناس طيبين!

فضحك أحمد ضاحكة قذفت بحنق الليل خارج صدره وقال:  
- ولكنني سأكتب كتابا.

- الكتب في الدنيا أكثر منبني آدم. ألم تر إلى مكتبة الحلبي تحت  
الكلوب المصري؟! .. فيها كتب - يا دين محمد - لو صفت جنبا إلى  
جنب لکاثرت طلبة الأزهر، فهل تبذل ما تبذل من جهد لتضييف  
إليها كتابا جديدا؟!

- نعم .. نعم .. فلكل كتاب فائدته.

- إليك هواية لطيفة لن تقتضيك جهدا.

- ما عسى أن تكون؟

- أما تعرفها؟ .. حزر.

- لا علم لي يا معلم.

- يدعونها تسليمة رمضان وفرحة الزمان.

- فما اسمها؟

- في الأصل من التراب ولكن مرعاها فوق السحاب.  
- عجبًا.

- واردها إما في الليمان أو على كرسي السلطان!

- ليس في الدنيا شيء كهذا.

- يهواها الفقر والوزير.

- لحد هذا؟!

- عزاء الحزنان وشرب الفرحان!

- ما أشوقنى إلى معرفتها!

- قد النبقة وتتفنن في كل زنقة.

-هذا سحر!

-أحضروها من بلاد الفيل تحفة لأهل النيل!

-هل تجد فيما تقول؟

-ألم تسمع عن الحشيش؟!

وارتاع الكهل لوقع الكلمة، فضحك المعلم وقال يغويه:

-تعال طاوعني، الحياة ملأى بما هو أللذ من الكتب.

وأغراه حب الاستطلاع بأن يسأله:

-أين؟

-المكان تحت أمرك إذا وافقت وشرفتنا.

-ألا تخاف الشرطة؟

-أعرف كيف أتقى شرها! .. فماذا قلت؟

فابتسم أحمد وقال له:

-لا شأن لي بهذه الهواية الساحرة.. شكرالك يا معلم.

\* \* \*

ولما خلا إلى نفسه في حجرته تناسى حديث نونو وظرفه، ولاحظ  
لينيه صورة أحمد راشد بكتابتها وحماسها وعنف حركاتها، فاستارت  
حنقه وغروره ومقته، وتساءل محزونا كيف غابت عنه دنيا المعرفة  
الخديثة؟ .. وكيف يستكمل ما فاته منها؟! .. ومتى يحاضر في فرويد  
وماركس كما يستطيع أن يحاضر في إخوان الصفا وابن ميمون؟! ..  
وفكر في هذه الأمور طويلا فلم يستطع أن يصفو للمطالعة ولا أن يركز  
ذهنه فيها، ولكنه ظل عاكفا على كتابه لا يحول عنه رأسه لأن عکوفه  
على الكتاب - ولو في حال شروده - يقنعه بأن يومه لم يمض بغیر ثقافة  
يتزود منها، الأمر الذي يحرض عليه كل الحرث . وانسل الوقت

وما تزال كبرياً تتجه غصص العذاب، ثم خطرت على قلبه فكرة.  
هفت على قلبه كنسمة رطيبة لطيفة فائلجت صدره الفائز بالحنق  
والغضب، فصفا وطاب، وابتسمت أساريره. كم كانت تكون الحياة  
سعيدة محبوبة لو أن ما يلقاه من حظ ونصيب، ومصادفات واتفاقات،  
وأناس وأخلاق، كان في مثل هاتين العينين النجلاويين يقطران سذاجة  
وخفة؟! .. ثم ذكر - فيما يشبه الدهشة - أن شهر رمضان ذو صلة قديمة  
بقلبه، ففي شهر رمضان خفق قلبه خفقة الحب الأولى، وهي -  
كرؤية نور الدنيا لأول مرة - إحساس عجيب لا يتأتى الشعور بجده  
مرة أخرى. وفيه رأى الفتاة التي رغب صادقاً أن يشاطراها حياته  
وأخفق،وها هو ذا رمضان من جديد،وها هو ذا قلبه ينفض عن  
صفحته الضباب البارد القائم ليستقبل شعاعاً دافعاً منعشَا، وكان عقله من  
العقول التي ترى دائماً وراء المصادفات حكمة تدق على الألباب، فإذا  
رأى غيره من المصادفة مجرد حادثة لا معنى لها، التمس هو فيها حكمة  
خفية، لذلك نظر أمامه حالمًا وقد غاب بصره، وارتفع حاجبه الخفيفان  
المتباعدان، وفغر فاه، وغمغم في حيرة وسرور «ماذا وراءك يا  
رمضان»؟!

## ١٢

وعند أصيل اليوم الثاني نهض نشيطاً إلى المرأة ليحلق ذقنه، وكان  
يحلقها عادة مرتين في الأسبوع، ولا يبالى أن ييدو للناس وذقنه نابتة،  
فعزم على الإقلاع عن عادته هذه، وأن يحلق ذقنه يوماً بعد يوم من الآن  
فصاعداً.  
ولما فرغ ارتدى جلباباً نظيفاً وطاقة ناصعة البياض - مجبراً على الخفي

صلعته . ثم جلس على حافة الفراش يرمق النافذة بعينين متزددين ، ليست المسألة مجرد حلق ذقن أو لبس طاقية بيضاء ، إنما ينبغي أن يسأل نفسه عن معنى هذه اللهفة ومغزى هذا التغير . هل ينطلق بغير تفكير أو ترسو؟ .. ماذا يريد على وجه التحقيق؟ .. فعسى ما يكون اليوم لعباً يكون غداً جداً . وما ينبغي له أن ينسى حظه العاشر وتاريخه المحزن ، أفلًا يحسن به أن يترك النافذة مغلقة ، وأن يتفادى ما ينذر به فتحها؟ .. على أن الحياة لا تنصت لمثل هذا المنطق ، ولا تكاد تتأثر بحكمته ومخاوفه ، فقد أحقره الظما وألهبته اللهفة ، ونهض مرة أخرى يلوح في وجهه العزم ودلل من النافذة ثم فتحها ، وارتافق حافتها وعيناه إلى أسفل ، ثم مضى يرفعهما ببطء وحذر حتى بلغتا أرض الشرفة ، فرأى قوائم الكرسي وحاشية الشال . الذي كانت تطرزه مساء الأمس - مدللة بينها ، ثم غلبه خجله فأطرق كالأطفال! .. ولبث مطروقاً وهو يشعر بعينيهما تثقبان رأسه . وخلف أن تذهب الفرصة قبل أن يتملى برؤيتها ، فرفع رأسه متغلباً على حياته ، فرأى الكرسي خاليًا والشال موضوعاً عليه! .. أترى أكانت موجودة حين فتح النافذة ودعاهما إلى الذهاب داع؟ .. أم غابت قبل ذلك؟ .. ومهما يكن من أمر فقد أحس امتعاضاً وفتر حماسه ، وخاف أكثر من قبل أن يغيب اليوم دون أن يراها ، ولم تكن احتمالات رؤيتها في الغد لتنسيه خسارة اليوم ، فقد تهيأ بكل عناية لتراث في أحسن صورة ممكنة ، ولن تكون ذقنه ولا طاقيته ولا جلباه غداً كما هي اليوم ، وإن فهذا رجاء خاب ، وذاك تعب ضائع ، وأطرق مرة أخرى كاليلائس ، إلا أنه سمع - في اللحظات الأخيرة قبل المدفع - حركة خفيفة في الشرفة ، فرفع رأسه بسرعة فرأى الفتاة مقبلة ، ثم رأها تنهض على الكرسي لتأخذ الشال فاللتقت عيناهما لحظة ، ثم استوت قائمة فولته ظهرها وجرت إلى الداخل . وما طمع في أكثر من ذلك ، ولو أنها أدامت النظر إليه لأربكته وأوقعته في الحيرة والحياة ، أما وقد خطفت

بصريها بمثل السرعة التي خطفت بها روحه، فقد أولته الجميل دون عناء أو مشقة. ثم صارت بعد ذلك ساعة الغروب تلك معقد الرجاء وبسمة المنى، هي خلاصة اليوم وهدفه ومعناه، حسبي أن يلأ عينيه من معانى السذاجة والخفة تسكبها عيناه النجلاؤان، وأن يدخل منها لبقية يومه ما يشبع فيها السرور والأحلام. وتواترت أصيلاً بعد أصيل، والتقت العينان يوماً بعد يوم، فألف منظرها المحبوب ولعلها ألفت منظره، بيد أنه لبث على خجله وارتباكه، يطالعها. إذا جاءت اللحظة السعيدة. بنظرة تفيض بإحساس الجد والرزانة والوجل كأنما يتحفز صاحبها للفرار!.. ووضاحت صورتها في مخيلته بعينيها النجلاؤان ذواتي الصفاء والسذاجة والخفة، عينان تنطق نظراتهما بالتساؤل والاستسلام، إلا أن خفتها تصفي عليها غلالة من الفطنة والحرارة.

وكان ذات مساء يغادر حجرته -بعد العشاء- إلى المقهى. فدق جرس الباب الخارجي وهو يقترب منه، ففتح الباب بنفسه، فرأى أمامه المست توحيدة وكرمتها نوال!.. وجعل ينظر إليهما بدھة وارتباك وقد خفق صدره بما بعنته من سرور، ثم اتبه إلى نفسه فتنحى عن سبيلهما قائلاً متلعمًا:

ـ تفضلاً ..

ودعا أمه لتلقى الزائرين، وذهب لا يلوى على شيء، وأدركت أم نوال ارتباكه، ولم تكن تتصور أن رجلاً في سنّه يرتباكه، ويبدو عليه ما بدا من الحياة لمحض أنه قابل أمرأتين. وهبط أحمد السلم نشوان لأنه يذكر جيداً. كما أكد لش��وكه التي لا تنتهي. أن فتاته ابتسمت إليه وهو يستقبلهما ابتسامة خفيفة براقة، لعلها ابتسمت ابتسامة الضيف لمن يستقبله، أو ابتسامة الارتياك والحياء، أو لعلها جادت بالابتسامة للرجل، جزاء حرصه ومثابرته على التطلع إليها بعينيه كل غروب أسبوعاً كاملاً أو يزيد، فمهما كان الباعث فهي ابتسامة حلوة، تلهف

قلبه على مثلها عشرين عاماً. ورغم عن الذهاب تو المقهى ليتتبع لنفسه فرصة للتأمل، وكان من الذين يستحبون المشي إذا شغله شاغل من الفكر. فتح خطاه إلى السكة الجديدة، وسار معها مبتهاجاً مسروراً، وتمتع ما شاء بالسرور في صفاء ورضا، وما كان غرّاً ولا حسن الحظ بالدنيا. وكيف يكون ذلك بعد ما لاقى من سوء الحظ وعشاره؟!.. ولكن أراد السرور ساعة ولو خدعاً نفسه وغالط رأيه، وأراد أيضاً أن يسبر حظه بعين جديدة ليرى أين هو من أمانيه المكبوتة، وليرى إن كان في الإمكان أن يعاود التجربة من جديد. فقد بدا له أنه أصبح حراً بعد أن أدى واجبه كاملاً، ألم يتلق عن والده العباء عند اندحاره؟!.. ألم ينهض بأسرته المهددة بالشقاء؟!.. ألم يكفل أخيه حتى صار رجلاً؟!.. فما عليه من حرج بعد ذلك إذا شغل بسعادته مخلفاً أعباءه لشقيقه الأصغر، ولا يكره ذلك أحد من ذويه، فهل في العمر متسع؟!.. وقادى في التأمل والتخيل يحثه شعور السرور والظفر الذي غمره منذ حين، فقال إنه يملك في صندوق توفير البريد مبلغاً لا يأس به في ذاته، وإن عد تافهاً إذا قيس إلى مدة خدمته الطويلة، وأما عن شكله فليس مما يعيّب الرجل ألا يكون جميلاً!.. وإن لم يستطع بالعناية. كما فعل اليوم. أن يبدو مقبولاً على نحو وجهه وشحوبه وصلعته. ويا حبذا لو فصل بذلك جديدة، وابتاع طربوشة غير طربوشة الباهت المتقبض. بيد أنه كهل!.. فهو في الأربعين والصبية دون العشرين!.. وفارق العمر حاجز لا تقتسمه إلا المعجزات فمن أين له بالمعجزة؟!.. وانقبض صدره لأول مرة منذ فتح باب الشقة للزائرين، وذكر شكه في جاذبيته الجنسية، فتجهم وجهه وأفاق من نشوة السرور وتمثلت لعيشه. في ظلمة الطريق. صورة الفتاة الباسمة، فغمغم قائلاً: «يا لها من غرة جاهلة!»، إلا أن شيئاً واحداً لم يخطر له ببال، وهو أن يتطلع بعده إلى الحياة التي دبت في قلبه فيخنقها لو اذا بطمأنينة الموت،

فليتر كها تنبض وترعرع ولينتظر المخبأ وراء حجاب الغيب ، وهو لن يكون بحال أسوأ مما عركته به الأيام . وخطر له وهو راجع أن يتساءل هل الحب شيء غير ما يعاني؟! .. هل هو شيء غير هذا الشوق الغامض النابع من الحنايا؟ .. هل هو شيء غير هذا الحنين الذي تزفر أنفاسه عصير القلب والكبد؟ .. هل هو شيء غير هذا الفرح السماوي تطرب له النفس والدنيا جميكا؟ .. هل هو شيء غير هذا الألم المشق من الإخفاق والعودة إلى الوحدة والوحشة؟ .. هل هو شيء غير أن تسكن تلك الصورة الساذجة اللطيفة هذا المصدر فتصير زاد أحلامه ومبعث آماله وألامه؟ .. بل هو الحب ، وإنه به خير !

وعاد إلى الزهرة فوجد الصحابة يتسامرون ويحتسون الشاي ، ورأى الغلام محمد جالساً جنباً والده يقلب في المكان عينيه النجلاوين ، فسر لمرأه . وهو سفير هواه . وانجذبت نحوه روحه . واتخذ مجلسه العتاد جنباً الأستاذ أحمد راشد ، وراح ينصلت لسيد عارف الذي كان يقول بحماس :

- وسيتهز الألمان فرصة ضباب الخريف الكثيف ويهبطون على شواطئ إنجلترا وينهون الحرب !

فتساءل كمال خليل ضاحكا ، وفي هدوء لا يهيج الأعصاب :  
- كما هبط هيس؟!

فاستطرد سيد عارف غير ملق بالا إلى قوله :

- وستخر إنجلترا المتعرجة صريعة قبل أن تفيق من هول الضربة .  
فسأله أحمد راشد :

- كيف تغزو ألمانيا إنجلترا وجندوها مشتبكة في ذاك الصراع المخيف في روسيا؟

- أعد الفوهر جيشاً خاصاً لغزو إنجلترا ، وأرجح أن تسقط إنجلترا قبل روسيا إن لم تسقطا معاً !

فقال أَحْمَد رَاشِد:

-الظاهر أنك تجهل حقيقة روسيا، روسيا الاشتراكية غير روسيا-  
القيصرية، الشعب الاشتراكي كتلة من الصلب والإيمان والعزيمة،  
وهو ربما تقهره مما يأخذ أنفاسه، ولكنه لن يلقى السلاح أبداً،  
ولن يسلم لدواعي الهزيمة.

- والمخزن رقم ١٣٩!

فقال المعلم نونو وهو يفرك كفيه:

- هذا مخزن الأقراص التي تريدها.

وسائله أحمد عاكف:

- لماذا لا يستعمل هذا المخزن إن صر ما يقال عنه؟

- رحمة بالإنسانية، الفوهرل لن يلتجأ إلى استعمال مخزنه المخيف إلا  
إذا يئس من النصر بالفن الحربي المعتمد لا قدر الله !  
وهنا صدق المعلم نونو للنادل أن يحضر الدومينو وهو يقول كمن  
قد صدره بالحديث :

ـ ملعون أبو هؤلاء وهؤلاء، فلا الألمان أمنا ولا الإنجليز أبونا،  
ـ وليدذهب بهم الشيطان جمِيعاً إلى الجحيم.

وفصل المعلم نونو بصيحته بين السمر واللعب، وما لبث عاكف أن وجد نفسه كالعادة منفرداً بالمحامي. ورغم عن الحديث، وحدثه نفسه بالرجوع إلى البيت حيث توجد الآن نوال وأمها.. ولكن ما عسى أن يفعل هناك إلا أن يحبس نفسه في حجرته؟.. وإنه لفى حديثه مع نفسه إذ سمع المحامي يقول للغلام محمد بلهجة الأمر:

- يا محمد آن لك أن ترجم إلى البيت لتذاكر!

ونهض الغلام قائماً، وقد علت شفتيه ابتسامة دلت على ارتباكه،

وغادر المقهى وثبا! .. وعجب أحمد عاكف للهجة الشاب الأميرة  
وإذعان الغلام لها، فلم تكن لهجة الناصح ولا المتودد إلى الأب.  
وأحس الشاب بعجب الرجل فقال:

البنات يتتفوقن على الصبيان بدرجة تدعوا للدهشة، فشققية الغلام  
مجتهدة مطبعة، أما هو فيتجرع دروسه كالعلقم ويتعتل على  
التهرب منها بالعلل!

كيف يتكلم الأعور عن الفتاة بهذه الحرية؟ .. وخطر له خاطر  
انقبض له صدره فسأله:  
هل تعطيهما دروساً خصوصية؟

فحنى الشاب رأسه بالإيجاب! .. وامتنع الآخر امتعاضاً شديداً  
جعله يتكلف الابتسم حتى لا يبدو على وجهه أثر من إحساسه.  
أيجلس هذا «الأعور» من فتاته مجلس الأستاذ المعلم؟ .. أيلقنهما  
الدرس ويأمرها بحفظه وربما تصنع الجد فانتهرا؟ .. لا ينفرد بها  
أحياناً؟ .. ألم ينظر إليها مرة بغير عين الأستاذ؟ .. كيف تراه هي؟ ..  
إنه شاب مثقف ذو مستقبل حسن، ولن يضره شكله المتوجه ولا عينه  
الزجاجية، بل لن يعد -أى عاكف- خيراً منه بحال إن لم يعد أسوأ  
درجات -على الأقل في نظر العوام والأمين-. فهل يولي الأدب؟ ولما تبدأ  
المعركة؟ وما كان في مثل هذه المعركة من تسلكهـم روح الإقدام  
والمنافسة، وعلى العكس من ذلك تراه ينكشم ويسلم ساقيه للريح حياء  
واستكباراً وجبنا.. ولن يزال في كل شدة يلتمس التدليل الذي نشا في  
 أحضانه فإذا أخطأهـ. ولا بد أن يخطئهـ. انطوى على نفسه دامي القلب  
مجتراً آلامهـ مكيلاً التهم لسوء الحظ الذي يلاحقهـ! ولو كان دور الذكر  
في الغزل أن يطارد لا أن يطارد وأن يُطلب لا أن يطلب لهـان الأمر  
وطاب لهـ الغرام، أما والأمر غير ذلك أو عكس ذلكـ. أما والأمرـ

يستوجب رجولة ولباقة وجسارة فكيف يطمع في الظفر؟ ولو أن السجايا رهن مشيئة الإنسان لنزل عن ثقافته ومواهبه العقلية - المزعومة - لقاء أن يصير غزلاً ماهراً ورجلًا جذاباً! ولكن هيئات أن يبلغ ما يشاء، وليس أمامه إلا أن يحتقر الغزك وييقت المرأة ويستمر العزلة الوحشية!

وتخنب أن يشتبك في حديث مع الشاب البغيض، وتتصنع الإنصات للراديو ليصرفه عن محادثته، فمضى الوقت وهما صامتان، والسكون قائم إلا أن يمزقه احتداد سليمان عنة إذا استشاره سيد عارف. وأوردته أفكاره المحمومة - في صمته - مناهل سامة استقى منها خياله المحزون، فاستسلم لأمانى شيطانية مرعبة، تمنى في صمته غارة جنونية تُقذف القاهرة بالحمم فتدك مبانيها وتهلك بنيها فلا يبقى منها إلا خراب وآثار، وشخصان حيآن لا غير، هو وهي !! هنالك تصفو له بلا خوف ولا يأس ولا غيرة ولا جهد! .. وتمثلت لعيينيه المظلومتين القاهرة المهدمة المحطمة، والشخصان الشريidan، يفزع أحدهما إلى الآخر لائذا بجناحه ساكنا إلى ذراعيه، والآخر سعيد - على ما يكتنفه من الخراب - بصاحبه متلذذا بانفراده به، انبعثت هذه الأمنية الغريبة من صدره وهو يفور بشعور طاغ بالاضطهاد والقهر والعقاب.

١٣

ولما خلا إلى نفسه في حجرته بعد منتصف الليل - تسأله متعضاً لا يحسن به أن يقلع عن عادة فتح النافذة، وأن يغلق قلبه دون العاطفة الجديدة التي يسير الألم بين يديها؟ أليس الموت مع السلامة خيراً من

حياة القلق والعذاب؟ بيد أنه تناسى مخاوفه في اليوم التالي وما بعده وصار بين النافذة والشرفة ميعاد يتجدد كل أصيل . ولم يعد شك في أن الفتاة أدركت أن جارها الجديد يتعمد الظهور في النافذة- أصيل كل يوم- ليبعث إليها بتلك النظرة الحية الوجلة . ترى كيف تحدثها نفسها عنه؟ أتهزاً بشكله؟ أتضحك من كهولته؟ أم باتت تضيق بخجله وجموده؟ فمن عجب أن تتواءر الأيام ولا يزال حريصا على ميعاده متربقا ل ساعته ثم لا يستطيع شيئا إلا أن يرسل هذه النظرة الخائفة ما أن تلتقي بنظرتها حتى ترتد في خفر وقد اختلجمت الأجهاف ، وما انفك شبح أحمد راشد يطارده ويزعجه ، وما انفك يسائل نفسه الغيور أما ترشقه الفتاة أيضا بمثل هذه النظرة الخلوة أم تدخل له ما هو أجمل وأفتن؟ ! بيد أن لحظات الأصيل السعيدة كانت تتسلله دائمًا من هاوية الشك والقنوط . وجعل يهدى روعه ويقول لنفسه إنها لو كانت تهوى الشاب البغيض لما منحته نظرتها الحنون مساء بعد مساء فعاوده الأمل وراجعته الرجاء . ولكن لم يكن طبيعيا أن يقنع بهذه النظرة، وأدرك أنه ينبغي أن يخطو خطوة جديدة ، ولكن هل يستطيع؟ هل يستطيع أن يهجم على الحياة لحظة كما استطاع أن يهرب منها عشرين عاما كاملة؟ هلا أداه إليها النظر حتى تطرق هي حياء ولو مرة! .. هلا حياها بابتسمة؟ وتخيل أنه يديم إليها نظره ثم تخيل أنه يبتسم لها فتور وجده واضطراب اضطرابا عنينا وغله الحياء والعجز على أمره! رباه أتجفل الكهولة من الطفولة؟ .. أتفر الأربعون من السادسة عشرة؟ لكم حسب فيما مضى أن المخجل داء يزول مع تقادم العهد ولكنه تشبت بطبعه حتى أدركه داء جديد هو داء الكهولة ، فلماذا يخلق الله قوما مثله لا يقدرون على الحياة؟! .. والتمس في يأسه سبيلا جديدا فقال لنفسه إن الذين يخافون النظر والابتسم يستطيعون بلا شك أن يكتبوا ، فلماذا لا يجرب وسيلة الكتابة إليها؟ وراقه هذا الماطر وفكر فيه تفكيرا جديا ، فالامر لا يقتضيه إلا

أن يكتب كلمات في ورقة ثم يطويها بعناية ويرمى بها إلى الشرفة، هذا حسن. فكيف يبدأ خطابه؟ أ يقول مثلاً حبيبتي نوال؟ .. هذا تصوير وقع. عزيزتي نوال؟ .. ما يزال ذكر الاسم وقاحة. عزيزتي فحسب، فهذا أليق بأدبه، ثم ماذا؟ .. إن الرسائل تبدأ عادة بالتحيات، فليكتب لها تحية وسلاماً، ثم ماذا؟ .. هل يصارحها بحبه؟ .. كلاً هذا ما ينبغي أن يختتم به، وإذا بدأ فليبدأ بالإعجاب والثناء، ولكن كيف ينشئ عباراته؟ .. وكيف يتخير ألفاظه؟ .. أى الأساليب يعجبها؟ وأى الألفاظ يحسن وقعاها من نفسها؟ .. وبه فرغ من حل هذه المشكلات جمِيعاً فماذا يسألها؟ .. أَنْ تجيئه؟ .. أَنْ تقابله؟ .. بل هناك ما هو أهم من كل ذلك. ما الذي يدعوه إلى الظن بأنها ستحسن استقبال رسالته؟ من يدرِّيه أنها لا تمزقها وتُقذف بها في وجهه .. أو يغلبها السخط فتفضح سره وتشهر بكرامته؟ .. وعقله التردد بعد أن كاد يمسك بالقلم فتراجع لأنذا بالسلامة. على أن النافذة لبشت على ولاتها للشرفة. وأوفت كلتاهمما بعهدهما لم يرتبطا به، فتلاقت العيون حتى تآلفت وتعارفت، وتجاذبت الأرواح دون أن يعوق تجاذبها الصمت أو الحباء، وبيات يظنـ لما يطالع في نظرتها من العطف والصفاءـ أنه ظلم الأستاذ أحمد راشد بأفكاره وعواطفه، وأن الشابـ المشغول بالاشتراكية ومحو العقائد الباليةـ لا يفزع للغزل والحبـ، فذاق رحيق الأمل صافياً، ثم أدناه الحظ من الأمل والثقة بمصادفةـ: إذ شغله أبوه عصر يوم من أيام رمضان الأخيرة فمضى الأصيل دون أن يستطيع الظهور في موعده من النافذة، وانتظر في اليوم التالي بصبر نافذ ولكنه وجد الشرفة مغلقة! .. وانتظر عشاً أن تفتح وأن تبدو بها فتاته ولكن على غير جدو! .. وظن أنه عاقها عن الظهور مثل الذي عاقه بالأمس، لو لا أن عشر بشبّحها وراء خصاص بباب الشرفة! .. فلم يشك في أنها تعمدت إغلاق الشرفة دونه كم فعل هو بالنافذة في أمسه ومعنى هذاـ إن صدق حدهـ أنها أحست

غيباه أمس . بل لعلها استاءت منه وأضمرت ساعتها عقابه وها هي ذى تحقق إرادتها ، وما إلى تصديق ظنه ، ولكنه لم يجد للعقاب ألا ، وعلى العكس شعر له بلذة لا عهد له بها ، فطرب طرباً استخفه وجعله يفرقع بأصابعه ويذهب ويجهى في الغرفة ذاهلاً عما حوله . وفي اليوم التالي أقبل على النافذة بروح جديدة ممتلئاً ثقة وأملًا ، فشعر بوجودها قبل أن يرفع إليها عينيه المستطيلتين ، وكان عزم أن يرميها بنظرة استفهام وعتاب كأنما يسألها «لماذا اختفيت أمس؟» فالآن جاء وقت التنفيذ! .. رفع رأسه الصغير فالتفت العينان! ونادى شجاعته ليرفع حاجبيه ويحرك رأسه مستفهمًا مفكراً ، أجمع عزيمته كمن يتوجب لإلقاء نفسه إلى حوض السباحة لأول مرة ، ودفع نفسه للقفز ، ولكنه جمد لحظة أكثر مما ينبغي فانتهز عقله الفرصة ورمى في طريقه بخاطر من خواطر الشك والخوف فخاف أن يعثر به فاستطارت إرادته وانتشر عزمه وجفل متراجعاً! وفي تلك الليلة أَنْبَ نفسيه تأنيباً قاسياً ، وطرق صلعته بشيء من الحدة وصاحت غاضباً: «أما من ذرة رجولة!! وهكذا أحبها . أحبها لعينيها النجلاويين ونظرتها اللطيفة الساذجة وخفة روحها . أحبها لأن أحلامه . والأحلام هي الفن الوحيد الذي أتقنه في دنياه . أبى أن تغيبها ساعة عنه ، وأنه جائع - جائع في الأربعين - والجوع من بواعث الأحلام! ..

## ١٤

ثم كانت ليلة القدر من الشهر المبارك فاحتفلت بها الأسرة احتفالاً بدا في الدجاجة الحمراء التي ازدانت بها سفرة الإفطار وصينية الكنافة ، وعند العشاء راحت المست دولت تدعوا لبعضها بالصحة ولولديها بطول العمر والسعادة ، أما عاكف أفندي - الأب - فذهب إلى مسجد سيدنا

الحسين لشهود احتفال رابطة القراء بالليلة المفضلة، فكانت ليلة سعيدة؛  
و قبل أن يأوا إلى أسرتهم قبيل الفجر أطلقت صفارات الإنذار فارتدوا  
معاطفهم و هرعوا بين جموع السكان إلى المخبأ الذي باتوا يعرفون طريقه  
بغير حاجة إلى إرشاد الخادم، و امتزج انزعاج أحمد بسرور خفى لأن  
المخبأ يدنيه من نوال و يمتع ناظريه باجتلاء محياناها المحبوب. و رأى في  
المخبأ أحمد راشد و سيد عارف و اقفين يتهدثان فانضم إليهما. و كان  
موقفهما قريبا من الركن المرموق. و ما أن رأاه المحامي حتى قال له :

- أما سمعت ما يقول سيد أفندي؟ يقول إن خطوبة سليمان عنة

لكرية العطار تمت اليوم!

فقال سيد عارف مبتسمًا :

- نعم يا سيدي .. فرح «ميمون».

وعاد أحمد راشد يقول بحدة :

- انظر إلى المال كيف يستدلل الحسن! إن أقبح ما في عالمنا هو خنوع  
الفضائل والقيم السامية للضرورات الحيوانية، فكيف سامت  
الحسناء نفسها قبول يد هذا القرد الدميم؟! ولن يكون اجتماعهما  
زواجا ولكن جريمة مزدوجة تعد من ناحية سرقة ومن الأخرى  
اغتصابا، ولن يزال جمالها فاضحا لقبعه، وقبعه فاضحا  
لجعلها ..

ثم ابتسامة خفيفة واستدرك قائلاً :

- لا يمكن أن تقرف هذه الجريمة في ظل الاشتراكية!

وهنا علا صوت رجل يقول متذمراً :

- ألم يقولوا إن الألمان لن يغيروا على مصر في شهر الصيام؟

فتحول إليه سيد عارف وقال :

- ولكن الإنجليز يغرون على طرابلس وهي بلاد مسلمين كذلك!

ثم قال لصاحبته بلهجة اليقين :

ـ الإنجليز لا يضربون طرابلس لفائدة حربية ولكن ليجبروا الألمان على ضرب القاهرة !

ولم يعن أحمد بالمناقشة لأنه كان يتلقى رنوة ساجية من بين الجموع الغافلة، ولكنه لم يهناً بها طويلاً فإن صوتاً غليظاً صاح بقوّة: «صه.. أزيز طيارة!» وساد على الأثر صمت شامل وأرهفت الآذان حتى صاح صوت آخر: «كلا.. هذه سيارة الشرطة» فقال الأول: «بل أزيز طيارة.. اسمع!» وأنصتوا جميعاً فترامي إلى الآذان أزيز طيارة حقاً يهبط من جو سحيق، فاضطرب قلب أحمد وتحول بصره نحو والديه فرأى أمّه مصوّبة عينيها نحو سقف المخباً وأباه مطرقاً، ثم سمعوا طلقة مدفعة مضاد بعيدة تلتها طلقات كثيرة متقطعة. وسكت الضرب لحظة ثم عاد أشد مما كان، واتصلت الطلقات واختلطت. فانتشر الذعر وثارت الألسنة في هذيان، وقال واحد من الخائفين الذين يستجدون الطمأنينة: «هذا الضرب في المراقبة مؤكد».. فارتاح كثيرون إلى تأكيده وآمنوا على قوله بغير وعي. وذهب إلى والديه وسأل أبياه وإن كان في مثل حاله من الذعر والاضطراب: «كيف الحال يا أبيتي؟» فأجابه الرجل بصوت متهدج: «ربنا موجود» واستمر إطلاق المدافع وتعددت مصادره، وجعل سيد عارفـ على أثر كل طلقة مدفعةـ يذكر اسم الناحية التي أطلق منها كأنه الخبر العليم فيقول: «مدفع العباسية.. المراقبة.. بولاق.. وهذا مدفع القلعة إلخ إلخ» ولما انطلق مدفع بعنف فاق ما سبقه شدة قال الرجل: «هذا مدفع ألماني ابتعاته الحكومة من ألمانيا قبل الحرب!». ولكن أخذ كثيرون يضيقون بالمتكلمين ويتهرون بهم فاشتد اللعنة، ثم جاءت لحظات أخرى عنيفة فيها إطلاق المدافع واتصل اتصالاً مخيفاً فارتاحت الأعصاب ووجبت القلوب. تلك لحظات قصار ولكن يقاس زمانها الثقيل بتردد الأنفاس وخفقان القلوب فكان المرء

يحمل الدهر على عاتقيه، ثم خف عنف الإطلاق رويدا، ثم لم يعد يسمع إلا في ناحية واحدة، ثم سكت آخر مدفع وأخلف السكون، ولم يدر أحد هل يستأنف الإطلاق أو انتهت عقوبة الليلة، إلا أن الأنفاس أخذت تسترد من الراحة ما تبل به جوانح احترق أو كادت. ومضت فترة وجيزة في سكون ثم انطلقت صفارات الأمان، فنهض القوم مشهدين، وأرسل أحمد عاكف ناظريه إلى هدفه المنشود فالتقى بنظرة جادت بها له، فسر بها سروراً مسح عن صدره الضيق آثار القلق والخوف، ورأها تسبق أسرتها نحو باب المخبأ حتى إذا بلغته عطفت رأسها نحوه ورمته بنظرة ذات معان ثم ارتفعت السلم على عجل، فشعر الرجل - بقلبه الجذلان - أنها تدعوه إلى اللحاق بها، وللأعين كما للغرائز لغة سرية صامتة، فتولاه التردد والحياء، إلا أن مرورها إلى الخارج بث فيه شجاعة وقتية تغلب بها على تردد وحياته فاتجه نحو الباب سابقاً والديه والخادم، وارتقي السلم متسللاً ترى هل يجدها أمام الباب؟ وما عسى أن يقول أو يفعل؟ ولكن رأى شبّحها قد ابتعد عن مدخل المخبأ، فإذا أوسع خطاه أدركها في أقل من الثانية وأمكنه أن يسايرها شارع إبراهيم باشا، وأن يرتقيا معاً - منفردين - سلم العمارة. تخيل ذلك بسرعة ولكنه لم يكدر يدّي حراكاً، أو تحرك بالأحرى خطوات معدودة، فاتسع ما يفصل بينهما من مسافة حتى باتت قريبة من مدخل العمارة، وغل الحياة والارتباك إرادته فجعل يتلفت خلفه كأنه يدعو والديه إلى اللحاق به لينقذه من ورطته، وعيثا حاول أن يقاوم حياءه أو ارتباكه أو أن يجمع إرادته على اللحاق بها فأدركه القادمون وما يزال موزع الفؤاد بين الخوف الرغبة، ثم اختفت الفتاة داخل العمارة، وانتهى الخوف والتردد والرغبة والأمل! ثم سار مع والديه يعالج في صمت حسرة أليمة متزرعة من صميم الصلوع، وطفق ينظر إلى السلم - وهم يرتفونه - بأسف ذاكراً أنه لو قهر خوفه لانفرد بها فيه. على أنه سأل نفسه «ماذا

كنت أقول لها؟» .. هبه كان تشجع وحياتها ورددت هي تحيته بابتسامة أو كلمة أو إيماءة - بصرف النظر عن أن التحية في ذاتها مشكلة فلم يكن يدرى ما الأوفق أن يقول : صباح الخير .. سعيدة .. السلام عليك إلخ - هبه حياتها ورددت تحيته فماذا كان يقول بعد ذلك؟! .. أيصمت حتى يفترقا عند شقته؟ أم ماذا يقول العاشقون في أمثال هذا الموقف؟ ألا ما أكثر العاشقين ! ولشد ما يتهماسون ويتناجون في الطرق والمركبات فكيف فقد النطق بلغتهم المحبوبة؟ .. وعاد إلى حجرته متثلاً أسفًا ، بيد أنه كان على هذا فرحاً مسروراً ، بل كان ثملاً بنشوة سرور لم تعهد القلوب ألذ منه ، فمهما يكن من أمر نفسه فلا يمكن أن ينسى أنها رمته بنظرة نداء - وهي من معجزات السرور في شريعة العاطفة - وهي خليقة بأن يسر لها سروراً خالصاً لا شأن له بحياته ولا بحسرته ! ولاحظ منه نظرة إلى النافذة - وقد غدا يدعوها نافذة نوال - فحن قلبه المتتشى إلى أن يرسل بنظره إلى الشرفة ، ففتح النافذة ورفع رأسه فرأى لعجبه بابها مفتوحاً ومصابح الحجرة مضاءً والفتاة واقفة على عتبة الباب ! .. ما الذي دعاها إلى باب الشرفة في تلك الساعة من الفجر؟ .. وكان يرى شيئاً من غير أن يميز معارف وجهها لوجود المصباح وراءها ، وكذلك كان مصباح حجرته فأيقن أنها لا ترى سوى شبحة - وشجعه ذلك على الشبات والتحديق فيها - ولم يمتد به الوقوف طويلاً حتى فجأته بأسعد مفاجأة جادت بها حياته : فأومنت له برأسها تحية! .. وغمراه الذهول ، ولكنه لم يغلب على أمره هذه المرة فحنى رأسه رداً على تحيته! .. وتراجعت الفتاة مسرعة حياء وأغلقت باب الشرفة - وهو ينظر - ثم أطفأ النور ، ولبث الكهل بمحفه مدة من الزمن لا يدريها ، ولا يدرى بنفسه ، ثم أغلق النافذة ، وجثا على ركبتيه واضعاً راحتيه على صدره ، وهمس بصوت منخفض «اللهم حمداً وشكراً!» ..

واستيقظ فى صباح اليوم الثانى متعبا لأن السرور - كالحزن - عدو للنوم قديم . بيد أنه استهان بتعبه لنشوة صدره وفرحة قلبه ، وهل ظفر بثل ذاك الصباح السعيد منذ عشرين عاما؟ فغادر البيت منشرح الصدر ، بسأام التغر ، خفاق الشباب النضير ، بعد أن أصبح أخيرا من الزمرة التى طلما رمقها بعين الحسد والغيرة . زمرة المحبين المحبوبين ! وصفا فؤاده ذاك الصباح فلم تنهشه آفة من آفات البغضاء ، واستراح - ولو إلى حين - من أطيف إخفاقه الجائمة فى ظلمة ذكرياته كالخفاش ، فلم يتوب لجدال ولا تحفز لمعارضة ولا تشاجر مع أحد من الموظفين ، وغمرت مستنقع المرأة الآسن المستقر فى أعماقه موجة راقصة من الحبور .

وعند عودته ظهرًا وجد خطابا فى انتظاره ، عرف خط صاحبه من أول نظرة ألقاهما على الظرف . وهو خط صغير جميل يشبه خطه من جميع الوجوه ، فابتسمت أساريره ، وفض الخطاپ ثم قرأه حتى فرغ منه وقال :

- سياتى رشدى أخي صباح نهار الوقفة .

فاستقبل الوالدان الخبر أجمل استقبال ، وإن كان يعلمان من قبل - بالبداية . أن الشاب لا بد أن يمضى إجازة العيد فى القاهرة إلا أن الخطاب حوى أنباء أجمل مما توقع الوالدان فاستدرك أحمد يقول :

- ويقول رشدى إنه صدر أمر بنقله من أسيوط إلى المركز الرئيسي بالقاهرة وسيتسلم عمله الجديد بعد عطلة العيد مباشرة !

وسر الوالدان سرورا كبيرا وقالت السيدة دولت:

- سنتقبل عيدين . لهفى على الغلام العزيز ، كيف قضى ذاك العام  
في أسيوط ؟

فابتسنم أحمد قائل:

- ادعى الله أن يكون تعود حياة غير التي أدمى عليها في القاهرة من قبل !

ثم أوى الكهل إلى حجرته وخلع ملابسه واستلقى على الفراش  
كعادته ليقيل حتى الأصيل - أو حتى ميعاد الحب - كما ينبغي أن يسمى  
منذ اليوم - فشغله الخطاب ردها من الزمن عن النوم وعن إحساسات  
اليوم السعيدة ، وامتلأت نفسه بذكريات شقيقه الأصغر .

يندر أن يستثير إنسان من العواطف المتباعدة ما استثاره رشدي عاكف في صدر أخيه الأكبر من عمل السخط وداعي الحب. فإنه طالما استوجب سخطه منذ أجبره واجب كفالته على التضحية بمستقبله (وعبريته!)، ثم أسعطه في فتوته بتقابلها على الشهوات وإقامته على اللذات وإعراضه عن النصح. ولكنـه من ناحية أخرى أحبه أكثر من أي شيء في الدنيا. أحبـه لأنـ الشاب آثرـ بحبـ فـاقـ ما يـكـنـهـ لـوالـدـهـ منـ الحـبـ والإـجلـالـ، وـذـكـرـ لـهـ دـائـمـاـ رـعـاـيـتـهـ وـكـفـالـتـهـ أـجـمـلـ الذـكـرـ، وـأـحـبـهـ لأنـهـ صـنـعـهـ بـيـدـيـهـ. غـذـاهـ بـرـوـحـهـ وـرـبـاهـ بـالـهـ فـكـانـ الشـقـيقـ الـأـكـبـرـ وـكـانـ الـوـالـدـ الـخـنـونـ، تـمـعـ بـطـفـولـتـهـ وـرـعـيـ صـبـاهـ وـوـجـهـ تـعـلـيمـهـ. ثـمـ عـدـ نـجـاحـهـ بـعـدـ ذلكـ. بـعـدـ تـعـبـ وـلـأـيـ وـعـشـراتـ. ثـمـرـةـ كـفـاحـهـ، وـمـفـخـرـةـ جـهـادـهـ، وـمـذـكـراـ دـائـمـاـ بـتـضـحـيـاتـهـ. وـفـضـلـاـ عـنـ هـذـاـ جـمـيـعـهـ، كـانـ الشـابـ ذـاـ سـخـصـيـةـ خـلـيقـةـ بـأـنـ تـحـبـ، كـانـ لـطـيفـاـ خـفـيـقاـ مـرـحاـ، وـرـثـ عـنـ أـمـهـ تـلـكـ الـمـقـدـرـةـ الـتـىـ تـفـتـحـ لـهـ الـقـلـوبـ بـغـيـرـ جـهـدـ وـلـأـ تـكـلـفـ، مـاـ طـبـعـ عـلـيـهـ. كـلاـهـماـ. مـنـ الـجـمـالـ وـالـصـفـاءـ وـالـوـفـاءـ وـحـبـ الـعـشـرـةـ وـالـأـلـفـةـ. وـلـكـ، وـالـأـسـفـاهـ أـخـطـأـهـ الـاعـدـالـ

والرزانة والحكمة، وجرت الحياة في أعصابه زاخرة جامحة، فاستأده غرائزه الجهد الجهيد، ودفعته قفزاً ووثباً بغير رادع، وقد كان منذ البدء جسوراً مقتحماً متربساً بالحياة. ذلك أن الذى وكل برعايته، أخاه - ظل دائماً مصطفاً بأغلال التدلل والخوف، فمال إلى الاعتماد على الطفل الذى يربيه - فيمن يعتمد عليه - في قضاء حاجاته، واتباع لوازمه واستعارة كتبه، فاكتسب الصبي خبرة بالدنيا واعتمداً على النفس وجسارة ورجولة، وصارت حاجة راعيه إليه لا تقل عن حاجته هو إلى راعيه. ولكن عرف الدنيا وجال فيها بغير المبادئ الحقيقة بأن تعصمه من زلاتها، فمنذ أن أحيل عاكف أفندي على المعاش إنطوى على نفسه تاركاً أمراً أسرته لابنه وزوجه، ولم يجد رشدى في هذين العزيزين الحزم الذى يرشده ويعصمه، فضل السبيل وتخبط على غير هدى، ولو لا دماثة خلقه، ورقه طبعه، لربما جاوز مفاسد الشهوات إلى مهالك الجرائم ..

ولكم بشرت حياته المدرسية - في عهديها الأول والثانى - بالنجاح، حتى قال أحمد عاكف إن أخيه ورث عنه بعض صفاته العقلية! ولكن الحال تغير بعد أن صار طالباً بكلية التجارة. هنالك اعتوره الفساد. فانجذب نحو زمرة من الشبان ولهجوا جميعاً بمعاقرة الخمر ولعب القمار والتخبط في بؤر التهتك، واندفع مع التيار في جنون. فاستدان مرات، وأهمل حياته الدراسية حتى أوشك أن يفسد ما بينه وبين شقيقه، ثم بلغ ذروة جنونه حين فكر جدياً أن يقطع حياته الجامعية ليتوفر على تعلم الموسيقى والاشتغال بالغناء - لا لشيء - إلا ما بلغه من بوهيمية المغنين وحظهم من ولع النساء، وما عهده في نفسه من رخامة الصوت وحالوته. وفقد صبر أحمد عاكف فأنذره بالكف عن الإنفاق عليه إذا لم يمسك بما هو آخر فيه من المجنون والاستهثار، وبلغ منه الغضب أحياناً أن شعر بأنه يقتله مقتاً، بل حقد عليه أخذه بأسباب حياة يعجز هو

عن الأخذ بأسبابها، ويتلهف حسرة على ألوان منها! وغم ذلك كله لم تنقطع صلات المودة بين الشقيقين بفضل موهب الأصغر، فكان إذا شد أخوه أرخي، وإذا قطب ابتسם، وإذا سب ولعن تصاحك وقبل يده أو لشم كنته، وإذا كور له قبضته مازحه في أدب ولين. ثم انتهت تلك الحياة بمعجزة، أجل انتهت بمعجزة والبكالوريوس، ما دعا أحمد على أن يقول متهمكا: «هكذا يحصل الطالب على الشهادة التي تفضل الحكومة حامليها على أمثالى؟!» بيد أنه تنفس الصعداء، وأيقن أن مهمته قد انتهت، ولم يعد يشغل نفسه - أكثر مما ينبغي - باستهتار الفتى بعد أن صار المسئول الأول عن حياة نفسه، فصفا بينهما الجو، وعاد الحب الذي لا تشبهه شائبة كما كانا من قبل - على عهد طفولة رشدي وصباه - بل رفت الكلفة بينهما فربما قص الفتى على شقيقه المحبوب ما يلقى من تجاذب الهوى والحب. وكانت له في الهوى أهواه، وفي العشق فنون فعرف الحب الأثم والحب الظاهر! وتقلب في مظان السوء كما جرى وراء الحسان في السبل والميادين. وضم «ألبومه» صورا لفتيات حسان وقعن عليها بخطوطهن القلقة اللطيفة تلك العبارة الغريبة: «إلى خطيبى العزيز رشدى!». ولم يكن يقصد العذارى بسوء، ولا كان يسيغ الغدر بيسير وسهولة. وحقيقة الحال أنه كان يقع سريعا فريسة لعواطفه المشبوهة، فليس أيسرا من أن يصير عاشقا، بل وعاشقا بصدق وإخلاص، ولكن في الساعة التي هو فيها، فلم يحل كذبا فقط، ولكنه حنى بأيمانه مرات!

فحدث كثيرا - في هيجان العاطفة - أن بذل وعده صادقا مخلصا فكانت خطوبة! ثم لم يدم ذلك إلا ريشما تهدأ العاطفة أو يجد النوى أو يحدث أمر ما فلم تعرف حياته الهدوء ولا السكينة ولا الراحة، وباتت مرعى خصيبا للشهوات والملاذ، فنالت منه حتى أعيته ونهكته،

فنهض وهزل وصار.. على حد تعبير والدته.. كالعود.. وكان أحمد.. الذي يحبه ويشفق عليه.. يرمي به عينين قلقتين ويقول له: «إرحم نفسك» فيجيبه ببرحه المأثور «يرحمنا الله وأياكم». منذ عام انتدبه البنك للعمل في فرع أسيوط فسر أهله.. على أسفهم وحزنهم.. وتعلقوا بأمل واحد أن يعتاد الفتى في المقام الجديد.. مقام غربته.. حياة معتدلة غير حياته الأولى تردد عليه بعض صحته، وتمسك عليه بعض نقوذه، ولذلك تلقوا خبر نقله إلى القاهرة بسرور ورجاء، ينطويان على إشراق.. .

## ١٦

ولم يبق من رمضان إلا ثلاثة أيام.. وأسف أحمد على اقتراب نهاية الشهر المكرم، وهل ينسى فضله ورحمته؟.. وهل ينسى موعد الأصيل منه حيث ولى عثار حظه ووحشة قلبه مع شمسه الغاربة؟ وبات يسائل نفسه ترى أين يكون الموعد غداً وماذا تخبي الأيام؟ أما الست دولت فنشطة هي والخادم ليEDA حجرة الشاب القادم من أسيوط.. وكانت الحجرة تلى حجرة الوالدين، وتطل نافذتها الوحيدة على الطريق المؤدى إلى خان الخليلي القديم.. كإحدى نافذتى حجرة أحمد.. فكانت الحجرة وغسلت ثم فرشت وباتت تنتظر القادم في أجمل صورة.. ثم أخذت المرأة أهبتها لخوض غمار معركة موسيقية.. لغزو ابنها أحمد.. كالمعتاد.. لمناسبة حلول عيد الفطر أو عيد الكعك كما يحلو لها أن تسميه، فانتهزت فرصة انفرادها بالرجل بعد الإفطار وراحت توعد رمضان بكلام طيب مترجمة على عهده وختمت كلامها قائلة:

ـ لم يبق إلا يومان، وبات الإنسان يشم رائحة الكعك الطيبة في الجو!

وكان يتوقع مثل ذاك الكلام، ويعلم أن المعركة آتية لا ريب فيها، وأنه مغلوب على أمره مهما قال وتشكى ، ولكنها لم يتبعود أن يضحي بقرش قبل أن يربع ضميره بالدفاع عنه فقال متذمرا :

- في مثل هذا الزمان لا يتشم الناس رائحة الكعك ، ولكنهم يسألون الله الستر ، وأن يسر لهم ضرورات الحياة . أما أنت يا نينة فلن تزالى متلهفة على الكماليات التافهة غير راحمة جيبي ، يا هوه إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء !  
فحديجته بنظرة تأنيب وإغراء ، ثم أرعدت حاجبيها المزججين في ابتسام وقالت :

- آه منك آه . لكم تغضب على أمك بغير سبب كأنها غير التي أحبتك ودللتك . أتدعى الفقر وأنت الخير والبركة؟ .. أتناسى أنه جاءت نوبتك لتذلل أمك؟ ولن أشق عليك يا زين الرجال فنحن نرضي بالقليل إكراما لك !  
وعلم أنها لن تيأس أبداً! ولن تنسى حتى تظفر بسؤالها فائلاً :  
.. أـف .. أـف ..

- أـف لعيد بغير كعك . أـنستقبل العيد بلا كعك وأـنت رجلنا؟!  
- الكـعـك فـرـحةـ الأـطـفالـ .

- والرجال والنساء ، والعـيدـ عـيدـ النـاسـ جـمـيعـاـ . أـلمـ تـرـ إـلـىـ أـبـيكـ كـيفـ  
جهـزـ نـفـسـهـ بـعـبـاءـ جـدـيـدـةـ يـصـلـىـ بـهـ العـيـدـ؟ .. وـكـيـفـ اـبـتـعـتـ أـنـتـ  
بدـلـةـ وـطـرـبـوـشـاـ وـحـذـاءـ مـبـارـكـةـ عـلـيـكـ باـسـمـ الرـحـمـنـ؟ .. أـمـاـ سـرـورـيـ  
أـنـاـ بـالـعـيـدـ فـفـيـ الـعـجـنـ وـالـنـقـشـ وـرـشـ السـكـرـ وـالـخـشـوـ بـالـعـجمـيـةـ .

\* \* \*

وفي الصباح الباكر من يوم الوقفة أخذ سنته إلى محطة مصر ليكون

في انتظار الشاب القادم . وكان الجور طبا ولكن محتمل البرودة فجلس على أريكة على «رصيف الصعيد» ولم يبق على قدوم القطار سوى دقائق . وتولاه ما يتولاه عادة من القلق إذا وجد بمحضر القطر المردة فرآها تنفس الدخان وتطلق الصفير الحاد . ولم يكن استقل قطاراً قط ولا غادر حدود القاهرة ، ولا هزته رغبة في يوم ما إلى الارتحال والسفر ، فتخيل السجن أخف على نفسه من الإقامة في بلد نازح . ولا شك أن جفوته من ملاقة العالم الخارجي هو الذي بث في روحه كراهية الأسفار ، ولكنه كان يفسر تلك الكراهية . كعادته في تفسير كل ماله شأن بسلوكه وطباعه . بأنها سجية المفكر الذي يحب المعنيات ويزهد في المحسوسات ، ألم يعش أبو العلاء رهين المحبسين ؟ وخفف من غلواء قلقه سروره بمقدم رشدي ، شقيقه وإبنته ! وما يتمنى من معونته على النهوض بالتبعات الملقاة على عاتقه وحده ، وما يحدّثه محضره من ألوان التسلية والبهجة . وما لبث أن رأى الرءوس تتطلع نحو الجنوب ، والنشاط والحركة يشملان المكان فنظر مع الناظرين فرأى القطار قدما متتمهلا ، وما عتم أن ذاع ضجيجه فاهتزت له جوانح الأرض ، وملا منظره الأعين . وأخذ يقترب رويداً رويداً وقد امتلأت نوافذ عرباته بالرءوس المتطلعة حتى وقف شاغلاً الرصيف الطويل وهرع نحوه المتظرون . وجرت عينا الكهل على النوافذ وهو يزخم المتدافعين حوله حتى ظفر بضارعه في مقدمة عربة من عربات الدرجة الثانية ، وكان الشاب القادم يعطي حقيتيه لأحد الحمالين ، فهتف أحمد باسمه ولوح له بيده وهو يدنو من العربة . فالتفت الشاب إليه ، ثم قفز إلى الأرض فصار تلقاء شقيقه . وسلم الأخوان بحرارة ، وشدّ أحمد على ذراع الشاب قائلا :

ـ حمد لله على السلامة . كيف حالك يا رجل ؟ !

فالشاب بسرور وقد تورد وجهه المتعب من وعاء السفر :

- الحمد لله يا أخى .. كيف أنت؟ .. كيف الوالدان؟

وسارا جنباً جنباً نحو الخارج يعلوهما البشر . كانا ذوى طول واحد ونحافة متشابهة ، ولا يخطئ الناظر إليهما أنهما شقيقان على ذبول الأكبر ونضارة الأصغر ، فملامحهما متقاربة . إلا أنها بلغت في وجه رشدي مداها من الحسن ، وحال بينها وبين ذلك في وجه الآخر إما انحراف أو تجهم أو إعياء . فلرشدي أيضاً ذاك الوجه الطويل النحيل ولكن ليس له خداً أحمداً الذابلان ، وسمرتة . وإن اعتورها شحوب . صافية يجري فيها ماء الشباب ، وعيناه مستطيلتان متبعدين إلا أن حدقتاهما أوسع ، ونظراتهما أفقذ ، والتماعهما خاطف يدل على حدة المزاج وروح الفكاهة والجسارة . سارا متكاثفين ، وسرعان ما شعرا بدبيب الرغبة في الكلام يتحرك في أعماقهما شأن المتقابلين بعد فراق طويل ، فلم يدرريا ماذا يتربكان وماذا يأخذان . ثم اهتدى الشاب إلى حديث فسأل أخيه :

- قبل كل شيء كيف حال نينة؟

- كما تحب أن تكون . وما زالت تجربى وراء رغبات الأطفال دون مبالاة بيارهاقى ، فتقدم يا بطل وخذ نصيبي !

- لم أنس نصيبي وأنا في أسيوط فابتعدت لها حلياً عاجية وطبقاً فاخرة وبخوراً طيفاً أرجو أن يوافق «أسيادها» (وضحك ضحكة عالية) .. وأبي؟ .. كيف حاله؟

- كعهدك به .. عبادة في البيت ، وزيارات لبيوت الله ، وهذا قد أدننا الظروف من سيدنا الحسين فطوبى له !

فقال رشدي مبتسمًا :

- لكم أدهشنى انتقالكم إلى الحسين !

وهنا بلغاً فناء المحطة ريثما استقللاً عربة ، وفقد الشاب الحمال أجنته

ثم سارت العربة سيرتها الشملة المريحة تخترق ميدان المحطة المترامي الأطراف فأجال الشاب فيه عينيه العسليتين الجميلتين، فتاختطفت السيارات والعربات والترامات والمارة ناظريه، فنقر بياصبعه على جبهته وقال:

- يكاد رأسى يدور، وكأنى أرى الترام والترو لأول مرة. أتذكر نادرة الريفى الذى جاء مصر لأول مرة فلما أشرف على هذا الميدان ربع وفزع، ثم تراجع إلى القطار وهو يقول متأسفاً: «جئت متأخراً فأهل البلد يرتحلون!».

فضحك أحمد الذى تلذه فكاهة الشاب ونوادره وبساطته. ومن حسن الحظ أن رشدى لم يكن «جامعاً» بالمعنى العميق. فلا يطرق موضوعات العلم ولا يذكر اصطلاحاته. وإنما يوجد فيه نوعاً من «أحمد راشد»، وأجمل من هذا أن الشاب كان من المخدوعين فى ثقافة أخيه فظنه عالماً متفقاً وآمن بعقله كما يؤمن به الآخر. أما أحمد فسر بيايان شقيقه به، ورأى فيه رمزاً حياً لإيمان الجامعة المصرية بعقربيته العصامية! قال الشاب بحماس:

- القاهرة نعمة من نعم الله، هى الدنيا والدين، الليل والنهار،  
الجحيم والجنة، والغرب والشرق. كان النقل معجزة!  
لا بد أنك ضفت ذرعاً بأسيوط!

- كما ينبغي أن أضيق ذرعاً بأى مكان غير القاهرة!  
فتفحصه بنظره ثاقبة وقال:

- السجن مفيدي لأمثالك، ومع ذلك فإنى لا أرى أى الراحة فى وجهك!

فابتسم الشاب عن أسنان بيضاء منتظمة وقال كالساخر:  
إذا اجتمع موظفان فى بلدة كانت مائدة القمار ثالثهما!

فتنهد أحمد قائلًا :

- أقضى أن تحرم من نعمة النوم أبداً !

- نعمة النوم؟! .. النوم في الحقيقة نعمة! .. إنه اختلاس جزء طويل  
لا يقوم بحال من حياتنا القصيرة!

- أنت لا تدرى ما تقول شيئاً!

- أنت يا أخي رجل حكيم، وأنا شاب مجنون، وهذه هي فلسفة  
المجانين.

إذن ستعود إلى ...

- ياذنه تعالى! .. قابلت في أسيوط رجلاً مولعاً بالضحك كان يقول  
إن غذاء الصحة الحقيقي هو المرح، فإذا صح ذلك فالعربدة من  
أنفس الفيتامينات!

- وإذا لم يصح؟!

- فلندع الله أن يكون صحيحاً. ولكن قل لي متى كنت سميناً؟!

- أنت تعلم أنى لا أكف عن التفكير والدراسة!

- هذا حق. وربما كانت النحافة - أيضاً - طبيعة في أسرتنا!  
- ووالدتك؟!

فضحك رشدي حتى بدت نواجذه، وخلع طريوشة عن شعر لامع  
ينشق وسطه عن مفرق أبيض جميل، وقال وقد ررق الخنان نبراته:

- ولكنها صناعة العطار! كم شاقتني رؤيتها! أما تزال تذكر الزار؟  
فقال أحمد بتائف:

- كفت عن ذكره صراحة، ولكنها ربما شكت - عرضاً - قسوة من  
حالها بينها وبينه!

- أمّا لطيفة كالملائكة لأنّها لا تغضب، ولا أكاد أذكرها إلا راضية أو  
ضاحكة.

فابتسم أحمد، واستطرد رشدى:  
- والعفاريت عقيدة وإن لم يتفق لى رؤية أحدها على طول عهدي  
بالطرق المقرفة في الهزيع الأخير من الليل.  
- الإنسان هو شر العفاريت.. انظر إلى الحرب!  
فضحك رشدى، وذكرته الحرب بأمر الانتقال من السكاكينى،  
قال:  
- هكذا أجبرنا الإنسان العفريت على هجر حيناً القديم، يا عجبا..  
ألا تعلم يا أخي بأنه لم يسبق لى أن رأيت خان الخليلى هذا!  
فنبه ذكر «خان الخليلى» في قلب الكهل سروراً عميقاً، وهز نفسه  
حناناً فقال:  
- ستراه صباح مساء!  
أكان الحال خطيراً لحد أو جب الهجرة؟  
نعم كان. وحسب كثيرون أن الغارات مستمرة بوحشية تودى  
بالقاهرة كما أودت بلندن وروتردام ووارسو، ولكن الله سلم.  
وكان الوالد في إعفاء خطير فلذنا بالغرار!  
فهز الشاب رأسه أسفًا، ولاحظ منه التفاقة إلى الطريق فرأى ميدان  
الملكة فريدة والعربة تعبر جناحه إلى شارع الأزهر! فدعا منظره مواعيد  
غرام لا تنسى، هفت على قلبه كما تنسمت ريح على جمرات ناعمة،  
فابتسمت أساريره وهزه الطرف. ثم استطرد متسائلاً:  
- وكيف وجدتم المقام الجديد؟  
لو طرح عليه هذا السؤال قبل لما وسعه الكلام ذماً وقدحاً، أما  
الآن!!  
- انتظر حتى تراه بنفسك يا رشدى، وستألفه ولو بعد حين.  
والجديران؟!

-أوه.. غالبيتهم من أهل البلد ولكن كثيرين من سكان العمارات  
الجديدة من طبقتنا!

-وهل وجدت فيه مكاناً صالحاً للتفكير والدراسة؟  
فسره السؤال، كما ينبغي أن يسره كل ما يذكره بأنه «مفكر».

وقال:  
-يقول المثل «البس لكل حال لبوسها» ولذلك تجدرني أن أفضل أن أمضي  
أول الليل في القهوة مع بعض الصحاب الجدد حتى إذا كف الراديو  
أو سكتت الضوضاء عدت إلى حجرة الدراسة!

فضحك رشدي قائلًا:

-أعرفت أخيراً الطريق إلى المقاهي؟

فقال الأخ مبتسماً:

-تلك مقتضيات المقام الجديد!

ووقفت العربية عند مدخل خان الخليلي، فغادرها الرجال وتبعهما  
الخوذى حاملاً الحقيقة، ولما وجا التيه قال أحمد:

-انتبه جيداً إلى ما يحيط به، واحفظ المسارب عن ظهر قلب وإلا  
ضللت في معارجها!

واقتربا من العمارة، ورأى أحمد أمه تطل من نافذة حجرته فلكرز  
شقيقه في ذراعه مشيراً إلى النافذة، فرفع الشاب رأسه فوجد أمه وقد  
عصبت رأسها بمنديل بنى وأخذت زيتها كأنما هي عروس تتصدى  
لعرি�սها، وما أن التقى عيناها حتى فتحت له ذراعيها لتدعوه  
إلى حضنها. وقبل فوات دقيقة كان بين ذراعيها البضتين في عنق  
حار.

وجلسوا جمِيعاً حول المائدة. وقد جاء أبوه أيضاً وثم الفتى ظاهر يده. وأخذوا بأسباب الحديث في شوق ولذة، فتكلمت الشاب عن أسيوط وأهلها والغرية والحنين إلى الأهل والوطن، وتكلمت الأمّة عن الغارة والمشاعل التي أسقطتها الطائرات، وحدثته أمّه عن جاراتها والمعلم نونو وأزواجه الأربع، ثم لاحظت المرأة أن وزنه لم يزد رطلاً واحداً، وانتقلت إلى الكعك فبشرته بأنه سيأكل كعكاً لذيداً لن يذوق مثله أحد في مصر جمِيعاً، ثم سارت أخيراً بين يديه إلى حجرته. وعندما خلى الشاب إلى نفسه لم يعد يحاول إخفاء استيائه فلاحت أماراته في وجهه الجميل، وقد انقبض صدره من درس الخطوة الأولى على عتبة خان الخليلي، فلما دخل الشقة هاله ضيقها، وأيقن أنه لن يطمئن له جانب في هذا المقام الجديد، وضاعف من سخطه أن أصحابه جمِيعاً في السكاكيين وما حوله وأنه سيرغم. بعد قضاء سهرته بينهم. على قطع طريق طويل إلى هذا الحى ثم التخبط في طرقاته الضيقة ليلاً وهو ثمل! ونفع من الغيظ، ووطن نفسه على حمل الله على العودة إلى بيتهما القديم أو إلى آخر قريب منه مهما كلفه ذلك. ثم فتح حقيبته واستخرج ما فيها، ومضى بهم صوان ملابسه مترغماً. كعادته. يأخذى أغنيات عبد الوهاب، وغير ملابسه ثم غادر الحجرة إلى الحمام. وهو يواجه الحجرة على الناحية الأخرى من الردهة الطويلة الضيقة. فاستحمل بالماء البارد ليزيل عن نفسه غبار السفر ونصبه، وعاد إلى حجرته أجمل منظرأ وأطيب نفساً، وأغلق الباب وراءه. ليعلو صوته بالغناء إذا أراد. وفتح النافذة ودهن شعره بالفزلين وسرحه بعنابة فائقة، وتعطر بعطر البنفسج

الأثير لديه فصار في أحسن حال. وانجذب نحو النافذة فدلل منها ليرى على أي منظر تطل. فرأى المر الضيق في أسفل يؤدى إلى خان الخليلي القديم، واعتراض مدى بصره فيما يواجه جناح العمارة الثاني، فضاق صدره وخال أنه رمى به إلى أعماق سجن. أين من هذه النافذة نافذة حجرته بشارع قمر المشرفة على ميدان السكاكيين حيث لا تغيب عن عين الناظر أسراب ظباء اليهود، وتنهد محزونا، ثم أجال بصره فيما حوله، فانجذب البصر نحو نافذة تقابل نافذته من علـ. على جناح العمارة المواجهة لهـ. افتتحت على منصراعيها، وظهر فيها وجه فتاة، وجه حسن تزيّنه عينان تقطران خفة وسداجة، فاللتقت عيناهما، وفي نظرة إنكار من ناحيتها ونظرة تفحصـ. تفحص الصائد لصيد اعترضهـ. من ناحيتهـ، ثم شق عليها تفحصه الثاقب فخفضت بصرها وتراجعت في استحياءـ. فابتسم ابتسامة رقيقة وانبسطت أسارير وجهه متاثراً بملاحة محياتها وتحير نظرتها العذبةـ، ولم يزايـل مكانه ولا حول عينيه عن النافذة متظراً عودتهاـ، لأنـه من الطبيعيـ. في نظرهـ. أنـ تحاول معاودة النظر إلى جارها الجديد ذـي النظر العارم بغير تردد ولا حياءـ. ولبث على حالهـ من النظر والانتظار تخدوهـ رغبة وصبر وعنادـ، حتى ظهر رأس الفتاة مرة أخرىـ في حذرـ، فاللتقت العينان خطـفاـ، ثم تراجعت الفتاةـ فيما يشبهـ الضجرـ، فضـحـكـ ضـحـكةـ خـافـتـةـ وـتـحـولـ عـنـ النـافـذـةـ مـبـتـسـماـ رـاضـياـ، ثم جـلـسـ عـلـىـ كـرـسـىـ مـكـتبـهـ الصـغـيرـ مـفـعـمـاـ «ـهـذـاـ أـوـلـ شـىـءـ حـسـنـ نـصـادـفـ فـىـ حـيـنـاـ الـبـائـسـ!ـ». وـتـفـكـرـ قـلـيلاـ وـهـوـ يـنـقـرـ بـأـصـابـعـهـ عـلـىـ مـكـتبـهـ وـقـالـ لـنـفـسـهـ: «ـهـىـ جـارـتـاـ بـغـيرـ شـكـ.. وـحـجـرـتـاـ جـارـةـ لـحـجـرـتـىـ!ـ»ـ.

واستدعيـ صورـتهاـ فأـقـرـ لهاـ بالـحـسـنـ وـالـخـفـةـ، وـسـرـ بهاـ سـرـورـ إـنـسانـ بشـئـ نـفـيسـ صـارـتـ مـلـكـيـتـهـ إـلـيـهـ. وـكـانـ فـيـ الـحـبـ ذـاـئـقـةـ بـنـفـسـهـ لـاـ حدـ لـهـ، ثـقـةـ مـرـجـعـهاـ السـيـرـ مـنـ فـوزـ إـلـىـ فـوزـ، وـبـطـانـتهاـ صـبـرـ طـوـيلـ وإـرـادـةـ لـاـ تـلـينـ وـلـيـاقـةـ فـيـ الطـبـعـ وـالـصـنـعـةـ، فـرـعـماـ صـبـرــ دونـ أـنـ يـكـفـ عـنـ الـإـلـاحـ

والسعى والمطاردة - يوما بعد يوم وشهرها بعد شهر وعاما - إن شئت - بعد عام حتى يظفر ببغيته . ومن أقواله المأثورة في الغزل « لا يجوز لمن يتصدى للحب أن يعرقل (جهاده) بالحياء أو بالجزع أو بالخوف ، إنما كرامتك إذا كنت في أثر امرأة . لا تغضب إذا عنتك ولا تحزن إذا سبتك ، فالتعنيف والسب من وقود الحب . وإذا ضربتك امرأة على خدك الأيسر فأدر لها خدك الأيمن وأنت السيد في النهاية ! ». وقد حمله الهوى يوما على مغازلة فتاة شموس ذات صون وإباء فلما أن طال به المطال دون لين من جانبها أو ميل قال لها بهدوء « أنا رذل سمع بارد لوح ، هيهات أن تقصيني نظرات التأديب أو كلمات التأنيب ، كلا ولا الضرب ولا الشرطة ، وسأرغمك على تكليمي اليوم أو غدا أو بعد عام أو بعد قرن ، فاختصرى الطريق ما دامت النهاية محتمة ! » هكذا كان . وقد جلس متفكرا يسائل نفسه : ترى أي نوع من الحسان هي ؟ .. أجسورة مستهترة يشق على المغرم ترويضها ؟ .. أم محنكة مجربة يستحيل اللعب بها ؟ .. أم ساذجة حية تجشم الصبر محبها ؟ .. وما من شك في أن خان الخليل يغدو محتملا لطيفا بفضل هذه الأنثى وشبيهاتها . ثم وضع راحتيه حول قذاله كمن ينوى الصلاة وغتم قائلًا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، نويت الحب ، والله المستعان ! » .

واعتزم الحب حقا ، ولكنه لم يدر له بخلد أي طعنة وجهها - باعتزامه إلى سعادة شقيقه الأكبر الذي يحبه ويجله .

## ١٨

وأسلم جسده للرقاد بعد ليلة شاقة . قضاهما في القطار . فلم يطرق النوم فيها جفنيه إلا لاما . واستيقظ من نومه العميق عند منتصف الرابعة مساء ، فجلس في الفراش متثائبا مفتاحا عينيه . لأول مرة منذ عام - على

نور القاهرة الضاحك . تذكر أمر نقله من أسيوط فطاب نفسها واستلذ الذكر . وكانت تغشى الحجرة سمرة قاتمة فنهض إلى النافذة وفتحها ، وذكر لتوه الفتاة السمراء الملحة ، فصعد بصره إلى نافذتها ، ولكنه وجدها مغلقة ، فغادر الحجرة إلى الخارج وكان أبوه نائما ، وأمه تنظر السمك تهيئه لقليله ، فوقف على عتبة المطبخ يحاذثها قليلا ، ثم مضى إلى حجرة أخيه . وكان الكهل واقفا وراء النافذة فلما شعر بمجيء أخيه تحول عنها بسرعة . ولم يدر الآخر كم كلفه ذلك . وتلقاه بابتسامة حلوة ، ثم جلسَا معا ، أَحْمَدَ عَلَى الشِّلَّةِ وَرَسْدِيَ عَلَى الْكَرْسِيِّ .

وتحادثا حديثا أخوين متحابين جمع بينهما اللقاء بعد أن كانا شتتين . ذكر رشدي ما علم قدما من رغبة شقيقه في التأليف فسألَهُ :

- ألم تشرع في التأليف يا أخي؟

فوخزه السؤال ، ولكنه لم يبع بالجواب فقال :

- رأسي متربع بالمعارف ، فأيتها أختار وأيها أدع ! .. والحقيقة أنني لو أردت التأليف فقى وسعى أن أملأ مكتبة كاملة؟ ولكن ما الداعى لمثل هذا الجهد؟ .. هل يستأهل هذا الشعب التأليف بمعناه الحق؟ .. هل يمكن أن يهضميه؟ .. ألا إنهم رعاع يقراءون رعاعا!

فقال رشدي وكان يؤمن بما يقول أخوه دائمًا :

- خسارة أن تضيع أفكارك القيمة!

فقال أَحْمَدَ وَكَانَ يَؤْمِنُ كَذَلِكَ بِمَا يَقُولُ ، كَأَنَّهُ نَسِيَ مَا يَدُورُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحْمَدَ رَاشِدَ مِنْ نقاش :

- أنا من السابقين لزمنهم ، فلا يرجى لى أى تفahم مع الناس ، فلكل شيء في الدنيا عيب حتى التعمق في العلم !

- ولكن هل ترضى يا أخي أن يضيع هذا الجهد العظيم بلا أثر ينتفع به  
الناس؟!

فسر الكهيل بكلامه سرورا عوضه عن ترك النافذة منذ حين ، وقال:

- من يعلم يا رشدى؟ .. فعسى أن أعدل عن استهانتى يوما ما!

ولبسا يتحدىان حتى انطلق آخر مدفوع إفطار ، ثم جمعتهم مائدة رمضان الأخيرة فقدمت صحاف السمك التقليدي وأكلوا هنئا وشربوا مريئا . وبعد شرب القهوة مباشرة ارتدى رشدى بدله وغادر البيت لا يلوى على شيء . وقد أراد أن يصل إلى كازينو غمرة في الوقت المناسب ، أو بمعنى آخر يبلغه قبل أن يتحقق أصحابه . وهم يجتمعون بالказينو كل مساء للشراب ولعب الورق - المائدة الخضراء ، وفي التعجيل حكمة لا تخفي على من كان مثله ، فليس من شأنه أن يجد مكانا حول المائدة فحسب ، ولكن اللاعبين - كذلك - إذا انهمكوا في اللعب لم يحفلوا باستقبال قادم ولو كان قدومه بعد فراق عام كامل ! .. وأجمل ما يوجدون به تحية مقتضبة وعيونهم لا تفارق الورق ، فإذا أضطروا إلى قطع اللعب لجاجلة قاسرة فويل للقادم من لعن ضمائرهم وسخط سرائهم . وفضلا عن هذا فالداخل على لاعبين - أثناء لعبهم - يعد يُمنا على الفائزين وشئما على الخاسرين ، فلن يخلو الحال قط من أن يجد فريقا يرمقه شزرا . وقد اكتسب بعض إخوانه - بسوء المصادفات سمعة سيئة ، منهم محام شاب يقول عنه الصحاب إنه إذا وجد بقربة من لاعبين خسروا جميعا ولم يربح أحد ! .. والقامرون شدیدو الحساسية ، كثيرا والوساوس ، يؤمنون بالطيرة ويعبدون الحظ . وقد استقل ترام الأزهر والذكرى ترجع به إلى زمان تلقينه مبادئ المقامرة . كان ذلك وهو في أولى سنى دراسته بكلية التجارة ، فدعى إلى اللعب على أنه تسليمة بريئة للفراغ . ثم رأى أن يراهنوا على ملاليم - لا لمطعم فى ربح - لأن الملليم عملة تافهة . ولكن لتاريخ الحماس وبعث الاهتمام ، وسرعان

ما صعدت الأرقام حتى أنت على ما في جيوبهم جميعاً، واستبدت بهم  
شهوة اللعب استبداداً ناساً من الوقت والواجب والمستقبل. فالقمار تسلية  
مخيفة ولذة أليمة وشهوة مجنونة. هو معابة الغيب، ومراودة الحظ،  
وطرق باب المجهول، ودغدغة غرائز الخوف والهجوم والتطلع  
والمجازفة والطمع. ثم إنه بعد ذلك صدى لذاك الشعور. شعور كفاحنا  
اليومي. المستمد مما نبذله من قوة وتقدير في معالجة الحياة، وما نخاطب  
به الأقدار المسيطرة علينا، وما نرجوه من الحظ والظروف الملائبة لنا،  
وما يتبعنا من الظرف والخسران؛ ولكنكم تمنى في أحابين كثيرة لو لم  
يفارق المائدة طوال عمره!.. ومن عجب أنه ما من مرة فصل عن المائدة.  
في ختام ليلة متعبة مرهقة. إلا وتنوى لو يتوب الله عليه، فإذا أزف الميعاد  
في اليوم الثاني هرع إلى الكازينو لا يلوى على شيء. وهكذا تمكّن الداء  
العضال منهم جميعاً وانقلب القاتلون للوقت ضحايا!.. وصار واحداً  
من المقامرين في عبادة الحظ والخضوع للطيرية، فربما قال لنفسه وهو يهم  
بفتح النافذة في الصباح: «إذا لقيت عدداً زوجياً من السابلة فالحظ معنـى  
أما إذا كان فردياً فاليوم خسارة!». أو ربما حادث نفسه وهو ماضٍ إلى  
مائدة الإفطار: «إذا وجد فولاً بسمن فاليلوم رابع أو فولاً بزيت فاليلوم  
خاسر!». وانقطع تيار الذكريات عندما غادر الترام، ثم استقل الترام  
رقم ١٠، فجرى به في الطرق المؤدية إلى حيـه القديـم، فاستشار حنانـه،  
ولما شارف السـكاكـينـى شـعـرـ بالـمـنـىـ وـ وجـدـ شـرـيفـ يـقـرـضـانـ فىـ شـعـافـ  
قلـبـهـ، وـغـادـرـ التـرامـ وـاتـجـهـ إـلـىـ الكـازـينـوـ، وـفـىـ المـكـانـ العـهـودـ منـ الحـدـيقـةـ  
رأـىـ الأـصـدقـاءـ. أوـ رـأـىـ أـشـبـاحـهـمـ لـأـنـ الإـظـلامـ كـانـ تـاماًـ. فأـدرـكـ أـنـهـ وـصـلـ  
فـىـ الـوقـتـ الـمـنـاسـبـ. قـبـلـ أـنـ يـذـهـبـواـ إـلـىـ بـهـوـ اللـعـبـ. وـأـخـذـ يـقـرـبـ مـنـهـمـ  
مبـتـسـماـ حـتـىـ صـارـ فـيـ وـسـطـهـمـ، فـعـرـفـوهـ وـصـاحـواـ مـعـاـ:

-رشدي عاكف؟.. أهلاً بقلب الأسد!

وسـرـ بـسـمـاعـ لـقـبـهـ العـزـيزـ. وـقـدـ عـرـفـ بـهـ بـيـنـ الـلـاعـبـينـ لـكـثـرةـ مـجـازـفـاتـهـ.

وتعانقوا عنقا حارا . وكانوا جميا . مثله . في متتصف العقد الثالث ، منهم من زامله في المدرسة أو من نشأ معه في السكاكيني ، وكانوا جميا . في المجون والإباحية والعربدة شخصا واحدا . قال أحدهم :

ـ أهكذا لا نراك إلا مع العيد وقد كنا لا نفترق ليل نهار !

ـ فقال رشدي ضاحكا وهو يتخذ مجلسه :

ـ ستراني منذ الليلة كل يوم ، أو منذ اليوم كل ليلة على الأصح !  
ـ فسألة آخر :

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ صدر أمر ببنقل إلى القاهرة ؟

ـ ولن ترجع إلى أسيوط ؟  
ـ لا .

ـ الله لا يرجعك !

ـ وسائله ثالث :

ـ وكيف سلوت عن المائدة عاما طويلا ؟ ! .. لكم أو حشتنا نقودك !  
ـ لأسيوط موائدها ، أما عن الأخرى فالسوق متبادل !  
ـ ودار الحديث عن أسيوط ، حتى سألهم بلهفة :  
ـ كيف تسهرون هذه الليلة ؟

ـ كالليالي التي سبقتها ، ستنتقل عما قريب إلى البهو الداخلى .

ـ هذا جميل ، ولكن ماذا تقولون في كأسى كونياك أو ثلاثة ؟  
ـ أو أربعة أو خمسة ؟  
ـ أو ستة أو سبعة ؟

ـ ولكن واحدا منهم قال مقتراحا :

ـ العيد غدا فلنؤجل السكر إلى غد !

- لا نؤجل عمل اليوم إلى غد!  
وأسأله سائلة :
- وكيف الفسق في أسيوط؟  
فقال رشدي :
- أما عن هذا فلا، هناك عفة بالإكراء؟
- الحال هنا بات قريبا من الريف، فجنود الحلفاء يتهمون اللحوم  
والفاكهة والنساء!
- وقال آخر :
- واليهوديات عرفن أخيرا مزايا اللغة الإنجليزية!
- تراهن يرفلن في الحرير فإذا اعترضت سبيل إحداهن رمتك بنظرة  
شزراء وقالت لك بلهجة اسكتلندية صميمة :
- Behave like a gentleman, please.
- الخادمات يا سيد رشدي، سقيا لعهودهن، هجرن المطابخ إلى  
الكريبيهات!
- كانت الحرب فرصة طيبة لاكتشاف مواهبهن الفنية!  
قال رشدي - كالمتحير - مبتسما :
- والعمل؟! .. هل نشرع في الزواج؟!
- إذا طالت الحرب، وازدادت الحال سوءا على سوء، فلن يبقى  
أعزب. غير أنا وأنت!
- يا إخوانى لقد ظلمتم بعض اليهوديات وبعض الخوادم، والحقيقة  
أنهن هالهن ما رأين من عدم اشتراك الأمة في الحرب فساهمن فى  
قضية الحلفاء بأعراضهن!
- وبذلك صارت المرأة أغلى من السماد!

-بل أعز من الفحم!

-وغدا إذا وضعت الحرب أوزارها، فماذا يفعلن؟!

-تصير المرأة أرخص من اليابانية!

-ويصير العشق بالجملة، فيصيد الشاب في ليلة واحدة ثلاثة نساء.

مثلاً - واحدة للقبل وأخرى للنجوى وثالثة للمداعبة إلخ.

-إلا إذا تدخلت الحكومة في سوقهن للمحافظة على الأسعار!

وضحك رشدي ضاحك إنسان حرم شهود هذا المجلس عاماً بغير  
نقصان. ولبوا يشربون ويتسامرون حتى وافت التاسعة فنهضوا إلى بهو  
اللعبة المحبوب. في تلك الليلة ربح رشدي مبلغاً كبيراً. أو هكذا يُعد  
بينهم. فبلغ ربحه في منتصف الثانية عشرة، ثلاثة جنيهات، وأضاف  
إليها ثلاثة قرشاً حين شارفت الثانية عشرة. وهو موعد انتهاء السهر. ثم  
انفضوا من حول المائدة. وبدأ اللعب فرحاً مسروراً، لأنه من تقرأ  
سرائرهم على صفحات وجوههم. وجعل يتربّص بصوت حنون  
كمالنجاجة، ولم يمسك عن الترجم حتى حين صاح به أحد الخاسرين:  
«أصمت يا أخي فصوتك يهيج أعصابي!». وعلى أثر انطلاقهم في  
الطريق اقترح أحدهم قائلاً:

ـ ما رأيكم في أن نكمل اللعبة في بيتنا؟

ـ فقالوا في صوت واحد:

ـ هو كذلك!

ـ فسأل المقترح رشدي قائلاً:

ـ وأنت؟

ـ فقال الشاب ضاحكاً:

ـ أوفق تحت شرط أن تطلقوا إلى حرية الغناء!

ـ ومضوا إلى بيت الداعي في شارع أبو خوذة، وهبوا المائدة،

واستأنفوا اللعب بنهم لا يشبع . ودفئت الحجرة المغلقة النوافذ  
بأنفاسهم ، والتهب الكحول بأفثدتهم ، فتصببوا عرقا ، وعندما دقت  
الساعة الثانية بعد منتصف الليل قال بعضهم :

- حسبكم لعبا وإلا قضينا نهار العيد الأول نائمين !

فكفوا عن اللعب ، وقد خسر رشدى ريحه جميعا وثلاثين قرشا  
آخر !

وقال له أحدهم متهدكا :

- كيف لم تتمتع بما منحناك من حزية الغناء !

وضحكوا جميما ، فدارى بكياسته غضبه وجراهم فى ضحكتهم .  
وودعهم عند ذاك ومضى إلى العباسية ، وقد انقطعت المواصلات  
جميما ، مدجلا من طريق الحسينية ، ووجد الطريق خاليا والسكن مطبا  
والظلم جاثما . وكان جسده ساخنا مبتلا بالعرق وحلقه يابسا ،  
فاصطدم ببرطوبة كثيفة يزفرها الخريف بغزاره - خاصة - في الهزيع الأخير  
من الليل . وما عتم أن سرت في أطرافه قشعريرة باردة ، ولسعت البرودة  
صدره ، وزكم منخره . وكانت ليلة السرار وقد احلولك غبشا ،  
وضاعف من غلظه انتشار سحاب دثر النجوم الساهرة ، فلاحت المنازل  
القديمة على جانبي الطريق كأشباح جالسة القرفصاء ذاهبة في سبات  
عمق . وجعل يحدث نفسه : أما كان الأجدر أن يعتذر عن عدم المضي  
معهم إلى البيت ؟ .. ولكن هيهات أن يلهم الحكمة يوما ما ! .. ييد أن  
أسفه كان ضعيفا كإرادته سواء بسواء ، فالمقامر المدمن يلقى الخسارة عادة  
بهدوء ولن يعدو الأمر في نظره التسليم في يومه وعقد الرجاء بعده .  
وتتبه إلى طول الطريق وقدارته فتأوه مغيبطا محنتا . ولما بلغ مدخل خان  
الخليلى ذكر وصف شقيقه للطريق « ثانى مر على اليمين وثالث باب على  
اليسار » ، وتلمس سبيله في الظلمة حتى انتهى إلى العمارة ، ومضى إلى

حجرته بأقدام خفيفة وأضاء المصباح، وما أن وقعت عيناه على النافذة المغلقة حتى تذكر النافذة التي تشرف عليها من عل، وجاد ثغره بأول ابتسامة صادقة منذ منتصف الليل، وطاف بخيالته الوجه الأسمر الملبح، فتأسى عن هموم الليلة جميماً، وتم قائلًا: «إذا كان سوء الحظ مؤلماً فحسنه غير منكور». وغير ملابسه، ودلل من مكتبه فاستخرج من أحد أدراجه كشكوك مذكراته، جلس ليدون خاطرة، قبل النوم.

## ١٩

وكان الأب أول المستيقظين، فتوضاً ثم غادر البيت حين الفجر ميمماً المسجد لصلاة العيد. فاستقبل أول نسمة من نسمات اليوم الجديد، ورأى الفجر الجميل يضج بجموع القاصدين، يخوضون أمواجه البنفسجية الحالمية مسبحين بحمد الله العلي.

وكان أحمد ثانى المستيقظين، فنهض نشيطاً حبوراً، وحلق ذقنه بعناية، وارتدى جلباباً جديداً وطاقية جديدة. ثم وافته أمه إلى حجرته وقد مشطت شعرها وأخذت زيتها، فقبل يدها، وقبل خدها، وقبلت خديه، ودعت المرأة للأسرة بالعمر المديد والسعادة والرفاهية، ومضيا معاً إلى الصالة وجلسا جنباً إلى جنب يتحديثان ويتراءان بقية الأسرة، من انطلق منها يبتغى مرضاه الله، ومن يغط في نومه غطيطاً. وعاد الأب بعد مشرق الشمس بقليل، فدخل عليهم يرفل في عباءته الفضفاضة، وما يزال يسمل ويحوقل. فمثلاً بين يديه، ولثمت الزوجة يده، وفعل أحمد مثلها. فهناهما الرجل بالعيد، وجلسوا جميعاً وهو يقول:

- كل عام وأنتم بخير . ربنا يجعله عيدا سعيدا لنا وللمسلمين كافة .

ورمى بصره النذابل إلى آخر حجرة في الشقة وقال كالمتهم :

- هل استيقظ الغلام أو أنه لم ينم بعد؟ !

فبادرت المرأة للدفاع - كعادتها - قائلة :

- تأخر الغلام أمس لأنه لقى إخوانه بعد فراق عام ، ولأنه عاد بطبيعة الحال ماشيا على قدميه .

على أنه لم يطل بهم الانتظار ، فانفتح باب الحجرة الأخيرة ومرق منه الشاب إلى الحمام الذي يقابلها ، وأقبل نحوهم - قبل مضي ربع ساعة - يخطر في بيجامته وقد سرح شعره الأسود ، وتعطر بشذا البنفسج ، وبدأ وجهه مائلا للشحوب إلا أنه يقطر منه حسن الشباب ورواؤه ، وتألق ثغره بابتسمة حلوة لا يضيء بعثتها في الأسرة إلا ثغر والدته الطروب . وتجاهل الشاب ما ينطوي عليه والده من الانتقاد فاقترب منه . وانحنى على يده ، وقبلها باحترام ، واثنى إلى والدته فقبل يدها وخدتها ، ثم لثم جبين شقيقه ، وبسطت الأم راحتها وقالت ضاحكة :

- عيديتني يا سادة وكل عام وأنتم بخير !

وقد تعود كل منهم أن يعطيها نصف جنيه عيدية . فكانت تفرح بعيديتها فرح الأطفال ، بل تنفقها كما ينفقها الأطفال ، فتبتاع ما تشتهي نفسها من الشيكولاتة والملابس .

ثم أحضرت فطار العيد . كعكا وحليبا . فأقبلوا عليه في غبطة . والصائم يشعر عادة بغرابة وإنكار وحدز وهو يتناول أول لقمة صباح العيد ، ثم يصيبه من طعامه جذلا مسرورا ، فليس أجمل وقعا في النفس من لحظة سعيدة بين واجب قامت بحقه وتصبرت على أدائه وبين تمنعها بلذة الجزاء وراحة الضمير . وتناولوا الكعك بأناملهم ، وقضموه بلذة حتى رسم دوائر من السكر حول أفواههم ، ثم أساغوه بالحليب ،

وما زالوا حتى شبعوا، وقالت الأم بلهجة أسيفة، تكلفتها ل تستو هبهم  
الثناء والاطراء:

- يا حسرتاه على أيام السلم حين السمن سمن والدقيق دقيق  
والكعك كعك !

وأدرك رشدي ما ترمي إليه والدته فقال بلباقة المعهودة:

- كعكتنا لذيد فلا يدع لنا حاجة للتحسر على سواه؟

وتفرقوا في الحجرات . وعاد أحمد عاكف إلى حجرته وكان قلب  
الكهل يخفق بروح الشباب النشوان ، بل كان كذلك منذ كاشفته بتحية  
الوداد ليلة القدر فلم تغب عن مخيلته قط صورة شبحها الرقيق وهي  
تجوب بإيماءة السلام ، ولا خمنت بعد ذلك العواطف التي بعثتها تلك  
الإيماءة الساحرة . فرح الكهل ، واستخفه الطرف ، وهيا له مرحة وطربه  
أنه سيترد شبابه الريان فيحضر غصنه الباهت ويجري فيه ماء الحياة  
الدافق ، ويسود فوداه ، وتغشى صلعته ملة فينانة ، وتتغير أهداب عينيه  
فتکحل أشفارهما المشربة بالاحمرار بيد أنه لم تقع عليها عيناه منذ تلك  
اللحظة السعيدة ، وتغييت عن موعدها المألف المحبوب ، فلم يشك في  
أنه الخجل الذي يتشجع بالظلمة ويفر من ضوء النهار ، فدرت أضلعه  
حناناً وعطفاً . ومن أدرى به منه بأهوال الخجل - وسر سروراً كبيراً إذ  
وجد أخيراً من يستتر عنه - هو - حياء ! .. ولكن هذا صباح العيد وقلبه  
يحدثه بأنها لن تبخل عليه بنظرة تسر الروح وتحمى الأمل .وها هو يرتفع  
رأسه فيرى الشرفة مفتوحة على مصراعيها والشمس تغمرها فيishi  
لاؤها بالوجه الذي أطل منها ، ولبث يتضرر مجيلاً بصره في الحى  
الفرحان بالعيد . وقد بدت روح العيد في كل شيء فتراها في الألوان  
وتسمعها في الجو وتشمها في الهواء ، وغداً ذلك التيه - الذي تحدده  
العمارات - يرقص فرحاً ويفنى طرياً ويبعث بحرارة اللذات . جرى  
الأطفال هنا وهناك بشبابهم المزركشة ذوات الألوان الفاقعة ، وتطايرت

وراءها الضفائر والشرائط ، وهتفت الزمارات ، وفرقعت قنابل السلام  
ولاقت الأفواه الحلوى والنعناع ، وملائـة الأنـاشـيد والأـغانـى الأـسـمـاعـ .  
واكتـظـتـ المـقاـمـىـ بـأـهـلـ المـدنـ وـالـرـيفـ ، فـازـدـهـتـ الـأـرـضـ عـيـداـ وـالـسـمـاءـ .  
وـتـصـفـحـتـ عـيـنـاهـ الـمـنـاظـرـ وـالـوـجـوهـ بـعـقـلـ غـائـبـ ، حـتـىـ جـوـزـىـ عـلـىـ صـبـرـهـ  
أـجـمـلـ الـجـزـاءـ ، فـرـأـىـ فـتـانـهـ تـبـرـزـ مـنـ بـابـ الشـرـفـةـ فـىـ أـبـهـىـ حـلـلـ ، فـصـعـدـ إـلـىـ  
وـجـهـهـاـ أـسـمـرـ الـجـمـيلـ نـاظـرـيـهـ . وـتـشـجـعـ عـلـىـ غـيـرـ مـأـلـوـفـهـ فـلـمـ يـطـرـقـ ،  
وـابـتـسـمـ وـفـؤـادـهـ يـغـلـىـ مـنـ شـدـةـ الـخـفـقـانـ ، وـأـحـنـىـ رـأـسـهـ إـحـنـاءـ خـفـيـفـةـ ، وـكـانـتـ  
تـرـنـوـ إـلـىـ يـعـيـنـهـاـ النـجـلـاوـيـنـ ، فـابـتـسـمـتـ اـبـتـسـامـةـ حـلـوـةـ رـدـاـ عـلـىـ تـحـيـيـتـهـ ، وـلـمـ  
تـحـولـ عـيـنـيهـاـ عـنـ عـيـنـهـ فـتـوـلـاـهـ الـاضـطـرـابـ وـالـحـيـاءـ وـأـوـشـكـ أـنـ يـفـقـدـ شـجـاعـتـهـ ،  
وـلـكـنـهاـ اـبـتـسـمـتـ إـلـىـ مـرـةـ أـخـرـىـ وـتـرـاجـعـتـ فـىـ خـفـةـ حـتـىـ اـخـتـفـتـ عـنـ  
نـاظـرـيـهـ ، فـتـنـهـدـ بـارـتـيـاحـ وـسـرـورـ . وـمـنـاهـ الـأـمـلـ أـنـ يـرـاـهـ مـرـةـ أـخـرـىـ فـيـفـوزـ  
بـابـتـسـامـةـ ثـالـثـةـ وـلـكـنـ خـادـمـاـ جـاءـ مـتـعـجـلـاـ وـأـغـلـقـ بـابـ الشـرـفـةـ ، فـشـعـرـ بـخـيـبةـ  
وـأـسـفـ . ثـمـ اـبـتـعـدـ عـنـ النـافـذـةـ ، وـكـانـتـ السـاعـةـ تـقـرـبـ مـنـ التـاسـعـةـ فـذـكـرـ أـنـهـ  
عـلـىـ مـوـعـدـ مـعـ الصـحـابـ فـىـ الزـهـرـةـ . صـارـ أـخـيـراـ مـنـ أـصـحـابـ الـمـauـيـدـ فـىـ  
الـقـهـوـاتـ . فـارـتـدـىـ مـلـابـسـهـ الـجـديـدةـ . الـبـدـلـةـ وـالـطـرـيوـشـ وـالـحـذـاءـ وـالـقـمـيـصـ .  
وـنـظـرـ إـلـىـ صـورـتـهـ فـىـ المـرـآـةـ فـأـعـجـبـتـهـ جـدـتـهـ وـأـنـاقـتـهـ ، وـذـكـرـ أـيـامـ شـبـابـهـ الـغـابـرـ .  
قـبـلـ أـنـ يـعـبـسـ لـهـ الـزـمـانـ . حـيـنـ عـرـفـ دـهـرـاـ بـالـأـنـاقـةـ ! .. وـغـادـرـ الـبـيـتـ جـذـلاـ  
طـرـوـبـاـ ، فـسـارـ مـتـمـهـلـاـ ثـمـلاـ بـخـمـرـ الـأـمـلـ وـالـأـحـلـامـ ، يـسـائـلـ نـفـسـهـ فـيـ حـيـرةـ  
الـفـرـحـانـ : «ـوـمـاـذـاـ بـعـدـ الـابـتسـامـ؟ .. مـاـذـاـ بـعـدـ يـادـهـ؟ !» .

## ٢٠

وـرـجـعـ رـشـدـىـ إـلـىـ حـجـرـتـهـ ، فـأـشـعلـ سـيـجـارـةـ وـرـاحـ يـدـخـنـهـاـ وـرـاءـ  
الـنـافـذـةـ مـصـوـبـاـ بـصـرـهـ نـحـوـ النـافـذـةـ الـمـرـمـوـقـةـ ، مـتـوقـعـاـ بـيـنـ آـنـ وـآـخـرـ أـنـ يـلـمـعـ

جارته الحسناء . وصدقه الأمل فلاحت الفتاة في النافذة بفستانها الجديـد  
وعلى كتفيها معطف رمادي ، إلا أنها تراجعت في غير إبطاء كأنما تفرـغ  
من نظرته الثاقبة . وللحـ الشاب المعطف فخطر له أنها متـهـيـة للخـروـج ،  
فدلـ إلى المشـجب بغير ترـدد وأخذـ في ارتـداء ملـابـسـه . وغـادرـ الـبيـت  
بعد دقـائق مـعـدوـدـات وـسـاءـلـ نـفـسـهـ أـينـ يـحـسـنـ أنـ يـتـظـرـ ؟ .. وـذـكـرـ لـتوـهـ  
الـمـرـ الضـيقـ المـوـصـلـ بـالـسـكـةـ الـجـديـدـةـ ، وـسـارـ نحوـهـ مـسـرعاـ ، ثـمـ توـقـفـ ،  
عـنـدـ مـوـضـعـ اـتـصالـهـ بـالـطـرـيقـ ، عـلـىـ الطـوارـ . وـكانـ الشـارـعـ يـضـطـرـبـ  
بـتـيـارـاتـ السـابـلـةـ وـقـدـ انـحدـرـتـ منـ الـدـرـاسـةـ وـالـعـربـاـتـ الـكـارـوـ غـاصـةـ  
بـالـغـلـمـانـ وـالـبـنـاتـ يـغـنـونـ وـيرـقصـونـ وـيـطـبـلـونـ ، فـلـبـثـ فـيـ مـكـانـهـ عـيـنـاـ عـلـىـ  
الـشـارـعـ المـائـجـ تـنـظـرـ فـيـ اـبـتسـامـ وـعـيـنـاـ عـلـىـ الـمـرـ تـرـقـبـ فـيـ رـجـاءـ . وـكانـ  
خـبـيرـاـ بـأـمـثـالـ ذـاكـ المـوقـفـ فـلـمـ يـساـورـهـ الجـزـعـ ، بـيدـ أـنـ الـحـالـ لـمـ يـقـضـيـهـ  
صـبـراـ طـوـيـلاـ فـمـاـ عـتـمـ أـنـ رـأـىـ فـتـاتـهـ تـبـدوـ فـيـ أـوـلـ الـمـرـ يـسـيرـ لـصـقـهاـ غـلامـ  
عـظـيمـ الشـبـهـ بـهـاـ . فـتـشـاغـلـ عـنـ النـظـرـ إـلـيـهـاـ بـإـشـعالـ سـيـجـارـةـ وـهـوـ لـاـ يـشـكـ  
فـيـ أـنـهـ تـرـاهـ ، وـلـكـنـ هـلـ أـدـرـكـتـ يـاـ تـرـىـ أـنـهـ يـتـظـرـهـ ؟ .. ثـمـ تـبـعـهـ عـنـ بـعـدـ  
قـرـيبـ فـيـ طـرـيقـهاـ إـلـىـ الـأـزـهـرـ فـرـآـهـ جـمـلةـ لـأـوـلـ مـرـةـ وـبـدـتـ فـيـ السـادـسـةـ  
عـشـرـةـ عـلـىـ أـكـبـرـ تـقـدـيرـ ، مـتوـسـطـةـ الـقـوـامـ رـشـيقـةـ الـلـفـتـاتـ ، بـيدـ أـنـ وـجـهـهاـ  
أـجـمـلـ مـاـ فـيـهاـ حـقاـ ، وـأـجـمـلـ مـاـ فـيـ وـجـهـهاـ عـيـنـاـهـ النـجـلـاـوـانـ . وـلـمـ  
يـسـتـطـعـ أـنـ يـنـعـمـ النـظـرـ لـأـنـهـ بـلـغـتـ الـمـحـطةـ مـسـرـعـةـ وـصـعـدـتـ إـلـىـ حـجـرـةـ  
الـسـيـدـاتـ وـمـعـهـاـ أـخـوـهـاـ . عـلـىـ الـأـرـجـعـ . فـاستـقـلـ التـرـامـ وـرـاءـ الـحـجـرـةـ  
مـباـشـرـةـ لـيـتـمـكـنـ مـنـ رـصـدـ نـزـولـهـاـ ، وـتـحـركـ التـرـامـ وـهـوـ لـاـ يـدـرـيـ أـيـنـ تـنـتـهـيـ  
بـهـ المـطـارـدةـ ! .. وـجـعـلـ يـحـدـثـ نـفـسـهـ : شـابـةـ صـغـيرـةـ ، وـجـهـهاـ ٧ـ ، عـلـىـ  
١٠ـ وـجـسـمـهاـ ٥ـ ، عـلـىـ ٦ـ ، سـنـلـعـمـ بـعـدـ حـيـنـ أـيـسـيرـةـ هـىـ أـمـ عـسـيرـةـ ،  
وـهـلـ تـلـهـوـ بـالـحـبـ أـمـ تـحـلـمـ بـخـاتـمـ الـخـطـوـيـةـ ؟ .. سـنـلـعـمـ كـلـ شـئـ فـيـ حـيـنـهـ ،  
وـلـكـنـهـ إـذـاـ كـانـتـ مـنـ الـحـالـاتـ بـالـخـاتـمـ فـسـيـغـدـوـ الـأـمـرـ شـاقـاـ وـرـبـاـ مـضـجـراـ  
أـيـضاـ ، عـلـىـ أـنـ يـنـبـغـيـ أـنـ نـرـكـ اـهـتـمـاـنـاـ فـيـ شـئـ وـاحـدـ قـبـلـ أـيـ شـئـ وـهـوـ

أن تستدرجها إلى الكلام ولنر ما يكون! .. ووصل الترام إلى ميدان الملكة فريدة فغادروه جميعاً هى وأخوها أولاً - ثم هو ولاحظ منها التفاة على الطوار فرأته على بعد ذراع منها يدّيم إليها نظراته الجسورة الثاقبة، فتحولت عنه وجهها، وتظاهرت بالانهك في محادثة الغلام، ولم يخالجه شك هذه المرة في أنها أدركت أنه يتبعها عن عمد. ثم رأهما يستقلان أول ترام قادم - وكان ترام الجيزة - فصعد إليه بغير تردد متسائلاً: «ترى هل يقصدان إلى قريب في الجيزة لي بعيداً عليه؟!». وقرر في تلك اللحظة أن يهبا اليوم جميعاً عن طيب خاطر ولكنهما غادراً المركبة عند محطة عماد الدين، فغادرها مسروراً وقد أيقن أنهما ذاهبان إلى سينما. وعبروا الطريق إلى شارع عماد الدين، الاثنين أولاً وهو في أثرهما متحفزاً لما يشبه الابتسام أو لتضمير نظرته ما يريد من المعانى إذا هي التفت وراءها، ولكنها مضت لا تلوي على شيء ممسكة بيد الغلام الذي هرول ليسير في حذائها، وجعل لا يحول عينيه عن ظهرها وساقيها، ويتين حال مشيتها وموضع قد미ها، فوجد من السرور ببرؤيتها من وراء مثلكما وجد لرؤيتها من أمام، وأعطى صورتها الخلفية جملة ٨ على ١٠ ، وتنهد عند ذلك متذكراً وجهاً أبي الحسن أن تنسى وقال لنفسه: «حقاً فشى الحسن في مصر هذا الزمان الحديث». ولما بلغوا ريتز التفت وراءها فرأته عينيه محدقتين بها فاستردت عينيها بسرعة. وفوجيء فلم يسعه أن يضمن نظرته شيئاً - وحدث خطأها في اتجاه استوديو مصر، وأسف على ما فاته من حديث العيون ولكنه سر بالسينما التي اختارتها فتاته - لأنها كانت تعرض فيلم دنانير - وأدرك أن هذه المطاردة أتاحت له لذتين عزيزتين. وأراد أن يجلس جنبها في الصالة فعمل على أن يقف وراءها مباشرة في الصف المتمدد أمام شباك التذاكر ليتمكن من اختيار مقعد لصق مقعدها، بينما تنحى الغلام جانبها يتظر متفرجاً على الصور، وصار منها على قيد خطوة. فحال أنفاسه

تمس ضفيرتها . فاستثار قربها من صدره إحساساً شبيهاً بما تستثيره رائحة زكية عميقة ، وتتبع أغلتها وهي تختار مقعدين لها ولشقيقها على رسم الصالة ، فرأى إلى يمين الكرسيين مقعداً شاغراً وإلى يسارهما ثلاثة ، وتساءل ترى إلى أي ناحية تجلس الفتاة؟ .. وأجرى في سره على الناحيتين القرعة المعروفة : « حطة يا بطة يا ذقن القطة عمي حسن .. إلخ ». فرست « حداه » على المقعد الأيمن فاختاره فيما يشبه الاطمئنان . وتحول عن الشباك وأجال بصره فيما حوله فلم يجد للفتاة ولا لشقيقها أثراً ، بيد أنه لم يتزعج فالذكرة في يده ، وهي خليقة بأن توصله إليها مهما ضل عنها ، ولا يدري كيف ذكره هذا - قوة الذكرة - بعقد الزواج وقداسته وسحره فاهتز صدره الرقيق ، ودخل السينما منفعلًا . ومضى به الدليل إلى مقعده وهو يرجو أن تكون « حداه » قد صدقته الهدایة ، ولكنه رأى الغلام يجلس بينه وبين اخته! .. ورأته الفتاة قادماً فطرفت عيناهما ارتباكاً وتجنبت أن تحولهما إلى جهته! .. وجلس الشاب في ثقة وسرور ، واسترق إليها النظر مرة ومرة فوجدها في المرتين شاخصة إلى ما أمامها ، واستشف من تورد خدتها وارتباك هيئتها ما يخامرها من حياء واضطراب ، فأشفق عليها ، ورأى عن حكمة لا يشق عليها ، فجعل يتسلل بإجالة بصره بين البناور والألواج والمقاعد مزجياً تحنيات المودة إلى الصدور والنحور والثغور والمعاصم ولم يطل به المطال فدق الجرس ثم أطفئت الأنوار ، وانحسرت الشاشة عن دنيا الأحلام . وطاب له المجلس في الظلمة على كثب من الفتاة التي أضمر لها غزلًا . وإن لم يخفق لها فؤاده بعاطفة بعد . حتى غرد الصوت الإلهي بأغنية النبع « طاب النسيم العليل » ، فغفل عن الوجود . وكان يحب الغناء حباً خيل إليه يوماً أنه خلق ليكون موسيقياً ، فتسلسل الفيلم وهو هائم في نغمة روحية عالية . وانتهى العرض وأضيئت الأنوار ونهض النظارة . والتقت

رشدى نحو الفتاة فرأها واقفة مغمضة العينين تفادي لتأثير النور الباهر  
بعد طول الاستسلام للظلمة، فانتظر حتى فتحتھما على نظره  
العارمة! .. وعن خارج السينما بلحظة أصابع يديها فعلم أنها ليست  
مخطوبة، وابتسم لذلك ابتسامة ارتياح. ثم تعقبها في العودة بنفس  
العناد الذي تعقبها به في الذهاب، إلا أنه تناقل عن متابعتها في الأزهر  
كيلا يشى بسره لأحد من أهل حيه الجديد. وعاد إلى البيت فوجد  
الأسرة في انتظاره للغداء. وما عتمت أن دعتهم أمهم قائلة بلهجتها  
المرحة:

ـ هلموا إلى طاجن العيد.

## ٢١

وعادت نوال إلى البيت وقد بلغ منها التأثر، راحت تسائل نفسها ما  
لهذا الفتى الجسور لا يكف عن مطاردتها مذ وقعت عليها عيناه غداة  
الوقفة؟

جاوزت نوال في ذاك الوقت السادسة عشرة بقليل. وكانت ذات  
حسن يستحق الإعجاب. وتحلى حسنها بميزتين لا يستهان بهما:  
السذاجة والخفة ولكن أية سذاجة، وأية خفة؟ .. السذاجة التي توحى  
بها بساطة الجمال، والتي تطالعها في الحدقة الصافية الواسعةـ في غير  
مبالغـ والنظر المستقيمة، بيد أنها ليست سذاجة الغفلة أو البلاهة.  
وخفة تنبثق من أناقة الملامح ولطف الروح، فلا هي إلى الطيش  
والرعونة تتنسب، ولا من حدة الذكاء وبراعته تستمدـ وهي سمراءـ،  
وكثيراً ما تقول أمها إن السمرة روح الجمال ومصدر الخفة، ولكنها  
كانت في الحقيقة من عشاق اللون الأبيض. ولذلك أخذت تعالج نحافة

ابنتها بعقار السمن لاعتقادها بأن السمن يكسب البشرة إشراقاً . وقد تقدمت الفتاة في دراستها الثانوية تقدماً يبشر بالنجاح ، ولكنها انضمت في الواقع إلى قافلة العلم ، وليس العلم ما تنشد ، ولا المدرسة بالماوى الذي يهفو إليه فؤادها ، فأحلامها لا تفارق البيت ، ولن تزال تعد أمها أستاذتها الأولى تتلقى عنها فنون الحياة المنزلية من طهي وحياكة وتطريز ، وما رأت في العلم يوماً إلا زينة تحلى بها أنوثتها وحيلة تغلي من مهرها . فتركت حياتها في هدف واحد : القلب أو البيت أو الزواج . أليست أول دعاء دعيت به «العروس»! .. وأنه لأجمل دعاء ، وأنها للتلهف على أن تكونه ، وترقب حظها في صبر ورجاء . ولذلك قدست الزواج قبل أهليتها له بدهر طويل ، وأحببت «الرجل» وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة . فكانت ثمرة ناضجة دائنة القطوف ترصد من يجنيها . وكان الأستاذ أحمد راشد المحامي أول رجل - من غير محارمها - يتصل بها عن كثب لإعطائهما الدروس . وتلقته منذ أول مقابلة باستحياء ، ورمقته بعين ملؤها التطلع والرجاء ، فلم يتمثل لعينيها «أستاذًا» بقدر ما تمثل لهما رجلاً! .. ولأن قلبها وأوشكت الحياة تنبض به . ييد أن الشاب المحامي كان صارماً رزيناً أكثر مما ينبغي ، وعجزت كل العجز عن أن تقرأ عواطفه الحقيقية وراء عيناته السوداء ، ولما تعقب تهاونها بالتأنيب بدا لعينيها مكفهراً مخيفاً فجفلت منه وخاب رجاوها فيه . وكثيراً ما كان يحدثنها بكلام لا تفقه له معنى ولا تجد له طعمًا مثل قوله لها مرة : «يخيل إلى أنك لا تحيين العلم كما يجب وإن لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فأحييه كما تحيين الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الإنسان ، وبينما ينبعى أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذى جسمك بالطعام ويتمثله . أين الشوق إلى أسرار الوجود؟ .. أين اللهفة على المعرفة؟ .. لا يجوز أن يتخلَّف قلب المرأة عن قلب الرجل في طريق العرفان والمجهول .. ». وفي مرة أخرى سألها : علام نوبت بعد

البكالوريا؟.. أما عرفت بعد العلم الذى ترغبين فى دراسته فى الجامعة؟.. وهالتها كلمة «الجامعة». أيمتد بها عهد الدراسة حتى الجامعة؟!.. وأجابته باقتضاب: «لا أدري». فقال لها الشاب متعضاً: «أما زلت عند موقفك السلبى من العلم؟!». ولم تفطن إلى أنه يريد أن يصوغها على المثال الذى يحب فحسبت أنه يحتقرها ويزدرىها فاشتدت منه جفولاً.

ثم جاء أحمد عاكف الجديد. وقالت الأنباء إنه أعزب. وشعرت بمزيد الغبطة والسرور أن عينيه تسترقان إليها النظر فتحرك قلبها نحوه كما تحرك الراحتان نحو مجمرة في ليلة شديدة البرد والزمهرير. وقالت لنفسها: إنه رجل جاوز حدود الشباب. ولكنه ما يزال في عنفوان الكهولة. ولا بد أن يكون موظفاً محترماً لأنه غالباً ما يصير الموظف - في مثل عمره - محترماً وأيما كان فلن يسعها أن تغضى عن نظراته الحبيبة التي يرسلها إليها في أدب وتردد، ولا أن تجد لذلك من معنى غير الوداد، وإنما فيهم يثابر على الانتظار والنظر أصيلاً بعد أصيل؟!.. على أنها تسألت في حيرة: لماذا لا يخطو خطوة جديدة؟.. هلا ابتسם إليها؟.. هلا أوّما بتحية؟!.. ترى هل يعقل الحباء الرجال كما يعقل النساء؟!.. وإذا كان هذا شأنه فلماذا لا يخاطب أباها في الأمر؟.. أو لماذا لا يكلف أمه بمهمة خطبتها؟!.. وكانت نوال حية وفي حاجة إلى من يطاردها، فأوقعها حظها على كهل في أشد الحاجة إلى من تطارده!.. إلا أن شجاعتها لم تخنها - خاصة بعد أن يئست من شجاعته. فبدأته بالتحية من شرفتها وتلقت رده الجميل، وحدثها قلبها بأن الأمل المرموق قد بات قريب المنال.

ولدى الضحى من نهار الوقفة طالعها وجه جديد من نفس الشقة، بل من الحجرة التى تواجه حجرة نومها، وأدركت من النظرة الأولى أن الشاب الجديد أخوه صاحبها الكهل، ولكن أين كان قبل اليوم؟.. وما

باليه يرميها بتلك النظرة القوية الجسورة التي دعت الدم من جميع أطرافها إلى خديها وحملتها على الفرار؟! .. ياله من شاب نصير جم المحاسن جذاب المنظر! .. ويالها من نظرة ثاقبة ترعش القلب! .. ولكن ياترى لهذا شأنه مع كل حسناء؟ .. أم جذبه إلى وجهها شيء لا عهد له به؟ .. وهل يقيم في هذه الحجرة فيراها صباح مساء أم يختفي فجأة كما ظهر فجأة.. وقال لها قلبها إن مثل هذا الشاب خير من ذاك الكهل بغير جدال، ولكن الكهل لم يعد غريبا، فبينها وبينه تحية متبادلة، وهو المفضل إذا طلب يدها، وما ينبغي أن تنسى أن بينهما عهدا صامتا لا يلبث أن يصيغ - إن شاء الله - زمرا وطبلاؤ وثريات لألاءة ورملاء فاقعا يسر الناظرين؛ وفي صباح العيد ارتدت ملابسها الجديدة، ودعاهما قلبها إلى الظهور بالشرفة ليراها الكهل في أبهى حال وأجمل منظر، ووجدته في النافذة في أحسن صورة ممكنة، فذكرها جلبابه وطاقيته بأبيها، وتبدلا التحية، ثم عادت إلى حجرتها، ونازعتها مشاعرها إلى إلقاء نظرة على النافذة الأخرى، فوجدت الشاب الجميل وكأنه يتظاهر، فترجعت أمام نظراته العارمة، وحسبت أنه لن يتخطى بجسарته نافذتها، فما راعها إلا أن تجده بانتظارها في السكة الجديدة! .. وتساءلت في الترام ترى هل تبعها أم أنه وهم ما رأت؟ .. ولكنها علمت بعد حين أنه يتعقبها عامدا، وأنه من لا ينتنون عن غاية، ومن عجب أنه نسي وجودها في السينما بترينيم أم كلثوم! .. أما هي فلبيت تشعر بوجوده على كثب منها طوال الوقت! .. وعادت إلى البيت ثملة بسرور لا عهد لقلبها بمثله وقالت لنفسها ضاحكة: «لو أن جميع الشبان في مثل عناده ما بقيت فتاة واحدة بغير زواج؟». ووجدت قلبها يؤنبها على تسرعها ببذل التحية للأخر، ولكن هل كانت تعلم الغيب؟ .. وقلق ضميرها فلم تجد لطاجن العيد ولا لسمكه طعما!

\* \* \*

وغادرت الشقة عصراً بقصد زيارة حرم سيد أفندي عارف، وخطر لها أن تصعد إلى السطح - قبل القيام بالزيارة - لتجول جولة في مسرحة الطرف بين المآذن والقباب، وقد صار السطح نزهتها بعد أن تعذر عليها مشاركة البناء لعبئن في الطرقات. ودارت مع السور على مهلة متصفحة المناظر مقلبة وجهها في الآفاق، وشعرت فجأة بداع يدعوها إلى النظر نحو مدخل السطح، فماراعها إلا أن تراه هنالك يملاً طوله فراغ الباب وينظر نحوها في هدوء وفي عينيه الجميلتين شبه ابتسام! .. واصطرب قلبها لمرأه اضطرابة عنيفة زلزلت صدرها الصغير، وشعرت بخوف وقلق، ثم استعادت رباطة جأشها موقنة بأن الموقف أخرج من أن تلقاء بالحياء فحسب، وتعلقت عيناها وهما تنظران إليه بالإنكار والذهول.

٢٢

ثم حولت عن عينيها، وولته ظهرها، وألقت ببصرها إلى الأفق البعيد دون أن ترى شيئاً، وقال لها عقلها إنه ينبغي أن تزيل المكان إذا أرادت ولكنها لم تحرك ساكناً، وأهاب بها شعور باطنى بأن تتجاهل وجوده، وبالألا تتعجل بذهابها، فلبيث هي لا تريم، وتولها إحساس بالحياء والقلق. وتنهد رشدى ارتياحاً لمارأه من تفضيلها البقاء على الرحيل، وقال لنفسه جذلاً: «أصابت سن الشخص مرماها، ولكن ينبغي معالجة البلطية بحكمة ومهارة!». وكان علم بصعودها إلى السطح اتفاقاً، إذ كان ينظر إلى نافذة حجرتها المغلقة بأسف فلاحت منه التفاة على سور السطح، فصادف ذلك مرورها به وكان انتهى من ارتداء ملابسه استعداداً للخروج إلى سهرته، فحملته جسارتة وحسن انتهازه

للفرص إلى الصعود إلى السطح من فوره، ولما اطمأن إلى بقائهما تفحص المكان بهدوء حتى أدرك خلوه، ثم سار متمهلاً إلى موقف قريب منها، ولم تكن تخونه الجرأة الجنونية، ولكنه آثر معها الآناة لما عهده بها من حياء، ورأى على السور - في موقع وسط بينه وبينها - عموداً خشبياً شدَّ إليه حبل الغسيل، ووَقَعَتْ عليه يَامَةٌ، فرُفِعَ رأسه إلى اليمامة وقال بصوت خافت وهو يلحوظ الفتاة بطرفه: «مساء الخير يا يَامَتِي!». ورأَاهَا تلحوظ اليمامة بطرف خفي فابتسم واستدرك: «ما أجمل سمرتك! .. السمرة حلية الجمال وروح الخفة، هلا سمعت بأغنية السمرة: يا اسمر اللون حياتي الأسمرياني؟! .. وأنصت الفتاة إليه - وإن تظاهرت بعدم المبالاة - بأذنين مرهفتين، وطاب لها صوته، فابتسمت ابتسامة باطنية لم ترسمها شفاتها، ثم غلبتها الحياء فابتعدت خطوتين وأشاحت عنه بوجهها، وجعل هو يقول محدثاً اليمامة: «كيف لا تردين تحبتي؟ .. كيف تعرضين عنِّي؟ .. بل كيف اندرست القسوة إلى هذا الحسن الرقيق؟!». وتساءلت أمَا يَنْبَغِي أن تَمْضِيَ إِلَى حال سبيلها؟ .. ألا تخاف أن يصعد الباب أو بعض السكان إلى السطح فيرييه من موقفهما ما يرييه؟ .. أبها مس يشد قدميها إلى الأرض؟! .. واستدرك رشدي قائلاً: «ألا تعلمين يا يَامَةَ أني جارك؟ .. وأن السماء الرحيمة لن تستطيع أن تغيبك بعد اليوم عنِّي؟ .. وأنى سأكون دائماً حيث تكونين!». وعطفت نوال رأسها قليلاً كأنما لترى اليمامة فوجدها قد طارت! .. وألفته ينظر نحوها بجسارة المعهودة، ولم تعد تجدى مخاطبة اليمامة، فقال لها بهدوء:

- سعيدة ..

فأشاحت عنه وجهها مرة أخرى، وحركت قدميها ببطء شديد نحو الباب، فدنا منها جزاً و قال:

- ألا تردين على؟

فلم تنبس بكلمة وقد تورد خداتها واحتلنج جفنها، فاقترب منها أكثر من قبل وقال:  
ـ أما تجودين بكلمة واحدة؟ .. كلمة واحدة، لكن عذلا إن شئت،  
بل لتكن نهرا!

ولكنها حثت خطها فهم باعتراض سبيلها فقالت له بحده مصطنعة:

ـ إليك عن سبيلي! .. واحجلتاه لسلوك الجار!  
ـ هل يعيي الجار أن يتودد إلى جازته الحسنة!  
ـ أجل.

ـ وإذا أجبره حسنها على أن يتودد إليها فمن الملوم؟  
ـ لا تستدرجنى إلى الكلام، وإياك وأن تعترض سبيلي.  
ولكنه اعتراض سبيلها غير مبال تحذيرها، فتملكها الخوف واندفعت نحو الباب مارقة من تحت ذراعه، فلم يسعه اللحاق بها. ونزلت على عجل خافقة الفؤاد ومضت نحو شقة سيد عارف. لم تكن غضبي ولا مستاءة، بل كانت أبعد خلق الله عن الغضب أو الاستياء، وجلست في الشرفة تنتظر ربة البيت فلم تفارق مخيلتها صورة محياه الجميل، ولا غاب عن سمعها رجع صوته الحنون. وجعلت تستذكر أحاديثأتراها فى المدرسة عن حيل الشبان ورسائل الغرام ونواذر الغزل، ثم تسألت ترى هل تدلّى بدلوها منذ الغد فى حديث الحب الذى لا يمل؟ .. ولكن أي أنواع من الشبان يكون؟! .. ونزل رشدى بعد قليل مبتسمًا مسرورا. ولم يكن قلبه قد استشعر عاطفة صادقة بعد، فكأنما كان يقوم بتمثيل دور محبوب، ييد أنه كان كذلك من أولئك الممثلين الصادقين الذين يندمجون بتمثيل أدوارهم اندماجا يورى القلب ويقطح شرره فإذا هم ضاحكون أو باكون. ثم انطلق إلى الكازينو بشهية مفتحة للسرور والشراب والطرب.

ومضت أيام العيد فلم تقع عيناً أَحْمَد عاكف عليها مِرَّةً أخرى، وحسب أنها في شغل بالعيد وملاهيه فدعا لها قلبها بالسُّرُور، وكان كل مطعمه أن تراه في البدلة الجديدة التي فصلها خاصة إكراماً لها، فقال لنفسه: إن البدلة لا تبلى في أيام وسوف تراه يوماً ما حتماً وهو يرفل فيها. وشغل هو كذلك بعطلة العيد وإن كان أنفقها جميعاً في قهوة الزهرة بين الصالحين، ما عدا سليمان بك عنة الذي سافر ليعيد في قريته، ومن عجب حقاً لا يكون قد ظفر بصديق منهم على دوام العشرة والصحبة، وذلك لأنَّه كان يتطلب في الصديق سجيتين لا تجتمعان: أن يدين لهـ هوـ بالتفوق والأستاذية، وأن يكون مثقفاًـ ولو لحد ماـ ليتمتع بصدقته، ولكنه غالباً ما يجد نفسه بين اثنين: واحد عاميـ أو في حكم العوامـ يعجب بشخصه ويؤمن بعقليته، وأخر مثقف لا يذعن لمشيته ويجادله جدل المعتد بنفسه المتحدى غيرهـ، ولعله أن يحب الأول كما يقتـ الثانيـ، ولكن لا هذا ولا ذاك بالصديق المشودـ. وقد أحب المعلم نونوـ، وكمال خليلـ، وسيـد عارفـ، ومقـتـ أَحْمَد راشـدـ، ولكنه ظلـ بـغـير صـدـيقـ، أوـ كـانـ شـقـيقـهـ رـشـدـيـ الصـدـيقـ الـوحـيدـ فيـ دـنـيـاهـ المـحـبـوبـةـ.

مضت إذاً أيام العيد دون أن تقع عينها عليناـ. ولكنه لم يكـفـ لـحظـةـ عنـ التـفـكـيرـ فيهاـ، ولاـ انـقطـعـ عنـ إـدامـةـ النـظـرـ فيماـ جـدـ فيـ حـيـاتهـ منـ أمـورـ. أـلـمـ تـحدثـ عـاطـفةـ، ويـسـتـيقـظـ قـلـبـ، ويـبـتـسمـ أـمـلـ؟!.. أـلـمـ تـحدثـ عـاطـفتـانـ، ويـسـتـيقـظـ قـلـبـانـ، ويـبـتـسمـ أـمـلـانـ؟!.. لـقدـ أـحـبـ بـعـدـ أـنـ حـرـمـ منـ الحـبـ زـهـاءـ ثـلـاثـيـنـ عـامـاـ، وأـحـبـ بـقـلـبـ آذـنـ شـبـابـهـ بـوـداعـ، فـهـوـ

يستمسك بالحب كآخر أمل مرجى فى سعادة الدنيا، وجاء الحب عفوا بعد أن أشفى على اليأس، ورجع فؤاده النغم القديم فتيا نديا عذبا كأنه بعث من جديد. فوجب أن يفكر فى أمره، ويقبل على تدبير شأنه. ومضت أيام العيد وهو مشغول بالتفكير والتدبير، فهذا الحياة تمسح عن جيئنها ما ألف من تقطيبها، وتتجدد له بفرصة سعيدة ليعاود تجريب حظه، فلن يحجم ولن يتتردد، وأراد أن يكون أعظم صراحة مع نفسه فغمغم فى وحدته: «الزواج!» أجل، ولكن فى الأربعين وهى دون العشرين، فهو فى سن أبيها، ولكن ما وجه الإنكار فى ذاك؟.. ألم تعلن له بميلها إليه. وقد خفق فؤاده للذكرى -ألم يختره قلبها؟.. وأما صديقه كمال خليل فيرجح أن يرحب بيده، وإن لم يخل الأمر من دهشة، وتخيل أن القوم راحوا يتحررون عنه فعلموا أنه (فى الأربعين، كاتب بمحفوظات الأشغال، درجة ثامنة - فهو من المنسين فى الحكومة كما أنه من المنسين فى الدنيا - مرتب خمسة عشر جنيها!) لا يتزعج كمال خليل الذى يحسب أنه من رؤساء الأقلام؟.. لا تقول الست توحيدة -أم نوال- إن عمره كبير ومرتبه صغير؟!.. وغض عن ذلك على شفته، وعاوده شعور الأسى واليأس: وأوشك أن يشور به الغضب، وأن يقول كما قال مرة فى مثل هذه المناسبة: «إن الدنيا جميعا لا تساوى زتها قذارة إذا سولت نفس لصاحبها أن يستهين بي؟»، ولكن توبته لتجربة حظه لم يدعه يستسلم لجنون الغضب، فطرد عن فكره خواطر اليأس، واستعاد سروره ودواعي الأمل والسعادة من حياته الجديدة.

وانقضت أيام العيد الثلاثة وهو يفك التفكير الذى يسبق العمل مباشرة، وجاء يوم الجمعة الأول بعد العيد ولما يحقق شيئا من أفكاره، بيد أنه رآها صباح ذلك اليوم لأول مرة، بعد مرة أول أيام العيد - وسر فؤاده المشوق. كان اليوم من أيام نوفمبر الأولى. والجو رقيق منعش تسرى فى تضاعيفه من آن لأن هبات نسيم بارد، والسماء تغشاها غلالة

من سحاب ناصع البياض ينضج بنور الشمس المتوج، ففتح النافذة -  
نافذة نوال - ورفع رأسه، وما يدرى إلا وقتانه تطل عليه كالأمل النصير  
والحلم السعيد، وحياتها بابتسمة وإيماءة، فردت تحيته مبتسمة، ولكن  
عشق ابتسامتها، ولبث يملاً عينيه من سمرتها الصافية. وخطر له وقتذاك  
أن يحاول تفهيمها بالإشارة. وعلى قدر المستطاع - أنه يوشك أن يحدث  
والدها بشأنهما، ولكنها سبقته فأنامت رأسها على راحتها كأنما تقول له  
إنها ترغب أن تنام، وأشارت على رأسها وقطبت ثم لوت شفتيها تعنى  
أن رأسها موجع، ثم حنت له رأسها وتراجعت مولية. وأسف على  
فوات الفرصة، ولكن تصميمه تضاعف، وأراد أن يدخن سيجارة  
فوجد علبة السجائر فارغة، فمضى إلى حجرة رشدي ليأخذ منه  
سيجارة، وكان الباب موارباً فدفعه بهدوء ودخل، ورأى شقيقه مرتفقاً  
النافذة شاصاً إلى أعلى، مستغرقاً حتى أنه بلغ نصف الحجرة قبل أن  
يتبه الشاب لمجيئه، فاستطاع أن يرى من موقفه النافذة الأخرى التي  
يتطلع إليها أخوه، وأن يلمح حال توسطه الحجرة رأس نوال - دون  
غيرها - وهو يرتد بسرعة البرق ! .. وانتبه رشدي إلى مجىء شقيقه -  
باختفاء الفتاة الذي هو بالفرار أشبه - فالتفت وراءه، ثم ابتسם للقادم  
بترحاب وبوغت أحمد مbagتة عنيفة منكرة كانت أعنف وقعاً عليه من  
انفجار القنابل ليلة الغارة، فزلزلت صدره - الذي جاء به مثلجاً مطمئناً -  
قليلة جنونية صدّعه كما ينصلع السحاب بشرارة البرق القوية الخاطفة ،  
ولكن لم يغب عنه تحول الشاب إليه ، فأغضى بصره - بيداه الغريزة  
وسرعتها - ليخفى عينيه ، وأهاب بقوته الكامنة ليحافظ على هدوء  
مظهره ، وتكلف ابتسامة ، ثم نظر إلى الشاب الذي أقبل نحوه مبتسمًا  
ابتسامته الحلوة البريئة وقال بهدوء :

- سيجارة من فضلك !

واستخرج رشدي علبة سجائره من جيب بيجامته وفتحها وقدمها

لأخيه، فتناول الرجل سيجارة شاكرا، وحياه برفع يده إلى جبينه، ثم  
قفل راجعا.

## ٢٤

ورد باب حجرته وهو لا يكاد يرى شيئاً من الذهول، ورمى بالسيجارة إلى فراشه، ثم اقترب من النافذة ورفع رأسه فرأى الشرفة كما تركتها مفتوحة وخالية، ثم أطرق مقطباً وأغلق النافذة بشدة طقطق لها الزجاج، وعاد إلى الفراش وجلس على حافته مغمماً: «غاب عنى أن هناك نافذة مثل نافذتي على هذه الشرفة، حقاً غاب عنى ذلك!». وكأن دمه استحال نفطاً يد قلبه بألسنة من لهيب. ألم يرها وهي ترتد فزعة لدى ظهوره؟.. فهل غير الشعور بالإثم أفزعها؟.. أو ما الذي دعاها إلى النافذة بعد أن أوهنته أنها ذاهبة لتنام؟.. فليس وراء ذلك كله سوى معنى خبيث يتخيال خلقه البشع خلف خداع الآمال الباطلة، ومن عجب أنه لم يمض على حضور شقيقه إلا عشرة أيام، ففي أيام معدودات تغير كل شيء.. وشعر عند ذاك بصفعة.. فكرف قلبه بهواه، وصارت ابتسامة الترحاب خدعة رباء، ترى كيف تحدث هذه الانقلابات؟.. أتقع في يسر وهوادة كأنها لا تدرك ضحاياها؟.. أم أنها تلقى ما هو خليق بها من التردد والألم؟.. وكانت تلعب بهما؟.. أيمكن أن تنكشف تلك النظرة الساذجة عن مكر سيء وخبث وعر؟!.. ولماذا إذا بادلته التحية منذ دقائق؟.. فهو الحباء والخرج أو أنه المكر والحيطة؟».

أما الشاب فلا يدرى من الأمر شيئاً، إنه برىء من دمه، ولعل أنه رأها فراقته فغازلها كعادته فاستمالها فهوبيته، بنظرة وإشارة نسيته.. وهل

خطره أكبر من ذلك؟! .. نسيت الكهل الأصلع الفانى ، فلا يلوم من إلا نفسه ، ألم يكن له فيما اكتسب من معرفة بحظه وسوء ظنه بدنياه ، وبالمرأة خاصة ، ما يحرز به نفسه من غواصل الأمل وومضات السعادة الكاذب؟ .. ونهض قائما وقد اشتد شحوب وجهه ولاحت فى عينيه نظرة حزن عميق ويأس سحيق ، وجعل يذرع الحجرة جيئه وذهابا ما بين الفراش والمكتبة حتى عراه دوار فعاد إلى مجلسه من الفراش ، وراح يتساءل : أيرضى أن يستبقا - هو وأخوه - في مضمار منافسة واحد؟ .. وثار كبرياوہ وشمغ بأنفه ، محال أن يتنازل لمنافسه إنسان ، فالمนาفة الحقة لا تثور إلا بين أكفاء! .. ومحال كذلك أن يطلع شقيقه على سره فكبرياوہ تأبى عليه أن يستجدى السعادة أو يستوهد الحب . وخلائق من كان مثله أن يترفع عن هذه الصغار - الحب والفتاة والظافر بهما - فهو أكبر من هذا جمیعه ، ولكن ما بال الألم لا يرحم كبيرا؟! .. لماذا لا يعرف هذا الألم القتال قدره فيتوارى؟! .. كيف تلسع الغيرة قلبه بمثل شوكة العقرب؟ .. وإنما يشن ويتوزع! .. الحقيقة أنه مد يده ليجلو عروسه فتكشف له قناعها الموسى عن جمجمة ميت! .. ورأى بعين خياله صورتهما المزدوجة ، هو بشبابه الريان وهي بعينيها النجلاويين ، فوجد ألماء وإباء وعجرفة قاسية ، ترى لماذا يحول رشدي دائمًا بينه وبين سعادته وما أح恨 إنسانا مثله قط؟ .. فهو الذي أجبره قبل عشرين عاما - على التضحية بمستقبله ليقف حياته على تربيتها ، وهو هو الآن يجني ثمرة سعادته ويدوس أمله المنشود بقدم غليظة! .. واستولى عليه الغضب وتقىبح نفسه بالسخط والختن ، وثار بركانه في عنف ودوى ، ولكن الكراهية لم تجد سبيلا إلى نفسه ، لم يكره أخيه لحظة واحدة - حتى وهو فريسة الشورة في عنفوانها - إن جبه له أصيـب بنوبة وقـتـية أـفـقـدـتـهـ وـعـيـهـ ، فأغمى عليه ولكنه لم يمت ، بل لا يشعر نحوها - وهي الخلقة بالاتهام - بكراهية أو مقت ، وإن بدا سخطه كأنه لا نهاية له . ثم خمدت ثورته

بسرعة عجيبة تدعو للدهشة حقاً، فولت أحاسيس الغضب والسخط والعجرفة، مخلفة وراءها حزناً عميقاً لا يتزحزح ويأساً خانقاً لا يريم وخيبة متغلغلة لا تؤذن برحيل، وحين عاودته ذكريات الأمس السعيدة.. لم يتحسر عليها ولم يأسف.. ولكنه شعر بهوان وخجل؟.. وأنشاً يقول بصوت خافت حزين وكأنه يحدث نفسه: «برح الخفاء ولا مفر من الحقيقة، أنت رجل سيئ الحظ، بل هذا قول دون الواقع بكثير، فالحق أن الدهر نصبك هدفاً لسهام الخيبة والإخفاق، ووكل بك قوة شيطانية فظيعة تلتف من سبيلك كل فرصة سانحة أو مصادفة سعيدة إذا أنت تخسب أنه لم يعد بينك وبين الرجاء إلا كلمة تقال أو راحة تبسط، وما تقاد أن تمد حجرك لتلقى ثمرة دانية حتى ينقض عليها طائر الشؤم الكاسر، فيلتقطها بمنقاره ويطير بها، وتوشك أن تصعد قمة هرم من المحاولات فيندك عاليه سافله ويلقى بك إلى غور سحيق.. آفاقك تتلمع ببروق الآمال الكاذبة وموضعك من الأرض مظلم عabis، هل يوجد في الدنيا إنسان مبتلى بمثل عناد حظك العائز؟!.. الناس يحثون الخطى باسمى الشغور ما بين متع بصحته، وهانئ بأسرته، وراض بمحنته، وسعيد بحاله، فأين أنت من هؤلاء جمیعاً؟!

لا صحة ولا أسرة ولا مكانة ولا مال!.. في البدء قسم ظهرك عثار أيك، وبدد آمالك حدبك على شقيقك ثم أعمق مواهبك العقلية ببيئتوك الجاهلة؟.. ماذا يتبقى لك من أحلام دنياك؟.. ذهب الشباب فلم ينجب حتى ذكرى جميلة تتفياً ظلها في هجيرة العمر، وهو هي الكهولة تعن بك فيما وراء مشارف الشيخوخة، فكيف تحتمل هذه الحياة العقيمة؟.. إن الرجل ليطلق الزوجة الوفية إذا عقمت، فقيم احتمالك دنياً.. لم تعقم فحسب.. ولكن تورث الألم والضنى؟!.. لماذا وجدت في هذه الدنيا؟.. أما من نهاية لهذا الألم المرض وذاك الملل المسمى؟.. ثم ماذا أجدى عليك هذا العقل؟.. وماذا أفادت من المعرفة؟..

حَلْفَتُكَ بِهَذِهِ الْآلَامِ جَمِيعاً إِلَّا مَا أَغْلَقْتَ الْكِتَابَ إِلَى الأَبْدِ وَحَرَقْتَ هَذِهِ  
الْمَكْتَبَةِ الْعَاتِيَةِ، وَلَخِيرٌ لَكَ أَنْ تَدْمَنَ عَلَى مَخْدُرٍ يَذْهَلُ الْعُقْلَ عَنِ الْوُجُودِ  
حَتَّى يَتَدَارَكَ الْذَهَولُ الْأَكْبَرُ. الْحَيَاةُ مَأْسَةٌ وَالدُنْيَا مَسْرَحٌ مُمْلَأٌ، وَمِنْ  
عَجْبِ أَنِ الرِّوَايَةَ مُفْجَعَةٌ وَلَكِنَّ الْمُمْثِلِينَ مَهْرَجَوْنَ، مِنْ عَجْبِ أَنِ الْمَغْرِيِّ  
مَحْزُونٌ - لَا لَأَنَّهُ مَحْزُونٌ فِي ذَاتِهِ وَلَكِنْ لَأَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ الْجَدُّ فَأَحَدَثَ الْهَزْلَ،  
وَلَمَّا كَانَا لَا نَسْطِيعُ فِي الْغَالِبِ أَنْ نَضْحِكَ مِنْ إِخْفَاقِ آمَالِنَا فَإِنَّا نَبْكِي  
عَلَيْهَا فَتَخْدِعُنَا الدَمْوعُ عَنِ الْحَقِيقَةِ، وَنَتَوَهُمْ أَنِ الرِّوَايَةُ مَأْسَةٌ وَالْحَقِيقَةُ  
أَنَّهَا مَهْزُلَةٌ كَبِيرٌ!». وَصَمَتْ قَلِيلًا مُتَفَكِّرًا، مُتَجَهِّمَ الْوَجْهِ، مُنْقَبِضُ  
الصَّدْرِ، ثُمَّ نَهَضَ قَائِمًا فِي وَثِيَّةٍ عَنِيفَةٍ وَقَالَ بَشِيءٍ مِنَ الْحَدَّةِ: «إِلَى  
الْكَهْفِ الْمُظْلَمِ، كَهْفِ الْوَحْدَةِ وَالْوَحْشَةِ، إِلَى الْقَبْرِ الْبَارِدِ، قَبْرِ الْيَأسِ  
وَالْقُنُوتِ، لَقِدْ رَكِلتَنِي الدُنْيَا وَهِيَ الدُنْيَا وَلَا رَكِلَنَا وَأَنَا الْمُتَعَالِيُّ، إِنَّ  
الْخَصِيُّ أَرَهَدَ حَيْوَانَ فِي الْمَرْأَةِ إِلَيْهَا اسْتَأْصَلَتْ مِنْ نَفْسِي كَوَادِبُ الْأَمَالِ  
سَدَتْ بِالْيَأسِ الدُنْيَا جَمِيعًا، فَإِلَى كَهْفِ الْوَحْشَةِ نَتَزُورُ مِنْ ظَلْمَتِهِ غَشاوةً  
تَحْجَبٌ عَنِ أَعْيَنَا خَدْعُ الْحَيَاةِ!!».

وَالْتَفَتْ بِعَنْفِ نَحْوِ النَّافِذَةِ - نَافِذَةِ نَوَالِ - الَّتِي أَغْلَقَهَا مِنْذِ حِينِ وَقَالَ

بِغَضْبٍ:

- غَلَقْتُكَ إِلَى الأَبْدِ.. غَلَقْتُكَ إِلَى الأَبْدِ!

٢٥

وَرَأَى أَنْ يَذْهَبَ - كَعَادَتِهِ صَبَاحُ الْجَمْعَةِ - إِلَى الْزَهْرَةِ، وَوَجَدَ حَزْنَهُ  
حَافِزاً يَدْعُوهُ لِلذهابِ إِلَى هَنَاكَ ابْتِغَاءَ الْوَسِيلَةِ إِلَى التَّسْلِيِّ عَنِ حَظِّهِ.  
وَأَخْذَ يَرْتَدِي بِذَلِكَهُ الْجَدِيدَةِ وَقَدْ ذَكَرَ كَيْفَ فَصَلَهَا وَلِمَاذَا تَكْلُفُ ثَمَنَهَا  
فَنَفَخَ مِنَ الْغَيْظِ وَالْخُنْقِ. وَغَادَرَ الشَّقَقَةَ. وَلَدَى نَزُولِهِ السَّلَمِ تَذَكَّرَ الصَّبَاحُ

الأول له في العمارة وكيف التفت وراءه فرأى عيني نوال لأول مرة،  
فكيف يمكن انتقاء الشقاء المقدر ما دام يدرو في حل أمال مشرقة وألوان  
ناصرة؟ .. على أنه لم يغب عنه أن ما يعانيه من أحاسيس الألم  
والاضطهاد والظلم لا يخلو من لذة، لذة دفينة غامضة لا تكاد تفصح  
عن ذاتها. وسار في الطريق بقدمين متناقضتين متفكرا فيما يجلبه إعراض  
بنت قاصر على كهل عاقل حكيم من الحزن واليأس فهاله الأمر وكثير  
عليه، وجعل يقول لنفسه كالساخر: «واخزياء، كيف أمكن هذا؟! ..  
بنت مقمطة تفعل بي كل هذا؟! .. كيف سمت بي إلى نمرة النعيم ثم  
رددتني إلى أسفل الجحيم! .. وما جدوى الحكمة إذا عبشت بها جرائم  
الشهوة هذا العبث المزري؟! .. ألم يكن من الأفضل - غفرانك اللهم -  
أن نخلق خيرا من هذا؟ .. وإذا كانت الدنيا جميعا تمسي ظلاما ويباها  
لحض أن جرثومة - تنقض الوضوء - استاءت أو أخفق لها أمل ، أفاليس  
من الحكمة أن نبول على الدنيا وما فيها؟! ». ثم انقطع عن حديث نفسه  
لدى وصوله إلى القهوة ، ووجد الصحاب جميعا قد سبقوه إلى هناك -  
إلا سليمان بك عنته الذي لم يعد بعد من بلدته - ووجد معهم المعلم نونو  
وكان من عادته أن يغلق دكانه يوم الجمعة من الساعة العاشرة إلى ما بعد  
صلاة الجمعة . أما عباس شفة فأخذ مجلسه المعهود جنب المعلم زفته غير  
بعيدين عن حلقة الصحاب وكان الراديو يذيع بعض الأسطوانات بينما  
أخذ الرجال في الحديث . وأراد كمال خليل أن يشرك القادر في الحديث  
 فقال له متسائلا :

- وما رأى الأستاذ أحمد عاكف في الغناء ، أي أفضل القديم أم  
الحديث؟!

ويل الشجى من الخلى! .. ولكن ألم يجئهم ملتمسا العزاء في  
لغوهم؟! .. بلـى . وإذا فليدل بدلـوه ولـيكونـن من الشـاكـرـين ، وكان  
مغرـما بالـغنـاء . وهـل تـلدـ أـمـه إـلا مـغـرـمـا بالـغنـاء؟! .. إـلا أـنـه يـفـضـلـ القـدـيمـ

وما يتبع طريقته من الحديث بحكم العادة وبوحى النشأة الأولى . فقد سمع أغنيات القيان وأسطوانات منيرة وعبد الحى والمنيلوى فاختلس نظرة من خصمه أحمد راشد المخبأ معارفه وراء نظارته السوداء ، ثم قال :

- الغناء القديم هو الطرف الذى يأسر نفوسنا بغير عناء !  
فصاح المعلم زفة بسرور «الله أكبر» وصفق المعلم نونو ثلاثة ، أما سيد عارف فتساءل :

- وأم كلثوم وعبد الوهاب ؟

فقال أحمد عاكف وقد اختلس من خصمه نظرة أخرى :

- عظيمان فيما يرددان من وحى القديم تافهان فيما عداه !

فقال سيد عارف :

- أم كلثوم عظيمة ولو نادت ريان يا فجل !

فقال أحمد عاكف :

- أما صوتها فلا خلاف عليه ولكن حديثنا عن الغناء من الناحية الفنية !

فقال كمال خليل :

- الأستاذ أحمد راشد يعجب بالغناء الحديث بل وأشاد بالموسيقى الإفرنجية !

والظاهر أن الشاب المحامي كان راغباً عن الجدل فقال بغير اكتراث :

-رأى فى الغناء رأى غير خبير ، والحق أنى قليل الاهتمام بالغناء !

وابى المعلم نونو إلا أن يناقش رأيه ، فقال بصوته العريض الأجش :

- يا إخواننا ، أمة محمد ما تزال بخير . هل سمعتم ولو مرة إنجلزيا - وهم بين ظهرانينا أكثر من نصف قرن - يغنى بالليل

يا عين؟! .. والحقيقة أن من يفضل أغنية إفرنجية كمن يشتتهى لحم  
الختنir مثلا!

وكان المعلم زففة قليل الكلام لانشغاله في الغالب بعمله، ولكن  
الموضوع استفز اهتمامه فقال بصوت دلت مخارجه على أن صاحبه قد  
فقد ثنيته على الأقل :

- اسمعوا القول الفصل : أجمل ما تسمع الأذن سى عبده إذا غنى يا  
ليل وعلى محمود إذا أذن الفجر ، وأم كلثوم فى إمتى الهوى . وما  
عدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب !

وأشفق أحمد عاكف من أن يتغير موضوع الحديث من غير أن  
يتفلسف فقال :

إن الإعجاب بالحديث من الغناء أو بالموسيقى الإفرنجية وحى من  
تقليد المحكومين للحاكمين كما يقول ابن خلدون !

ولم يخرج أحمد راشد عن صمته ، ولم يستشره هجوم أحمد  
عاكف ، فوقف الحديث عن الغناء عند ذاك الحد . ثم تحول مجراه إلى  
سليمان بك عنة بغیر رابطة تداع بعد أن لاحظ كمال خليل أن الرجل  
تأخر بالبلد أكثر من العتاد ، فقال سيد عارف متضاحكا :

. أراحنا الله أسبوعين من وقاحة خلقه .

قال عباس شفة بإنكار :

- عما قريب يصير عروسا يا هوه !

فاستدرك سيد عارف قائلا بأسف :

- أما العروس كريمة يوسف بهلة فوالله ما رأيت عيني أجمل منها  
قط !

فتساءل أحمد عاكف :

- أما يدرك صاحبكم أنه لو لا الطمع في ماله ما رضى به أحد زوجا؟!

فقال عباس شفة :

- بغير شك . فلا شباب ولا جمال ولا أخلاق !

وامتعض أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَصْفَ ، وَشَعَرَ بِأَنَّهُ يَنْتَطِقُ عَلَيْهِ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ وَجْهٍ ، لَا شَبَابٌ وَلَا جَمَالٌ وَلَا أَخْلَاقٌ . وَأَضَافَ عَلَيْهَا مِنْ عِنْدِهِ « وَلَا مَالٌ ! ». ثُمَّ أَطْرَقَ هَنْيَةً غَارِقاً فِي الْكَابَةِ الَّتِي كَانَ اِنْتَشَلَهُ مِنْهَا لِغَوَّةِ الْحَدِيثِ . وَخَافَ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهِ الْحَزْنُ فَخَاضَ الْحَدِيثَ مَرَّةً أُخْرَى مَتَسائلاً :

- وَمَا الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ لِطَمْعِ الطَّامِعِينَ ؟

وَهُنَا التَّفَتَ أَحْمَدُ رَاشِدٌ نَحْوَهُ وَقَالَ بِلَهْجَةِ سَاحِرَةٍ قَلَّ أَنْ يَصْطَنِعُهَا فِي حَدِيثِهِ :

- وَمَا الدَّاعِيُ إِلَى الْعَجْبِ فِي ذَلِكِ ؟ .. أَلِيسَ الْمَالُ كَالشَّبَابِ وَالْجَمَالِ مِنَ الْمَزاِيَا الَّتِي تَحْبِبُ الرَّجُلَ إِلَى الْمَرْأَةِ ؟ .. لَعْلَ الْمَالُ أَنْ يَكُونَ أَبْقَى عَلَى الْدَّهْرِ مِنَ الْآخْرِينَ !

وَسَرَعَ عَانِ ما أَقْلَعَ الشَّابَ عَنِ السُّخْرِيَّةِ وَقَالَ بِلَهْجَتِهِ الْجَدِيدَ :

- إِنْ شِيخاً فِي سِنِّ عَتَّةٍ بِكَ لَا يَطْمَعُ فِي الْحُبِّ الَّذِي يَسْتَأْثِرُ بِهِ الشَّبَابُ ، لَكُنَّهُ إِذَا ضَمَ إِلَيْهِ عَرْوَسًا نَفِيسَةً أَرْضَى بِهَا غَرِيزَةَ الْحُبِّ الْمُضْمَحَلَةِ ، وَغَرِيزَةَ الْمُلْكَيَّةِ الْمُسِيَطِرَةِ .

فقال عباس شفة :

- الشَّابُ يَنْتَقِلُ بِالْعَدْوِيِّ ، فَالشَّيْخُ خَلِيقٌ بِأَنْ يَكْتَسِبَ مِنْ عَرْوَسِهِ رُوحًا مِنْ نِصَارَةِ الشَّبَابِ ، فَلَا يَبْعُدُ وَالْحَالُ كَذَلِكَ أَنْ يَتَحُولَ إِلَيْكَ فِي الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ مِنْ قَرْدٍ إِلَى حَمَارٍ مَثَلًا !

فتسائل المعلم زفتة :

- هل نفهم من هذا أن أصله قرد؟!

ولم يوافق المعلم نونو على التهكم بالشيخوخة بطبيعة الحال فقال :

- العبرة في السن بالصحة لا بالسنين، فأبى تزوج في الستين وخلف  
وهاكم سيد عارف أفندي على سبيل المثال (وضحك ضحكته  
المجلجة) فماذا صنع له شبابه؟

وضحك الجميع - وعاكف معهم - مما جعل سيد عارف يقول:

- لا تضحك يا معلم نونو فعما قريب يتغير الحال، وقد علمت  
بأقراص جيدة تجرب، وسترى!

ولم يستطع أحمد عاكف أن يوليهم انتباهاه أكثر من ذلك، فكان  
كالسابع الذي تخور قواه وتوهى مقاومته فيغوص تحت سطح الماء. فلم  
يدر كيف انتقل بهم الحديث إلى أخبار الحرب، ولا كيف راح سيد  
عارف يعدد انتصارات الألمان في روسيا، ويدرك بالفخار سقوط فيازما  
وبريانسك وأوريل وأوديسا وخرkov، وافتتاح شبه جزيرة القرم. ثم  
نهض المعلم نونو للذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاستأذن الكهل  
وانصرف معه راجعاً إلى البيت. ووقف في الصالة هنيهة متسائلاً ترى  
أما يزال رشدي ملازم حجرته؟ .. وسار في الدهلiz متمهلاً حتى دنا  
من باب الحجرة فشم رائحة التدخين النافذة من خصاصة الباب، ثم قفل  
راجعاً إلى حجرته. لأول مرة يمضي رشدي يوم عطلته في البيت! .. بل  
الأوفق أن يقول يوم عطلتهم، والمرجح أنه لم يفارق حجرته وأنها لم  
ترزail النافذة، والله يعلم كم تحيات تبودلت، وكم من بسمات ومضت،  
وكم من آمال أشرقت. وخلع ملابسه وارتدى الجلباب والطاقية،  
وجلس على الشلتة القرية من المكتبة. كان مترعاً بالكآبة، ولكن خلا  
قلبه من الغيرة - أو الغيرة السافرة على الأقل - . وقال لنفسه إن ما يحدث  
في الناحية الأخرى من الشقة لهم أطفال غير حقيق باهتمامه، لهذا  
شعور وقتى؟ .. لا يدرى، ولكن خيل إليه أنه شفى. وتساءل كيف  
حدث هذا بمثل هذه السرعة؟ .. وكانت عاطفته سطحية توهّم أنها  
الحب؟ .. واستراح إلى شعوره، ومد يده إلى المكتبة واستخرج كتاب



القدس . ليس العدد الواحد بالمقدس كما يقول الفيثاغوريون ولكنه الاثنان : الإنسان يفقد نفسه في الجماعة ، ويغرق في الكآبة في الوحدة ، ولكنه يجدها عند أليفه ، فالتكاشف الصريح ، والحب العميق ، والألفة الممتزجة ، وفرحة القلب بالقلب ، والطمأنينة اللانهائية للذات عميقه لا تحدث إلا بين اثنين . وكم ملأ من الكآبة ، وضجر من الوحشة ، وكراه الفراغ ، وهذه نفسه تنازعه مشوقة متلهفة إلى الحب والحنان والألفة والمودة . أين ثغر يرسم إليه مشرقاً بالعاطف ؟ .. أين قلب يرجع خفقان قلبه خفقة خفقة ؟ .. أين صدر يرضع منه قطرات الطمانينة ويعهد إليه بطريقته ؟ .. وبلغ منه القهر منتهاه فتراجعت إلى الفراش محسورة وهو يحرك رأسه بعنف ، كأنما ليصد عنه أحاسيس الحزن والخور ، وليس ترد حقده وصرامته وغضبه وإيمانه الوحشى بالوحدة والعجرفة والتعالى عن العواطف البشرية . وقد تبرد الغيرة ، وتخمد العاطفة ، أما ما يمس كبرياءه فيحدث حتماً قرحة لا تندمل ، وكيف تندمل وكلما التأمت قشرها غروره الأعمى ؟ ! .. ولذلك جعل يقول قارضاً أسنانه : « ينبغي أن تدرك - الفتاة - أنى تنازلت عنها بغير مبالاة ألبته ! ».

## ٢٦

واستيقظ غداً السبت متعباً بعد ليلة مسهدة ، فهو يؤدى ثمن اليقظة التي فرح بها قلبه ، وإن كانت يقطة قصيرة ، وأيا ما كان فما دام النسيان يكمن وراء الأحزان فالعزاء مرجى ، أين اليهودية الحسنة وحبها الشالى ؟ ! .. فالزمان يسحب ذيول النسيان على الماضي ويبلع الذكريات ، ولكن لا ريب أنه مما تطيب به نفسه ألا يعبأ شيئاً ، أو أن يتظاهر بذلك على الأقل ، وأن يريها أنه لم يكد يشعر بأن فتاة هجرته .

ومضى إلى الحمام فوجد باب حجرة شقيقه مواريا، ولمحه يستكمل ارتداء ملابسه. وقد عجب لذلك لأن الشاب يستيقظ عادة متأخرا عنه. بل رأه رافعا رأسه إلى النافذة الأخرى، فتقبض قلبه كأنما أصابته شدة إثارة، وأسلم رأسه للماء البارد طويلاً لينعش أعصابه المحطمة، ثم عاد إلى حجرته وارتدى بذلته، وخرج إلى السفرة ليحسو قهوته ويدخن سيجارته ويتناول لقمه البسيطة، وكان وطن النفس على لقاء الشاب بما يعهد له من الأنس به مستعينا بما طبع عليه من مداراة ما يعتلج بنفسه. وأقبل رشدي مرتديا البذلة والطربوش وابتسم إليه ابتسامته المحبوبة فقال:

- صباح الخير.
- صباح النور.

وعجب أحمد من لبسه الطربوش إذ كان يفطر عادة عاري الرأس فسأل:

- لماذا عجلت بلبس الطربوش؟

فقال رشدي والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- سأناول فطورى فى الخارج لأن لدى أملاً مستعجلة.

- وما الذى دعا إلى هذه العجلة؟

- إنها بعض الأعمال المتعلقة بوظيفتى!

وحياه الشاب. كما حيا والدته التى كانت تعد الطعام. ومضى بقوامه الرشيق، وابتسماته المشرفة. ولم يصدق أحمد أسطورة «بعض الأعمال» فارتاد فيها لأول وهلة، وبذا له كاليليين أن رشدي يكرر في الاستيقاظ على غير عادته بالخروج من البيت ليلتقي بنوال في مكان ما من طريق المدرسة. هذا ما حدسه قلبه المحزون، فهل اتفقا على ذلك حقا؟.. وذكر متعضاً كيف ليث مرتبكاً جاماً. مدة علاقته بها لا

يدرى ماذا يفعل؟ .. أما هذا الشاب الجسور فليس فى مذهبه بين التحية واللقاء سوى غمضة عين. وأعجب بجسارتة حقا كما أعجب به يخطر أمام عينيه بشبابه الريان وقدّه المشوق منذ دقيقتين، إلا أنه إعجاب انطوى على احتقار النفس والتمرد فلم يخل من حنق وغضب. فكان كمن يسبّح بخلود الخالق وهو يرثى فناء المخلوق. وبعد قليل لبس طربوشه وغادر الشقة، ومال إلى قطع شارع الأزهر مشيا على الأقدام تخفيفا عن أعصابه المتورّة، فالترم الطوار الأيسر وتح خطاه، وقال لنفسه بصوت كالهمس ليوحى إليها بالحكمة: «دع بواعث هذا الحزن العميق لا تستحضرها إلى وعيك، اقذف بها إلى هاوية النسيان، وإذا كانت القراءة لم ترشدك إلى الحكمة بعد فخذها من شخص سعيد كالملعم نونو»! .. وقتل نونو لعينيه بصحته ومرحه فتأوه من الأعمق: لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به من الكآبة كأنه الثور الذى يقولون إنه يحمل الكراة على قرنه؟! .. كيف جهل فن السعادة هذا الجهل المزري؟ .. ولماذا لا يقصد الضاحكين ويسترشد بهم إلى طريق الضحك والسرور؟ .. ينبغي أن يفوز فؤاده الكسير بحظه من السعادة لأنه من العبث أن تمضي الحياة هكذا فى كآبة وحزن. وردد هذه الخواطر حتى بلغ ميدان الملكة فريدة واستقل الترام مكتظا فاضطر أن يقف بين الواقعين مضغوطا وكان يقت الزحمة بطبيعة ثارات نفسه بعد هدوء قليل، وخطر له خاطر غريب مخيف، فتمنى لو كان من الممكن أن تخلو الدنيا من بني آدم! .. ولم يدر إن كانت وقوته هي التى أوحت إليه بذلك الخاطر المخيف أم أن هناك بواعث أخرى. فقد تمنى من قبل أو تخيل أنه يتمنى لو تقرف القاهرة إثر غارة! .. فخجل من خواطره الجهنمية التى تحلم أحيانا بالتدمير المخيف لغاية تافهة كأن يستأثر بفتاة دون شريك ولا منافس! .. على أنه عاد يقول لنفسه متأففا: أليس الغدر ذميما كالدمار؟!

خرج رشدي عاكف مبكرا على غير عادته، ودون أن يتناول فطوره، يدفعه ما هو خلائق بتغيير العادات وتأخير الفطور. ولما انتهى إلى السكة الجديدة رأى الفتاة على بعد قريب صاعدة طريق الدراسة إلى الطريق الصحراوى المؤدى إلى العباسية، فتباطأ قليلا حتى اتسعت المسافة بينهما ثم بعها عن بعد، وكانت على علم سابق باتباعه لها. كما أندرها به بالإشارة فى النافذة. وكانت أيضا على رضى بذلك أخفى أكثره الدلال والحياء، وفصح أقله. وكان به الكفاية. الابتسام أو مغالبة الابتسام. وكان الزمن المتاح لرشدي قصيرا حقا، ولكن زمنه من ذهب وناس، فلم يكف منذ مقابلة السطح. بل منذ رأها أول مرة. عن رصدتها وموالاتها بالطاردة والغزل حاشدا لتصيدها هباته جمیعا من أفنان الشباب والحسن والدعابة والصبر، حتى ظنته قطعة من النافذة. ولم يشك الفتى في ظفره من بادئ الأمر، ولا شكت هي فيه! أو فما معنى مجئها إلى النافذة كأنهما على موعد، واستسلامها لنظراته، وتصديها لسماته وإشاراته! .. فإن كان هناك ظل من الشك فقد مسحته ابتسامتها الأخيرة وقضى الأمر! .. على أنها لم تستسلم بغیر تردد، بل كانت خائفة مما تزعج بها النفس إليه، وكانت تلوح لها صورة الآخر. أحمد. فيتو لها الخجل ويساورها القلق. إلا أنها رأت عيوبه واضحة على ضوء الوجه الجديد المشرق، فتساءلت لماذا يلوح الخوف في عينيه دائمًا؟ .. لماذا يبدو كالفار ما إن يسمع حسنا حتى يفر إلى جحره؟! .. إلام يظل جاما لا يتحرك ولا يفعل شيئا! .. وإنها على مثل حيائه فتحتاج بطبيعة الحال إلى جسور يقتحم حياءها، فلم تجد فيه

طلبتها أو أنها أدركت ذلك حين وجدت طلبتها الحقيقة. هذا إلى بون شاسع بين شباب نضير وكهولة ذابلة، وجمال صبيح وخلقة قلقة غامضة، ومرح باسم وكابة موحشة، والحق أنها مالت إلى أحمد لأنه كان الرجل الموجود، أما رشدى فحرّك قلبها المشوب وأهاج عاطفتها. هكذا جازت صبره بابتسامة، وهكذا كتبت بهذه الابتسامة أول كلمة في القصة الجديدة.

صعدا طريق الدراسة، وانعطفا إلى الطريق الصحراوى- هي سابقة وهو لاحق. كان الصباح ندياً رطباً مائلاً إلى البرودة يعاشه نسيم رقيق يهب بأنفاس نوفمبر التي تنتهي الأزاهر إلى المحبين، أما السماء فسمتها محمل سحاباً ناصعاً، يتصل حيناً، ثم يتفرق في المشرق فيحدث بحيرات ثلوجية تنضح شطأنها بالشعاع الصاعد من الأفق فتوهج أهدابها وتخطف الأبصار. منظر تطمئن النفوس إليه. إلا نسرين تفانتاً معاً! وقد أوسع خطاه بعد المنحنى فأدركها، وشعرت الفتاة بوقع خطاه تقترب منها فلم تعطف رأسها إليه، ولكن أثر اقترابه بلغ خديها فتورداً، وعينيها الكبستان الصافيتين فابتسمتا وهي لا تدري، ثم حاذها حتى أوشك أن يلامسها، وقال برقة:

ـ صباح الخير ..

فمال رأسها إليه قليلاً ولحظته بطرف متعدد وقالت بصوت خافت:

ـ صباح الخير ..

وكانت متابطة حقيقتها كعادتها فقال مبتسمًا:

ـ أتأذنين لي أن أحمل عنك هذه الحقيقة؟

فابتسمت بدورها وقالت:

ـ كلا، لا داعي لذلك، فهي خفيفة على كبرها، ولا ضير من حملها  
أليتة.

- لابد أن تقل على يدين رقيقتين كيديك !
- بل يداي تقلان عليها، لا تعودني على الترف من فضلك !
- فصحك سرور صادق وقال :
- أليس ما يخجل حقاً أن أسير طليق اليدين وأنت تحملين هذه الحقيقة الكبيرة ؟!
- وأخذ الارتباك يزايدها ويحل محله الانس به ، فسألته معتبرضة :
- ولماذا تخجل ؟ .. إنى أحملها كل يوم بكرة وعشيا !
- الظاهر أنك تخافين أن أخطفها !
- ليتك تقدر على هذا حقا ، فإنها تحوى واجبات ثقبة أخفها الحساب !
- فصحك مرة أخرى وقال :
- لعن الله علما يثقل عليك !
- فابتسمت متشرجة وقالت :
- أتلعن العلم إكراما لى حقا . أم لعداوة قدية ؟
- بل إكراما لك وإن لم يخل الحال من عداوات قدية ، ترى ما أحب العلوم إليك ؟
- التاريخ واللغات !
- وكان على عكسها يحب العلوم والرياضية ، ولكنه أبدى سرورا طافحا وصاحب عزم :
- اتفقنا والحمد لله !
- فعجبت لسروره وسألته :
- وما عبرة السرور لذلك ؟
- فقال بلياقته المعهودة :

-كيف غاب عنك هذا يا عزيزتي؟ .. ألم يكن ذلك الاتفاق في  
الميول العقلية أصلاً وبشيراً باتفاقنا «الروحي» الذي نلتقي عنده  
الآن؟

فتورد وجهها وطرفت عينها .. وهي عادتها إذا تولاها الحباء .. ولم  
تبس بكلمة، فسألها بإغراء:  
-ألا توافقيني على رأىي؟

فلازمت الصمت، أو لازمها الصمت على الأرجح، وعاد يقول  
برفق:

ـ هل أجد في صمتك جوابي المرجى؟  
ـ ولحظها، فحالها تبسم، فخامرها الحماس وقال بصوت خافت:  
ـ عرفت ذلك من أول نظرة!

ـ فلم تتمالك أن قالت وفي عينيها ابتسامة صريحة:  
ـ أول نظرة!  
ـ أجل.

ـ شيء لا يصدق!

ـ ألا تؤمنين بالنظرية الأولى؟

ـ ألا تغالى؟ .. أحقاً ما يقال عن النظرة الأولى؟

ـ فقال بحماس تألقت له عيناه العسليتان الجميلتان:  
ـ هو الحق الذي لا مراء فيه!

ـ فقالت وقد غيرت لهجتها:

ـ نحن لم نتعارف بعد!!

ـ فأدرك أنها تحاول الإفلات من الطوق الذهبي الذي طوّق جيدها به،  
ـ ولكنه لم يمكنها من مأربها وقال:

- لا تغيب عن الحديث، ستعارف حتماً بعد حين، أو ستمتع بعلاقتنا  
فلم يبق منه إلا اسمى . ولكنني أريد أن أقول إنه إذا لم يكن حب  
(وتعمد أن يذكر هذا اللفظ كأغنية جاء عفوا). من أول نظرة فلا حب  
على الإطلاق! .. وتعودت بالصمت مرة أخرى وهو يلحوظها  
مبتسماً، ثم استدرك:

- لا أعني أن الحب يحدث حتماً من أول نظرة، ولكن النظرة الأولى  
تكفي لاكتشاف من تربطهم بنا صلة روحية عسية أن تصير الحب  
نفسه! .. أليس يقولون إن الأرواح تتroxاطب بغير إحساس  
أليست؟! .. فنظرة واحدة تبلغ بالروح فوق ما تريده.. . أما الحب  
الذى تلده الأيام وتبشه المعاشرة فمرجعه على الغالب العادة أو  
المنفعة، أو غيرهما من القيم التي لا تدرك إلا بالروية والإمهال،  
فماذا ترين؟

فترددت هنئه ثم سألته كالمتحيرة:

- أتقول إنه لا يوجد.. (ولم تنطق بكلمة الحب) إلا من أول نظرة!  
فأدرك أنه ثرثر أكثر مما ينبغي ، وخفف مغبة تفسير كلامه فقال  
باهتمام:

- كلا ليس هذا ما أعنيه، وإنما أعني أن النظرة الأولى خلية بالدلالة  
على الغاية التي عسى أن تهدف إليها العاطفة.

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:

- فلسفتك عسيرة، فلا هي من التاريخ ولا هي من اللغات!  
 واستغرق الشاب ضاحكا بسرور أخذ بمجامع قلبه، وود في تلك  
اللحظة لو يستطيع تقبيل الفم الصغير الذي تسيل جوانبه بهذه الحلاوة  
المشتهة، وقال:

- بل هي أسهل من التاريخ أو اللغات لأنها فلسفة الفطرة الصادقة.

وأصدق دليل على ما أقول أننا التقينا بوحيها ولن نفترق إلى الأبد  
إن شاء الله .

وكانا قد بلغا عند ذلك متتصف الطريق ، فلاحت على يسارهما  
طلاع مدينة القبور خاسعة تحت كأبتها الأبدية ، ينبعث من قواها  
هدوء شامل عميق ، وصمت مخيم ثقيل ، فرمقتها عينيهما النجلاويين ،  
ثم قالت لتداري الخجل الذي سعره حديثه المطرد :

- قضى علىَّ أن أستصبح كل يوم برؤية هذه القبور ، فيا له من منظر لا  
يسر !

وتساءل الشاب عما اضطرها إلى قطع هذا الطريق الطويل مشيا على  
الأقدام في الذهاب إلى العباسية وفي الإياب منها ، ولماذا لا تستقل  
ال ترام عن طريق الخليج ، ثم ابتهج الحقيقة فأدرك أنها ترضي بها التعب -  
أو رضي لها به أبوها - توفير النفقاتها ، فكمال خليل أفندي يعتبر من  
صغر الموظفين ، ومن يكافحون بعزيمة صادقة - في ظروف دقيقة -  
للنهوض بأسرهم ، وذكر أن أسرته اجتازت يوما مثل هذه الشدة وعلى  
رأسها شقيقه المحبوب يذود عنها الأساس بصبر وجلد ، فتندى قلبه عطفا  
ومحبة وتقديرا ، ثم قال لها مبتسما :

- لن تريها بعد اليوم !

فرمتها بنظرة إنكار وتساءلت :

- كيف؟ .. هل أسيير معصوبة العينين؟

- بل سيشغلنا الحديث عن النظر إليها !

فضحكت ضحكة رقيقة وقد أدركت ما يعنيه ، وقالت :

- ولكنه سفر شاق لن تحتمله طويلا ، خصوصا والشتاء قريب !

- سترى !

وأوغلا في السير فلم يعودا يربان إلا صحراء على اليمين وقبورا على

الشمال. ومرا بطريق يشق القبور ويتد غربا، فأشار رشدى إلى مقبرة خشبية ذات فناء صغير، تقع على جانب الطريق الأيمن ثالثة المقابر وقال:

- مقبرتنا!

فنظرت الفتاة إلى حيث يشير فرأت المقبرة الصغيرة وقالت باسمة:

- فلنقرأ إذن الفاتحة!

فقراء الفاتحة معا، ثم قال رشدى:

- هنا يرقد الأجداد، وأخرهم جدأى لوالدى، وأخى الصغير.

- ومتى توفى أخوك هذا؟

- من زمن بعيد ونحن بعد أطفال!

وطرحا القبور وحديثها وراء ظهريهما، واستعادا الصفاء والسرور، دون التفات إلى وجه التناقض الساخر ما بين حديث الحب وحديث القبر، ولا كثرا صفوهما بأن يتتساءلا مثلا عما يتبقى لهما من عمر يقضيانه في الدنيا، أو عما يتنتظر حياتهما من أحداث قبل أن يرقدا في تلك المقبرة أو في أخت لها، لم يلتفتا الشيء من هذا ولكنها قالت

مستوصية بشيء من الشجاعة:

- ولكننا لم نتعارف بعد!

- أنسنا جيرانا!

- بلى، ولكن لا أعرف أسمك.

- سامحك الله. اسمى رشدى. رشدى عاكف!

- كيف يسيئك هذا وأنت تجهل اسمى أيضا؟

- معاذ الله!

- أعرفته من أول نظرة أيضا؟

فضحكت رشدى بسرور، وحنى رأسه أن نعم، فسألته:

- فما أسمى؟

- إحسان!

فضحكت بصوت مسموع وقالت يإنكار:

- أهكذا تختلق الأسماء!

- بل هو اسمك!

- أخطأت يا سيدى ولعلك رمت غيرى فارجع بسلام!

- ولكنى سمعت والدتنى تتحدث عن والدتك مرة فندعوها «ست أم إحسان».

- فحسبت أن إحسان هي أنا!!

- نعم . . .

فضحكت مرة أخرى حتى تورد وجهها الأسمى وقلت:

- هذا اسم اختى الكبرى ، وقد تزوجت منذ عامين!

فابتسم رشدى كالخجل وقال:

- لا تؤاخذينى ، فما اسمك إذًا؟

- نوال.

- عاشت الأسماء!

فترددت لحظة ثم رمقته بنظرة ماكنة وتساءلت:

- أنت تلميذ؟

- نعم بمدرسة العباسية للبنات.

- موظف إذًا؟

- بينك مصر!

فابتسمت قائلة:

- أما أنا فموظفة بوزارة المعارف!

ووضحكا معاً. ثم رأيا أنهما يشارفان العباسية، فأدرك رشدي أن أول لقاء لحبه الجديد يؤذن بالانتهاء، أما هي فقالت:

- حسبيك هذا فينبغي أن نفترق هنا.

فتوقفا عن السير، وأخذ راحتها في يده، وضغط عليها بحنو وهو يقول:

- مع السلامة وإلى اللقاء غداً صباحاً.  
فحينئه بإحناة من رأسها وغمغمت:  
- إلى اللقاء.

وحثت الخطى، ولبث هو بمكانه يتبعها مقلتيه في سرور ونشوة محدثاً نفسه: «كانت في البدء متغيرة بحياتها، ثم أنسنت بي فصارت ألطاف من نسمة عبقة، ظاهرة خفيفة والله، وقاها الله شر الشياطين جميراً بما فيه شيطاني أنا».

وكان شأنه المعهود أن يغازل ثم يتعارف ثم يحب، وقد عاد ذاك الصباح وهو ينصت في صمت الطريق إلى أول خفقة لقلبه ترجع مطلع لحن الهوى. أما نوال فانحدرت في طريق المدرسة وهي تقول لنفسها: «ما ألطافه، ما أجمله، ما أعزب حديثه، فآه لو تصدق الأحلام!».

بات من سروره فى سكرة ذاهلة ، ورأه يغیر عادته من النوم ما بين الظهر والمغرب - موعد انطلاقه إلى السكاكينى - فيقيل ساعة واحدة ثم يستيقظ مثلث الجفنين فيمشط شعره ويتعطر ويتصدى للنافذة المحبوبة ! ولبث الكهل في حجرته يطالع أو يحاول المطالعة ريشما يأزف موعد ذهابه إلى القهوة - تلك العادة الجديدة على حياته . وقد ركز آماله جميعا في النساء المرتقب ، يتظره صابرا كما يتظر اليائس النهاية ، وما برح تتقاذف قلبه أحاسيس الحب والخيبة ، والأنفة والغيرة ، وحبه رشدي ونفوره منه ، فتحير بينها لا يقر له قرار حتى أوشك أن ينفجر رأسه الصغير . وبعد العصر بقليل اقتحم رشدي عليه وحدته ! .. ولم يكن في ذاك غرابة فرفع إليه رأسه مبتسمًا باذلا جهده ألا يلوح في وجهه وجوم أو سهوم . فحياه الشاب بابتسامته الحلوة وقدم له سيجارة وقال بسرور وبلهجة المعذر معا :

- لا تؤاخذني على إزعاجك ولكنني أرف إليك خبرا سارا .

فخفق فؤاد أحمد وقال :

- خير إن شاء الله !

- أخبرنى صديق من الموظفين أن الحكومة تفك فى إنصاف الموظفين المنسيين .

فقال أحمد بارتياح لم يدر الآخر بواعته الحقيقية :

- بشرك الله بالخير !

- إن بقاء رجل مثلك عشرين عاما في الدرجة الثامنة ظلم قبيح وسيئة ذميمة .

فهز أحمد منكبيه بغير مبالاة وقال :

- أنت تعلم أنى لا أعبا الدرجة ولا الوظيفة شيئا .

وتحادثنا مليا ، ثم انصرف رشدي كيلا يضيع وقت أخيه الشمين ..

وتفكر الرجل بعد انصرافه فيما يساوره نحوه من نفور فامتعض ، وتألم  
فؤاده غاية الألم ، وهل ينسى أنه أحبه مذ كان في المهد؟ .. وهل يجهل  
أن الشاب يحبه حبا لا يحبه والديه؟ !

وهرع إلى الزهرة قبيل المغرب مرتاحا إلى مغادرة البيت ، وجالس  
الصحاب ساعتين ملقيا بنفسه في تيار الحديث لاثذا بشجونه من نفسه  
وأفكاره ، ثم تراجع إلى البيت وكان رشدي لا يزال في الخارج - طبعا -  
يسهر ليته في الكازينو ، فكان فتاته استأثرت بالوقت القصير - من الظهر  
للمغرب - الذي كان يخلي فيه إلى الراحة وجعلت من يومه وحده متصلة  
من اليقظة والتعب . وألقى الرجل على النافذة - التي عاهد نفسه ألا تفتح  
أثناء وجوده بالبيت - نظرة غاضبة ، وتساءل وهو يخلع ملابسه ترى ألم  
تلاحظ تغييه عن النافذة؟ .. ألم يربها من الأمر ما ينبغي أن يربوها؟ ..  
لكم يود لو تعلم باحتقاره غدوها ، فكبرياؤه ما تزال جريحة تنزف ،  
ونفسه مكتوية بنار حامية .

ونام قبل موعده لصدود نفسه عن القراءة ، ثم استيقظ على صفاره  
الإنذار ، فنهض مسرعا وارتدى معطفه وغادر الحجرة فالتقى بوالديه في  
الصالمة ، وكانت أمه قلقة لأن رشدي لم يكن عاد من سهرته وجعلت  
تساءل عن المكان المحتمل وجوده فيه وتدعوه الله أن يقيهسوء ، وفي  
الطريق وجدوا الجو باردا رطبا فقال والله: «ما يتظரنا في الشتاء أدهى  
وأمر» ومضوا إلى المخبأ واتخذوا أماكنهم المعهودة . ونظر الأب في  
 ساعته فوجدها الثانية بعد منتصف الليل ، فقال باستياء وتهكم:  
- أليس الأرحم برشدي أن يبيت في الخارج حتى لا يكلف نفسه  
مشقة الرجوع إلى البيت في مثل هذه الساعة؟

وحدثت أحمد نفسه باسترافق النظر! .. ولكنه رأى رشدي يهبط  
أدراج المخبأ متعرجا ويدور بعينيه في المكان باحثا عنهم ، ولما اشر بهم

اتجه نحوهم مبتسمًا متشجعًا بحقيقة حمي الشراب على مواجهتهم -  
مواجهة أبيه خاصة . وحياتهم ثم قال لأحمد :

- أطلقت صفارة الإنذار ونحن في الجمالية فعدوت في الظلام  
كالشياطين !

فانتہرہ ابھہ قائلہ:

-أنت كالشياطين بغير جدال، ألا ت يريد أن تخفف من غلوائك في هذا  
الوقت العصيب!

ولم يتجرأس أحmd على استرافق النظر في حضرة الشاب! .. ولكن رشدي ضاق بالجلوس ذرعا فقام يتمشى في المخا، وأطلق الكهل لعينيه العنان فانطلقت نظرتهما القلقة إلى الركن البعيد حيث تجلس أسرة كمال خليل، ورآها، كانت جالسة جنب أمها مطربة، فرأى جانب وجهها الأيمن. هل رأته يا ترى؟ .. ألا تزال تحسب أنه يجهل أمرها؟ .. أم تعاني شيئا من القلق والعقاب؟ .. أم أنه المقصى عليه بالقلق والعقاب وحده؟! .. وطافت برأسه في تلك اللحظة تمنياته الجهنمية عن الغارة المدمرة فارتغف قلبه ورفع رأسه إلى سقف المخبا داعيا في سره: «اللهم رحمتك يا أرحم الراحمين»، ثم وقع بصره على كمال خليل وسيد عارف واقفين على كتب من مجلس أسرة أولهما يحدثان شقيقه! .. فتولته الدهشة، كيف تعرف الشاب بهما؟ .. ومتى حدث ذلك؟ .. وهل رمى الشاب من وراء ذلك إلى غرض معين؟! .. حقا إنه شاب جسور يعجز خياله - هو - عن مجاراة أفعاله! .. وخارمه نحوه شعور بالإعجاب ممتزجا بالحق، ييد أنه انقطع عن التمامي في مشاعره لدى افججار انتشر فجأة فملا الأسماع، وانطلقت وراءه طلقات المدافع المضادة بسرعة فائقة، فحلق الخوف فوق القلوب الواجهة كحذاء منهومة تنقض على أفراح مذعورة، ولم يتذكر الانفجار ولكن استمرت طلقات

المدافع المضادة فترة وجيزة. ثم عاد السكون إلى نصابه، فأخذ القوم أنفاسهم، ومضت ربع ساعة أخرى ثم انطلقت صفارة الأمان. وفتشرت خاطر على أخيه فلم يجده، وكان الناس يخرجون أفواجاً، فخطر له خاطر أعاد له ذكريات قديمة، فبحثت عيناه عن أسرة كمال خليل فرأها قريبة من مجلسها تنتظر أن يخف التزاحم على باب المخبأ إلا أنه لم ير نوال!.. وذكر ليلة دعته إلى اللحاق بها وكيف تردد وجبن!.. أما رشدى فلا يمكن أن يتتردد أو يجهن!

## ٢٩

واطرب مجرب الحياة، فتوطدت أسباب الصداقة بين رشدى وكمال خليل على حداثة عهدهما بالتعرف، وتفاوت ما بين عمريهما، بفضل لباقه الشاب وكياسته، ودعاه الرجل إلى قهوة الزهرة فلبى دعوته وجالس صاحب شقيقه - والكھل بينهم - ونان إعجابهم بما طبع عليه من دماثة الخلق وإشراق الوجه.

وطاب له المجلس فنوى أن يعاوده بين الحين والحين، ثم دعاه الرجل إلى زيارة بيته فمضى فرحا مسروراً، وتوثقت عرى المودة بينهما، واكتسب الشاب ثقة الرجل لحد أن قدمه إلى زوجته وكريمته، ورفع الحجاب بينه وبين أسرته، وهى خطوة لم يتوقعها رشدى قط، ولا دار له بخلد أن تخذلها أسرة بحى الحسين خاصة حيث تسود روح المحافظة، بل إن أسرته لتعتبر من هذه الناحية أشد محافظة على خلوتها من الفتيات، فما يجرؤ هو ولا أخوه - فضلاً عن أبيه - على أن يقدمها رجلا غريباً إلى أمهما. على أنه سر بذلك سرورا لا يدانيه سرور، وسعد بتلك الثقة الغالية، واصطبغ تفكيره بلون الجد فاستشعر الرزانة

والتبعة، وتبع ذلك أن حل رشدى محل الأستاذ أحمد راشد المحامى فى التدريس لنوال ومحمد. ولما اتصل نباً ذلك بالأخ الأكبر عقدت الدهشة لسانه، ولم يدر كيف حدث ولا كيف أمكن أن يحدث، فأخوه صار كأنه عضو فى أسرة الجيران، ولو أنه وطن النفس يوماً على أن يبلغ هذه المنزلة التى بلغها رشدى فى أيام لما كفته عشرون عاماً، ولكن رمقه بعين الإعجاب المقربون بالحسد، ولكنه نجح فى التظاهر بالجهل المطبق، فأسبل جفنيه على القذى كما أغلق النافذة على آلامه، واستسلم للصبر الذى استمرأه لطول ما عاناه. أما الأم فلم يغب عنها شيء من بادئ الأمر، فلم يكن رشدى من الذين يعنون باغفاء أسرارهم. كان يلازم نافذته إذا وجد بالبيت، ويهرع إلى بيت الجيران فى ساعات الدروس، وكان يغشى روحه هيمان بدت آثاره فى عنایته المتضاعفة بآناقته، وفي الحنان الذى اكتسبه صوته وهو يغنى، وفي خروجه الباكر كل صباح الذى لم يعد تخفي حقيقته على أحد، بل ما من شك أن أسرة الجيران نفسها باتت تعلم من أمره ما تعلم، وتعقد عليه من الأمل ما يتلخص صدرها بالسعادة، لم يغب شيء من هذا عن السُّتْ دولت، وشاورت قلبها فيه فلم تجد منه إباء ولا نفوراً، وكان من عادتها أن تقول أحياناً كالمتحسرة: «متى يا رب أفرح بالعرائس كالأمهات السعيدات؟!». ولكن هل نوال جديرة بابنها؟!.. لم لا؟!.. هي عروس حسناء متعلمة، من أسرة طيبة، ووالدها موظف، فكل شيء مناسب، اللهم إلا خاطرا واحداً أحزنها وأكربها، أيجوز أن يتزوج رشدى قبل أحمده؟!.. ولكن ما حيلتها؟!.. فلتتضرر ما تلد الأيام من أحداث تقضى بها مشيئة الله الحكيمية!

وفات رشدى طور اللعب، فهو يبدأ بمعابة الغزل ولكنه يتشهى دائمًا بالحب الحقيقي!.. فأحب نوال واستعرت لها في قلبها عاطفة صادقة. أليست بجارة النافذة المحبوبة، ورفيقه طريق الجبل المكللة هامته

بالسحاب الرقيق، وتلميذته المغرمة يطارحها الهوى على مائدة الحساب والجبر والهندسة، وجليسته في السينما صباح الجمع؟.. علق الهوى على قلبين طرين، ولصق نفسين تواقتين للحب والسعادة. وصارت حياته نشاطا متصلة يشق على الجسد والأعصاب، فهو إما مكب على عمله في المصرف أو هائم في غرامياته، أو ساهر في كازينو غمرة، فلم يخلد إلى الراحة إلا في الهزيع الأخير من الليل. فلم يتسله حبه من داء المقامرة أو معاقة الشراب ولا حتى من الحب الفاجر وعالج هاتيك اللذات في يسر، وأنسته العادة أنها خطايا فأنس بها بلا تردد، ولم يتخيل أن الحياة حياة بغيرها، فبعد الورق والكأس والحب، وعسى أن يهوله ما تستوجبه هذه الحياة من مال ومشقة فيقول متأسيا: «غداً أودع حتما كل شيء إذا تزوجت!».

وكان حريأً أن يفكر في نسيان ذاك العبث ليأخذ أهبة للزواج إن كان من الصادقين، ولكن هوَّ عليه الأمر أنه أودع المصرف يوما مبلغ خمسين جنيها ربحها من السباق، ففى بحر عام واحد يستطيع أن يقتضى من مرتبه ما لو أضافه إلى ذلك المبلغ لقام بنفقات الزواج، ولكن متى يبدأ هذا العام؟.. هذا ما كان يؤجل التفكير فيه، مستسلما لتيار الشهوات العارم، فلم يتعدّ قط أن يرُوض من جمام شهوته، أو أن يحد من رغباته، أو أن يشد من إرادته، إلا أنه تردد أخيراً متثيراً، عينا على الحياة التي يلبى نداءها، وعينا على الفتاة التي يهواها.

وانصرم شهر نوفمبر، فاشتد البرد اشتداداً لم تعهد القارة إلا في النادر، وأصيب رشدي عاكف بالإنفلونزا، ولعلها أصابته أثناء عودته

إلى خان الخليلى فى الهزيع الأخير من الليل ، ولم يكن يعبأ بوعكات البرد مكتفياً ببلع أقراص الاسبرين إذا اشتتد عليه وجع الرأس ، فزاول نشاطه المعهود لا يعبأ بشيء ، إلا أن حالة المرض اشتدت عليه فى اليوم الثانى فى المصرف فتناولته قشريرة ، ثم شملته رعشة حتى اصطكت أسنانه ، وعراه خور أظلمت منه عيناه فغادر المصرف واستقل تاكس إلى البيت ، ورقد فى إعياء شديد ، ومنحه طبيب المصرف أسبوعاً ، واشتدت الحالة ، وتدهورت صحته بسرعة مخيفة ، وغيره هزال فبدأ كإنسان لازمه المرض شهراً طويلاً ؛ وأدرك أحمد أن أخيه فقد مناعته الأولى التي طالما قاوم بها التوعكات فلم يملك أن قال له :

- صرت كالخيال ، لأن جسمك لم يعد يقاوم لما تكلفه به ماليس فى وسعه .

وكان الفتى معتاداً أمثال هذه الملاحظة من أخيه ، فابتسم ابتسامة شاحبة وقال :

- هذا عارض من أعراض البرد وسوف يزول !  
قال أحمد باستياء :

- ولكنك ما كان يتمكن منك لو لا تفريطك في صحتك !  
ولم يكن شيء يعدل به عن الدفاع عن سيرته المحبوبة فقال :  
- ألا ترى أنى لا أسره وحدى ! .. وأن صحبى جميعاً كالبغال صحة وعافية ! .. ولكنها أعراض البرد وسوف تزول بإذن الله .

وكان يعلم أنه يستميت في الدفاع عن حياته لحد اللجاج والمكابرة فانكسر عن لومه ، وكان يعوده كثيراً ، ويواسيه ويشجعه ، وبالغ في ذلك مبالغة مردها إلى ما بات يساوره نحوه من امتعاض ونفور . فكانه كان يغضى المشاعر التي تخجله وتحزنه بالبالغة في إظهار العطف والمحافظة على مظاهر الحب ، وكثيراً ما كان يحدث نفسه بصوت مسموع قائلاً :

«إنى أحبه كعهدى دائمًا، وما يستحق مني غير هذا الحب، ولو أنه علم بطوطى ما أقدم على ما أقدم عليه فهو برىء، وهو يحبنى وأنا أحبه». ولكن كيف يغفل عما يثور بنفسه أحياناً من الغضب والثورة؟ .. وكيف ينسى أنه تمنى لو أن الشاب لم ينقل إلى القاهرة؟ .. بل كيف ينسى أنه تمنى لحظة لو تخلو الدنيا من الناس والشاب فيها طبعاً! .. فهذه الخواطر وغيرها كانت ترهقه بالحزن وترديه في الوساوس. وفي آخر ليلة من ليالي اشتداد الحمى على الشاب، حلم أحمد حلماً غريباً. وكان نام بعد جهد ناصب من عذاب الفكر، فرأى فيما يرى النائم أنه جالس على فراشه مرسلًا الطرف إلى شرفة نوال في إشراق ورجاء، فما يدرى إلا ورشد يقعد على كرسي بينه وبين النافذة مبتسمًا ابتسامته اللطيفة، فشعر باستحياء وحول ناظريه عن الشرفة إلى وجه أخيه، وأراد رشد أن يسرّى عنه بتظاهره بأنه لم يفطن لشيء فلم يفلح، ثم رأه يتنفس رويداً رويداً حتى صار ككرة ضخمة فأنسته الدهشة ما كان فيه من استحياء، ثم أخذ منه العجب كل مأخذ حتى لم يتمالك نفسه من الصراخ إذ رأى شقيقه - وهو كالكرة الضخمة - يرتفع بيضاء طائراً كأنما يلتمس سبيلاً إلى الفضاء خلال النافذة، ولكن النافذة ضاقت عنه فانحسر بين جانبيها وحجب عن عينيه النور، وزايلته الدهشة وحل محلها الرعب، ولكن الفتى، جعل يضحك منه كالساخر بصوت مزعج أثار أعصابه فتولاه الغضب، وظن الشاب يسخر منه بخدعة فنهره ولكنه لم يعيّ به واستمر في ضحكة الساخر، ففزع أحمد إلى مكتبه وأتى بريشه وغرسها في بطنه فانقصفت فيها، واندفع من البطن بخار ملاً الحجرة بالغيار فأخذ جسم الفتى يتقلص بسرعة حتى عاد إلى حجمه الطبيعي ثم سقط عند قدميه، وجعل يتلوى كالسليم، وبعض من الألم قوائم الكرسي ويصرخ صراخًا موجعاً ويصل حتى تجحظ عيناه ويسهل من محجريهما الدم، وهلع فؤاد أحمد وأطبق عليه رعب يضفي وعيت، ثم .. ثم

استيقظ عند ذاك، وأدرك أنه كان يحلم، رياه، تبال للأحلام، وما كاد يفيق من هول الرؤيا حتى بلغ مسمعيه صوت كالأنين يأتيه من عقب بابه المغلق، فأرهف السمع فترين له أنه صوت أخيه وأنه حقا يتاؤه ويتوجع، فقفز من فراشه وانتعل شبشهه ومضى على عجل إلى حجرته. وهناك وجد الشاب يتاؤه وأمه إلى جانبها تدلك ظهره بينما يجلس الأب على كرسى قريبا من الفراش، فتساءل أحمد مروعا:

-ماذا به؟

فقالت أمه:

ـ لا تنزعج يا بني، إنه ألم الحمى وهي تفارق البدن!  
ـ وتبه رشدي إلى مجىء أحمد فكظم ألمه قليلا وقال متأسفا:  
ـ وأخجلتاه!.. أزعجت منامكم جميعا.

ولكنهم شجعواه ودعواه، وجلس أحمد جنب أمه، وأخذ راحة شقيقة بين راحتيه وراح يدللكها بحنو، وكأنه يكفر بذلك عن إساءته إليه في الحلم، ومضت ساعة مؤلمة لم يكن عناء الأسرة فيها دون عناء المريض، فلبثوا إلى جانب فراشه حتى مطلع الفجر.

٣١

وبرأ رشدي مما ألم به، وغادر فراش المرض، ولم يكن هينا عليه أن يلزم الفراش أسبوعا كاملا وهو الذي لا تطيب له الحياة إلا في تجارب اللهو واللعب واللذات، ولذلك حاله أن ينصحه أخوه بالبقاء في البيت والإخلاد إلى الراحة ريشما يسترد قوته، فضحك كعادته وقال كالأسف:

- حسبي أن ضاع من العمر أسبوع هدرا!

فاحتدى الذى ضاع عمره كله وقال :

- أحذرك الاندفاع فيما أنت آخذ فيه ، فإنك تستحل شبابك للعدم  
كأنه معين لا ينفد ، ولا تعباً أبداً أن تنال حفك من الراحة ، فأى  
جنون هذا الذى تعطى ؟!

وليس رشدى فى لهجة أخيه غيرته على صحته ، فابتسم ممتنا وقال :

- دمت من أخ كريم ، متعمى الله بقلبه الكبير .

- إنى أرشدك لما فيه صلاحك !

فقال الشاب الشكور المحب :

- وهل داخلى فى ذاك شك ؟!

ولكنه لم يعن باتباع الإرشاد الذى لا يدخله فيه شك ، وفي صباح  
اليوم التالى رأه أحمد يستجتمع لخروجه الباكر ، فتوالت الدهشة وقال  
بإنكار

- ماذا أنت فاعل ؟

فقال بشيء من الارتباك :

- إلى المصرف .

- وما الموجب للعجلة ؟

فعدل الفتى عن المداراة وقال بصراحة محزنة :

- أخي ، لا أكتنك أن البيت يسقمني !

وعلم أحمد بما يغريه حتما بالاستهانة بصحته ، فانقبض صدره  
وأنهى بصره فى فنجان القهوة ، ومضى الآخر إلى سيله ، وأرادت الأم  
- وكانت جالسة إلى السفرة - أن تخفف من وقع ما خلفه الشاب لنصح  
أخيه فقالت تعذر عن سلوكه :

- شفاء أخيك في الدنيا الواسعة لا في البيت ، فلا تؤاخذه !  
ولما لم ينبع بكلمة ظنته غاضبًا فقالت تستوهبه ابتسامة :  
- أليس هو ابن أمه؟ ومن شابه أمه فما ظلم ، ألا ترى إلىَّ كيف  
يركبني الله إذا لزمني البيت وحيل بيني وبين زيارات الأحباب !  
فكلانا عدو البيت ..

وضحكـت ضـحـكتـها الرـنانـة فـابـتـسمـ الكـهـلـ اـبـتـسـامـةـ لـاـ لـوـنـ لـهـ . وـما  
كـانـ شـئـ بـمـشـنـيـ الشـابـ عـنـ حـيـاتـهـ المـحـبـوبـةـ ، فـارـتـمـىـ مـرـةـ أـخـرـىـ بـيـنـ  
أـحـضـانـ الـحـبـ وـالـقـمـارـ وـالـشـرـابـ وـالـتـدـخـينـ وـالـنـسـاءـ !

استرد نشاطه المعهود ولكنه لم يسترد صحته ، فلم يزايله الهرزال ،  
واشتـدـ لـوـنـ وـجـهـ شـحـوـبـاـ وـبـداـ وـكـانـ بـقـىـ منـ مـرـضـهـ شـئـ لـاـ يـفـارـقـهـ ، وـإـذـاـ  
كـانـ أـحـمـدـ مـشـغـلـ بـنـصـحـهـ كـانـ الشـابـ مـنـشـغـلـاـ بـالـتـفـكـيرـ فـيـ أـمـورـ أـخـرـىـ ،  
فـدـخـلـ عـلـىـ أـخـيـهـ عـصـرـ يـوـمـ . قـبـلـ موـعـدـ خـرـوجـ الرـجـلـ إـلـىـ الـقـهـوةـ بـقـلـيلـ .  
حياة بـابـتـسـامـهـ الطـيـعـةـ وـقـالـ :

- هل تأذن لي بالتحدث إليك قليلاً؟  
رفعـ أـحـمـدـ رـأـسـهـ إـلـيـهـ وـقـالـ :  
- تفضل يا رشدي ! .

وـقـرأـ فـيـ وـجـهـ الـجـمـيلـ الشـاحـبـ أـمـارـاتـ الرـزانـةـ وـالـاهـتـمـامـ عـلـىـ غـيرـ  
عـادـتـهـ ، فـعـجـبـ لـأـمـرـهـ ، وـتـسـأـلـ عـمـاـ دـعـاـ السـادـرـ الـلـاهـيـ إـلـىـ الجـدـ  
وـالـاهـتـمـامـ . وـذـكـرـ أـنـ لـمـ يـرـهـ فـيـ مـثـلـ تـلـكـ الحـالـةـ إـلـاـ السـوـيـعـاتـ الـحـرـجةـ  
الـتـيـ تـلـقـىـ فـيـهـ أـنـبـاءـ سـقـوـطـهـ فـيـ بـعـضـ الـامـتـحـانـاتـ عـلـىـ عـهـدـ درـاستـهـ .  
وـسـاـوـرـهـ الـقـلـقـ وـرـفـعـ حـاجـبـيـهـ الـخـفـيفـيـنـ مـتـسـائـلـاـ ، فـقـعـدـ رـشـدـيـ عـلـىـ  
الـكـرـسىـ وـقـالـ :

- أـرـيدـ أـنـ أـجـدـ فـيـ الـأـمـرـ فـلـيـسـ الـحـيـاةـ كـلـهـ لـعـبـاـ!  
ولـوـ أـنـ سـمـعـ كـلـامـهـ هـذـاـ فـيـ غـيرـ الـظـرـوفـ الـتـيـ يـعـانـيـهـ لـمـ تـمـالـكـ أـنـ

يضحك ويقهقه، ولكن صدره انقبض، وحدس قلقا ما الشاب ماض  
إلى خوضه، فقال بهدوء:

- الحياة ليست كلها لعبا. هذا حق..

فقال الشاب:

- أنت مرجعى عند المشورة، وقد جئتك سائلا هل توافق على  
زواجي؟!

فاضطرب صدره كما لو كان بوغت بالقول مباغته لم تدر له بخلد،  
ولكنه لم يسمح لوجهه بالإفصاح عن كآبته، وتظاهر بالدهشة البريئة،  
بل وبالسرور، وقال:

- أجيئت تتحدث أخيرا عن الزواج! مرحى مرحى!

فضحك رشدي بسرور وقال:

- هي الحقيقة يا أخي، فهل يسرك ذلك؟

- يسرني طبعا، لعلنا سررنا بشيء واحد معا لأول مرة! .

وبعد ذلك صمت، وأدرك أحمد أنه من الطبيعي أن يسأل عن العروس، وكان يرجو أن يفتح الآخر الحديث بغير حاجة إلى سؤاله،  
ولكنه لازم الصمت، فلم يجد مناصا من أن يزدر ريقه ويقول  
متسائلا:

- وهل اهتديت إلى بنت الحلال؟

فاعتدل الشاب في جلسته وقال:

- أجل يا أخي، كريمة جارنا الطيب كمال خليل أفندي صديقى  
وصديقك!

ولم يفلح ما سلف من تأهب في تحمل الطعنة إلا قليلا، فيأس المتهم  
من النجاة لا يهون على نفسه وقع النطق بالحكم عليه، ولكنه لاذ  
بكبرياته وقال بهدوئه:

- وفقك الله لما فيه سعادتك .

- شكرالله يا أخي .

- بيد أنى أريد أن أسألك سؤالا على سبيل الاحتياط ، فهل زوّدت  
بالمعلومات الضرورية عن الأسرة التي ستصبح واحدا منها؟

- خبرت الأسرة عن كثب ، وعرفت الفتاة معرفة شخصية !  
ونكاً تصر يحه جرحه فضاعف مجهوه ليحافظ على هدوئه  
الظاهري ، وقال :

- أذكرك بأنه إذا أعلن الخبر فالنكوص عنه يكون فضيحة !  
فضحك رشدى قائلًا بثقة :

- انتهى التقلب واستقر الرأى !  
هل فاتحت أحدا بهذا الشأن؟

- كلا فيما عداها هي !

فخفق فؤاده خفقة عنيفة ، وشرع خياله في استحضار صورة  
انفرادهما معا ، وتهامسهما بهذا الشأن الخطير الجميل ، ثم قطع تخيله  
بقوة ، وقال بنبرات تنطق بالرضى :

- على بركة الله ..

- إذا أوكل إليك تبليغ والدى بالأمر ، ومن ثم نأخذ فى الخطوات  
المتبعة .

فترىث أحمد قليلا ثم قال :

- سأخبر أبي ، أما الخطوات الأخرى فتحت شرط !

- سمعا وطاعة ..

- ألا نشرع فيها قبل أن تسترد صحتك ، وتستعيد وزنك السابق  
للمرض على الأقل !

فقال رشدى ضاحكا:

-هذا علىَ هين، ولن يطول انتظارنا.

ثم نهض قائماً وهو يقول:

-أشكر لك والعقبى لك (ثم غير لهجته كمن تذكر شيئاً جديداً) ..

على فكرة! لماذا لا تفكّر أنت أيضاً في الزواج، أما كان ينبغي أن

أبارك لك قبل أن تبارك لي؟!

أي صارحه بما حال بينه وبين التفكير في الزواج؟! .. الفتى لا يدرى

ما يقول شيئاً، ولذلك فهو يرميه بسهام مسمومة في غفلة وصفاء! وقد

امتعض لتساؤله، وحاله لسان القدر يتهمكم من شقائه بعد أن قضى به

عليه، وقال كالمتهمكم:

-مضى زمان الزواج!

-مضى؟!

-دع هذا يا رشدى، فأنت تعلم أنى امرؤ مشغول! والله لم يجعل

لامرى من قلبين في جوفه!

ومضى الشاب يهز رأسه أسفًا، واطرق الرجل، ولاحت في عينيه

نظرة حزن عميق، واستسلام للقدر واليأس، سيتولى - هو - أمر زواج

الشاب، فلا مناص من أن يحيك كفنه بيديه، وفي ذلك ما فيه من

ضرر بالآلم وفيه كذلك ما فيه من ألوان اللذة والعزاء. لن يخلو على

الأقل من تلك اللذة الغامضة التي تؤلف بينه وبين الآلم كما تؤلف بين

الفراشة والنور، وفيه لذة الاستسلام إلى القضاء القهار، وفيه لذة

التكفير عن مشاعره الباطنية التي لم يرتح إليها، وفيه أخيراً لذة لكبريائه

الجريح ..

وارتدى على أثر ذلك ملابسه، ومضى إلى الزهرة وقد فارقه ذلك الشعور بالأسف الذي كان يخامره كلما هم بالخروج عن عادة وحدته، واشترك في أحاديث الصحاب أكثر من ذي قبل - إذ كان جل حواره مع أحمد راشد وحده - واستسلم للضحك طويلاً على غير عادته . وخطر له فجأة أن يشاركهم سهرتهم الأخرى التي سمع عنها دون أن يشهدها . وبذا له الخاطر مغرياً فمال إليه بكل قلبه ، بيد أنه تردد كالخائف ولم يدر كيف يقدم نفسه ، ولم يغادره هذا الخاطر حتى نهض القوم للذهاب إلى حال سبيلهم ، وكان من عادة نونو أن يمضي إلى بيته أولاً ومن ثم يلحق بالصحاب في ندوتهم ، فاتخذ منه رفيقاً ، وأتته شجاعته في الطريق فقال باستحياء :

- يا معلم ، هلا اصطحبتنى إلى الإخوان؟

فصدق الرجل بسرور وصاح به :

- هداك الله أخيراً !!

فقل بصوت خافت :

- ولكنني في هذا الأمر أجهل من دابة !

فقال المعلم بزهو وخلياء :

- اجعلنى دليلك ، وأياً ما كان فهذا الأمر أسهل من كتبك وأجل فائدة !  
وعاداً معاً يخبطان في المرات الملتوية يشملهما ظلام دامس ، ودخلوا  
عمارة وارتقيا السلم إلى الطابق الثالث ، وضغط الرجل زر الجرس  
الكهربائي وهو يقول :

- إذا جئت بمفردك وأردت أن يفتحوا لك فآتيتك أن تضغط الزر خمس دفعات متتابعات ثم تذكر كلمة السر التي سأقولها الآن.

وسمعا صوت عباس شفة يسأل عن القادم فقال المعلم :

- ملعون أبو الدنيا !

وفتح الباب ودخل أحمد بقلب هيئاً وتبعد المعلم ، وعبر أصالة إلى حجرة واسعة مزدحمة بالجالسين مضاءة بنور أزرق هادئ كنور الفجر العليل ، ينبعث من مصباح ملفوف بغلالة زرقاء ، فاتجهت الأنظار نحو القادمين ، واستقرت على الجديد حتى تعثر بالارتباك والحياء . وقد تربعوا على شلت تراصت على صورة دائرة ، ووضع في وسطها «العدد» كالمجمرة والجوزة والطباقي ، فتبادلا التحية مع الحاضرين وجلسا جنبا إلى جنب ، واستطاع أحمد أن يلقى نظرة عامة على المكان ، ويرى إخوان قهوة الزهرة - فيما عدا أحمد راشد - بين الموجودين . ثم استرعي صدر المكان انتباهه حيث جلست امرأة «هائلة» على شلتة ضخمة ، وإنها لهائلة حقا ، ففي جلستها كانت تطاول شخصا قائما ، عريضة المنكبين ، طويلة الجيد ، مستديرة الوجه في امتلاء وضخامة ، واضحة الالتباس ، يراوح لونها بين المصري والحبشى ، أما شعرها فකستانى مجعد شدداً إلى ضفيرة غليظة قصيرة ، وأعجب ما في وجهها عينان كبيرتان بارزتان بروزا لا يبلغ القبع ، لنظرهما حدة ولحورهما التماع ، ويوحى منظرها بالهيبة لضخامتها وقوتها ، وبالشهوة لأمارات الحيوانية البدائية في ملامحها ، والإغراء المنعكس عن خلاعتها . وقد وضعت على كتفيها شالا مجملاما منمنما وجعلت تتفرس في وجهه بعينيها القادحتين .

وأدرك أحمد عاكف أنها عاليات الفائزة التي يدعونها بعشوقة الأزواج ، وقد جلس زوجها عباس شفة إلى بينها بينما جلس إلى يسارها المعلم زفتة القهوجي . وسفر المعلم نونو بين الرجل وبينها

بالتعارف فمدت له راحتها المخضبة بالحناء ورحت به. وحدجه المعلم  
زفة بنظرة تأنيب وقال له متضاحكاً :

- وأخيراً عرفت أن الله حق؟ لكم أنفقت من عمر في حجرتك وعلام  
ذلك التعذيب؟؟؟ لا أنت متزوج ولا أنت رجل عجوز، ولكنه  
ظلم الإنسان لنفسه !

فقال المعلم نونو يزكي صاحبه ويعذر عن «غفلته» :

- يا أخوانى ، إن نظرى لا يخيب وفراستى تصدقنى دائمًا ، وقد  
اقتنعت من أول نظرة بأن صاحبنا أحمد أفندي «ابن حظ» ولكن  
أصلته الظروف عن منهله العذب حيناً وإنما لهادوه بإذن الله ! .  
وخفاف كمال خليل أن يضيق صاحبه - الذي جدّ دواع جديدة  
تحمله على إرضائه - بكثرة المداعبات فقال :

- الأستاذ أحمد عاكف يا سادة رجل مطلع ، ولكن لا ضير من أن  
يأخذ حظاً من السرور ، فالحياة لا يمكن أن تكون عناء متصلة ..

فلوح المعلم زفة بيده كالساخط وقال :

- ولماذا نقضى على أنفسنا ، وبمحض اختيارنا ، بعناء متصل أو  
منفصل؟! الأستاذ موظف ذو مقام ، فماذا يوجب عليه أن يقرأ  
كالتلاميذ من غير مؤاخذة؟! عاهدنا على ألا تغيب عننا ليلة بعد  
اليوم !

فابتسم أحمد كالمربك ، وزاد من ارتباكه أن قالت عليات الفائزة  
تخاطب زفة وهي تلحوظ الكهل :

- رويدا يا معلم ، كيف يعاهدك على ذلك وقد لا يطيب بنا نفساً!  
فتورد وجهه أحمد وقال مسرعاً :  
- العفو يا هانم ! ..

وكانوا يدعونها عادة بست عليات فوقعت .. «هانم» من آذانهم  
موقعًا غريبًا، أما السيدة فقالت:  
ـ أهلا بك في كل وقت.

وكان عباس شفة مكبا على تعبئة «الكراسي» ثم رص الجمرات على  
كرسي منها، وركبها على الجوزة وقدمها إلى السيدة. واستقرت عينا  
أحمد على الجوزة في اهتمام مشوب بقلق وإشراق، ثم مال نحو نونو،  
وهمس في أذنه:

ـ ألا يحق لي أن أخاف هذه الجوزة؟  
ـ فعاتبه المعلم قائلاً بصوت منخفض:  
ـ إذا خفتها أنت فماذا يفعل أبناؤنا؟

وتوسط عباس شفة الدائرة، وجعل يديه الجوزة من رجل إلى رجل،  
مقربا منه، حتى بلغت المعلم نونو، فوضع الغاب في فيه وأخذ نفسا  
طويلاً، اتصلت قرقرته حتى ملأت الأسماع، وزفيره من خيشومه قطعا  
من سحاب داكن! وأخيرا رأى الغاب يدنو من شفتية والأنوار تحول  
إليه، فأطبقهما عليه وأخذ نفسا قصيرا كالخائف ونونو يهتف به:  
ـ «شد.. شد» ثم قال له بلهجة الأمر: «إزدرد الدخان!» فازدرده ثم زفيره  
بسرعة وقد شعر كأن يدا تكتم أنفاسه، ثم سعل سعلة اضطراب لها  
جسمه النحيل ودمعت عيناه، وكان نونو يرقبه بقلق فسألة لما أفاق:  
ـ كيف الحال؟

ـ فقال وهو يتنهد:  
ـ أولى بي أن أبدأ بأخذ أنفاس خفيفة، ألا ترى أنك مدرس قاس يا  
معلم؟!

ـ فقهه المعلم قائلاً:  
ـ كما تشاء ففى التأني السلامة!

ودار عباس شفة بالجوزة خمس مرات متعاقبة، وتصاعد الدخان من كل جانب وانعقد سجناً، وشم أحمد رائحة غريبة أثارت ذكرى قديمة، ذكرى رائحة تشابه هذه الرائحة، بل هي نفسها دون غيرها، فأين شمها ومتي؟! ولم يطل به عذاب التذكر، فذكر أول لياليه بخان الخليلي، ليلة التسحيد إذ تسربت هذه الرائحة الغريبة العميقة إلى حجرته فغيرته، فلم تكن إلا رائحة هذا المخدر العجيب المخيف، ولعلها انطلقت ليلاً تذبذب من هذه الحجرة نفسها أو من ذاك الحمى العجيب الذي لا يبعد أن تكون جميع الأنفاس المترددة في جوهر من هذه الأنفاس. وسر للذكر وارتاح إليها إنما ارتياح لأن التخدير كان قد أخذ يسرى في أعصابه المتوردة فيلينها، فابتسمت أساريره. وعاد عباس شفة إلى مجلسه يستريح قليلاً، بينما مضى المعلم زفتة في تعبئة الكراسي من جديد استعداداً للدورة الثانية وقالت المست عليات الفائزة:

- أما هنأتم سيد عارف أفندي!

فاللتفت إليها القوم، وقال نونو:

- خير إن شاء الله!

فقالت المرأة الهائلة مبتسمة:

- أرشده طبيب ماهر إلى أقراص جديدة وأكَّد له أنها مضمونة النجاح! فعلاً ضحك الجميع. أصحاب قهوة الزهرة والآخرون. وقال المعلم نونو موجها خطابه لسيد أفندي:

- أمنية قلبي أن أراك يوماً مثلنا!

فقال سيد عارف كالمحتد:

- هذا يدل على سوء نيتك!

وسأله عن الأقراص الجديدة، ولكنه أبى أن يذكر عنها شيئاً خشية أن تصيبها نفس!

فقال المعلم زفتة:

إنما الأعمال بالنيات!

وكان كثيراً ما يستشهد في أحاديثه بالحكم والأمثال أو الأحاديث الشريفة كييفما اتفق دون مبالغة بمقتضى الحال، ودون أن يفطن إلى شذوذ الاستشهاد عن معنى كلامه، على أنه لم يكن يتبعه إلى غفلته تلك إلا قلة من الحاضرين! وضاق سليمان بك عنة بالضجيج ذرعاً واشتد وجده القبيح كآبة فقال بحق وعنف كعادته إذا استاء أو غضب:

ـ الهدوء.. يا هوه!.. للغرزة آدابها!..

ولاحت الدهشة في وجه كمال خليل فسألها باهتمام:

ـ وما آداب الغرز؟!

فقال القرد باستياء:

ـ هذه الضجة خلية بالحانات حيث يفقد السكارى عقولهم. الغرز على عكس ذلك جديرة بالهدوء والصمت، فالخشيش سلطان يوجب على مواليه الخشوع والسكون، بالهدوء والصمت يصل إلى التخدير مداه فيصفو المزاج وتشال على الخيال الأحلام فيظفر الإنسان بشكّلات يومه ومتاعبه ويحسن التفكير فيها وحلها واحدة بعد أخرى!

ـ ولكننا نجحنا هنا لتنسى المشكلات ومتاعب لا لنفكر فيها!

ـ بحسب الرأى، إن الهروب من المتاعب لا يذهبها ولكنه ينسى عذابها إلى حين كى تعود أفعظم مما كانت، حكمة الخشيش تهينا ثقة نواجه بها المتاعب بقلب قادر على الاستهانة وتهوين خطوها فتذوب في باللوعة النسيان وتُمحى من الوجود!..

فقال سيد عارف ضاحكاً:

ـ فليس هذا بكرسى حشيش، ولكنه كرسى الاعتراف!..

وقال المعلم زفته :

- صدقت، هذا حشيش القسيس! وصدق من قال يا جحاعد  
غمك؟!

ثم قال المعلم نونو مستنكرًا ومجها خطابه لسليمان بك :

- وكيف يلزم الصمت من خلا من المتاعب؟

- وهل يخلو من المتاعب إلا حيوان!

- فكيف شعرت بها؟!

فأجابه - سيد عارف :

- لعله مالك الحزين!

ونهض عباس شفة بشعره المتتشش كالشيطان فدارت الجوزة دورتها الثانية، ومحت القرقرة لغط الحديث، وأخذ أحمد أنفاساً أشد من المرة الأولى مستوصياً بشجاعة لا عهد له بها، ويرغبة قوية في الذهول، وقد أعجبته فلسفة سليمان عنة على مقتنه له، فحاول أن يعالج حزنه العميق الذي أورده هذا المكان الخائق على طريقته لعله أن ييراً، لكنه تسلط عليه التخدير فثقلت جفونه واحمررت عيناه ومال عنقه قليلاً، ثم ساوره خوف مفاجئ فأدلى رأسه من أذن المعلم نونو وسأله :

- ألا يخشى علينا من الشرطة؟ .. هب شرطياً تسلل إلى الباب وقال ملعون أبو الدنيا؟!

فضحك نونو وقال :

- نقول له ملعون أبوك!

وبعد انتهاء الدورة جلس عباس شفة جنب زوجه الهائلة مرة أخرى وتحركت الألسن من جديد.

فقال المعلم زففة القهوجي وهو لا يمسك عن العمل :

- أبشركم يا إخوان بأن هتلر - حين يفتح الله له مصر - سيلغى أمر منع  
الحشيش وينع شرب الويسيكى الإنجليزى !  
فقال المعلم نونو :

- هتلر رجل حكيم ولا يداخلنى شك أن الفضل الأول فى مهارة  
خططه راجع للحشيش !

فسأله كمال خليل أفندي :

- وكيف أوصله إليه عباس شفة ؟

فقال نونو بلهجة جديدة :

- لا حاجة به إلى عباس شفة ، فالمخزن رقم ١٣ ملآن بالحشيش النقى !  
ثم هز المعلم رأسه كالأسف وقال بحسرة ظاهرة :

- ألم تسمعوا بما يقال من أن اليابانيين يتشارون المخدرات بين الأم التي  
يعزونها !

فقال المعلم زفة بنفس اللهجة :

- ليت الإنجليز كانوا حشاشين !

- ضاعت خمسون عاما من الاحتلال هدرا !

وهنا نهض سيد عارف بعنة وقد ارتسم على وجهه آى الاهتمام  
الشديد ، ولبس طربوشة كأنما يتأهب لمغادرة المكان ، فعجب القوم له  
وسأله السيدة عليات :

- إلى أين يا أخانا ؟

فتخطى محيط دائرة الجلوس وهرول نحو الباب متوجلا وهو يقول :  
- الأقراص نجحت ..

وغاب عن الأنوار فى لمح البصر ، فانفجر القوم ضاحكين ، وتساءل  
كمال خليل وهو يسعل :

- هل حقاً ما يقول؟!

قال سليمان عنة بسخرية:

- دعائية كاذبة كدعائية أصحاب الألمان ..

قال نونو:

- سنعلم الحقيقة بعد تسعه أشهر!

قالت عليات الفائزه:

- علم هذا على هين ! ..

وواصلوا الهزل حتى قام عباس شفة مسكا ، بالجوزة فكان نذير الصمت ، وفي هذه الدورة أخلد أحمد لتخدير غريب . وكان طول الوقت صامتا راغبا عن الكلام أو عاجزا عنه . وشعر بأن إرادته فقدت سلطانها على أعضائه ، وقد أراد أن يحرك ذراعيه ليطمئن إلى أنه ما زال متمالكا زمامه ، ولكن شعورا عميقا قويا أغراه بالعدول عن التجربة ، وهياله أنه لا يوجد في الدنيا جميما يستحق التعب أو الحركة ، وأن الرقاد والاستسلام والرضا خير ما تجود به الدنيا ، ورأى القوم خلل نفثات الدخان فحالهم أشباح دنيا غريبة أو سكان كوكب آخر ، ولا يدرى كيف ملأه ذلك الإحساس بالغرابة ، فلذ له أن يضحك ، فضحك ضحكة طويلة واهنة شابه مطلعها التاؤه وحاكي ختامها قرقعة الجوزة ، فما تمالك الحالون أن ضجو ضاحكين ! وانتبه لضحكهم رغم ذهوله ، فاعتدل في جلسته ليستعيد . ما أمكن . شيئا من يقظته ، وحدث عند ذلك شيء عجيب . حدث أن نهضت عليات الفائزه قائمة ، استطال ذلك الجسم الهائل في الفضاء ، وامتد طولا وعرضًا فملا الأعين ، وكانت مرتدية روبيا شد إلى جسمها ليبرز محاسن مقاطعه ، ثم تحرك موكيها العظيم فسارت قابضة براحتها على طرف شالها فلاح ساعدها مختفيها وراء الأسوار الذهبية ، ولما مرت أمامه ارتع الكهل على ذهوله ، رأى

الروب يتسع بعد خا صرت يها ليكتنف عجيبة لم ير مثلها في حياته ، ريانة ناهضة مترجرجة تبرز فوق الفخذين كالبشرية ، فما صدق عينيه ،  
ولاحظ المعلم نونو دهشته فقال له هامسا :

- انتبه فالست تطلعك على السر الذي أشغى أزواج الحى ، ما هذه  
بعجيبة ولكنها كنز !

قال أحمد بصوت لا يكاد يسمع :

- هذا شىء فوق ما يتصوره العقل !

- وأكثر من هذا أنها تحوى فضيلتين لا تجتمعان ، فهى من ناحية  
كالكرة المنفوخة صلابة ، ومن ناحية أخرى تسوك فيها الأصابع  
لينا !

- هذه لغز !

- نسأل الله السلامة !

قال الكهل وهو لا يدرى :

- آمين ..

وكان عباس شفة يسترق إلىهما النظر فسأل المعلم نونو متكلفا لهجة  
الوعيد :

- فيم تتحدثان ؟

فضحك المعلم ضحكته المجلجلة وقال :

- نتأمر على أنفس أثاث البيت !

وكفوا عن الكلام فسمع صوت المعلم زفقة وهو يتحدث في الجانب  
الآخر من الحلقة يقول لبعض المستمعين الأغراب بلهجة الناصح :

- ثلاثة أشياء أشير عليكم بالإكثار من اقتناها : الذهب والنحاس  
والسجاد الفارسى فقيمتها ثابتة ، تباعونها وقت الشدة أو تتتفعون  
بها فى تجهيز البنات ..

فقال رجل معهم يدعى المعلم شمبكى :  
- تبأ للبنات وللأزواج وللأمها ! ..

فأوما عباس شفة إلى المتحدث وقال :  
- أما علمتم بأن حرم المعلم شمبكى هجرت بيته غاضبة ؟ !

فتأسف الحاضرون ، وهنا عادت السيدة عليات إلى جلستها فسمعت العباره الأخيرة وقالت :  
- لماذا يا معلم ؟ أرجو ألا تكون السبب .. !

- كلا يا سيد .. زواج ابني سنقر هو السبب ، أردت أن يتم في هدوء مراعاة للظروف ، وتأبى إلا أن ترافق القيان ، فقالت لي بوقاحة :  
مالك علىٰ وعلىٰ أبنائي حرام ، أما هناك فحلال !

فقالت السيدة عليات ضاحكة :  
- هناك هذه هي أنا !

فاستدرك الرجل يقول مغيبطاً متأسفاً :  
- وقالت لي وهي تشد أطراف بقحة ثيابها : « سأذكرك دائماً بأنك الرجل الذي لم يسعدني يوماً واحداً من حياتي ! ». اسمعوا يا هؤلاء .. وهذا الكلام تقوله عشرة ثلاثين عاماً !

فقالت السيدة عليات بلهجة الانتقاد المر :  
- تبأ لها ، وارحمتها لشبابك الذي أنفقته عليها ، اصفع إلىٰ يا معلم ،  
كدلها وتزوج من غيرها .. !

فهز الرجل رأسه وقد ارتسمت شبهة ابتسامه على شفتيه ثم قال مغمضاً :  
- وهل تبقي في العمر ذخيرة ؟  
- استغفر الله يا معلم ، أنت قد الدنيا ! ..

فقال المعلم نونو متحمساً للفكرة:  
-نعم الرأى . إنه لا يؤدب المرأة إلا الزواج بغيرها ، وربنا أمر بالزواج  
من أربع !

-استغفر الله العظيم ، لم يأمر الله بذلك ولكنه أباحه على أن نعدل!  
-ومن قال لك أظلم؟

-صلوا على النبي ، أنا رجل عجوز وما من فائدة ترجى !  
-تزوج على بركة الأقراص الجديدة التي اكتشفها سيد عارف  
أخيراً !!

وهنا قال المعلم زفة متتمماً الحديث الذي قطعه المعلم شمبكى بشكواه  
العائلية :

-واقتنا خاصة السجاجيد الفارسية ، فالذهب ربما انخفض سعره ،  
وكذلك النحاس ، أما السجاجيد الفارسية فتزيد نفاسة مع الزمن ،  
المرأة القديمة لا تساوى مليماً أما السجادة ..

وعاجلته المست بطمة على صدره فصاح :  
-الضرس الباقي وقع ..  
قالت له :

-يا حشاش يا مجنون نحن نتكلّم في الزواج ، فما دخل السجاد؟!  
-لا تغضبي يا سرت فالصبر مفتاح الفرج ، وما دمت ترغبين في حمل  
المعلم شمبكى على الزواج مرة أخرى فساقص عليه نادرة تغريمه  
بالزواج (والتفت إلى شمبكى) واستمر يقول : عاد شيخ إلى بيته  
بعد سهرة طويلة فرأى زوجته نائمة على فراشها ، وكانت تتبه عليه  
إدلاً بحسنها حتى كفَّرَت عن سيناته ، فمر بها إلى فراشه وهو  
يقول بصوت منخفض : «الفتنة نائمة!» فما كان منها إلا أن  
 أمسكت بطرف الجبة وهي تقول : «العن الله من أيقظها!!» .

وشعر أحمد عند ذاك باختناق ولم يعد يحتمل جو الحجرة، ونفدت صبره، فنهض قائماً كالمترنح، وجذبت حركته الأنظار، فسأل المعلم نونو:

- إلى أين؟!

فقال بصوت لا يكاد يسمع:

- حسبي هذا!!

- هذه نهاية البداية! وما يزال أمامنا القافية والغناء والذهول  
ال حقيقي ..

ولكن الرجل أصر على الاعتذار، وتحرك في بطء وشاقل، فقال المعلم زفة:

- أقراصك نجحت أنت أيضاً؟!

وغادر الشقة؛ وأمسك بالدرايذين ونزل متشارقاً وما زال يهبط ثم يهبط حتى خال السلم مفضياً إلى مركز الأرض، ولكنه انتهى إلى الطريق وخبط راجعاً إلى حجرته بعد أن قام بأخطر رحلة في حياته، وكانت الساعة تقترب من الثانية فخلع ملابسه في إعياء، وأطفأ النور واستلقى على الفراش. ولم يسارع إليه النوم كما توقع، وتبيّن له أن تخت جفنيه يقطة قلقة حائرة، وشعر بقلبه يطلق خفقات سريعة قوية مضطربة خالها تشيل الغطاء وتحطه، وتزاحمت الصور بخيالته فالتبست وغرقت في غموض، إلا صورة واحدة غلت ما عداها، تلك المرأة الهائلة، فهل يلتمس وصالها كالآخرين؟ ولكن مهلاً، ماذا يفعل بها، إنها إذا احتضنته صغر وضؤل وصار كالبرغوث في أيط الفيل، كلاماً تلك بامرأة، إن هي إلا رمز لدنيا الشهوة الساخنة التي انغرست قدماء في شاطئها وحملقت عيناه في عبابها، وتضاعفت ضربات قلبه فجف ريقه، وتهيأ له أنه يهوى من على في فضاء لا نهائي ففزع جالساً في

فراشه، وداخله شعور بالخوف واليأس.. ولبث حتى مطلع الفجر  
يعانى آلاماً فظيعة، جسمية ونفسية..

٣٣

ولم يفكر بعد ذلك فى معاودة المغامرة. ولم يجد فيه دفاع المعلم نونو وتأكيده أن ما حدث له إنما كان مرجعه إلى أنه لم يطعم حلوا بعد التدخين مباشرة، فأعرض عن إغراء الرجل وقال لنفسه يتأنى كعادته: «الظاهر أن الطبائع العقلية ليست بذات استعداد للتتمتع بهذه الشهوات». على أنه لن يمسى بحاجة إلى هذا المخدر كى ينسى شجونه، فغدا إذا تم زواج شقيقه من الفتاة برأ هو ونسى. بيد أن رشدى ما زال يخبط فى سيله على غير هدى، ولم يخفف من غلواء عبئه واستهتاره، فلم يسترد عافيته بل وسأط حالته، ولم يعد يخفى على عين إنسان هزاله، واستحال شحوب وجهه صفرة، وجعل يتناوبه سعال شديد ثم فترت شهوته للطعام. فهال أحمد أمره، وقال له بلهجة حازمة:

-كأنك لإهمالك صحتك قد عدلت عن آمالك! لماذا لم تأخذ نفسك بالاستقامة حتى تسترد صحتك؟ لذلك استعصى شفاوك من مرضك الأول وأصابك هذا السعال الشديد، وما ينبغي لك بعد اليوم أن تعاود السهر أو الشراب، فماذا أنت فاعل؟!

ولم يكابر رشدى كعادته، لأن وطأة السعال كانت شديدة عليه، فقال بتسليم ليس من دأبه:

-سمعاً وطاعة!

قال المغرم بتعذيب نفسه:

-تعجل الشفاء يا رشدى قبل أن يستنجزك وعدك أهل الفتاة!

وأبدى الشاب المريض عزية صادقة ، فانقطع عن كازينو غمرة ، ولم يغادر البيت مساء إلا لإعطاء تلميذيه الدرس الخصوصى . وهو واجب يستعذبه قلبه ولا يعدل به لذة . ولأول مرة مذ فارق صباحه حاول أن يأوى إلى فراشه فى الساعة العاشرة ، مما دعا أحمد إلى الإعجاب المطلق بصنع الحب الساحر . إلا أن الشاب لم يضجّ بـ رحلة الصباح عن طريق الجبل على ما يقارنه فيها من شدة البرد القارص ! لأنها كانت متعة قلبه وزاد أحلامه . وصبر على تلك الحياة المستقيمة أيام دون أن يطرأ على حالته ما يبشر بالشفاء . بل نال السعال من حنجرته فاخشوشت وبح أخيرا صوته ، فتعذر عليه ترديد أغانيه المحبوبة . وكان عيد الأضحى قد أصبح على الأبواب ، وأخذت له الأسرة أهابتها ككل عام ، فجئء بكبس التضchio وشد من عنقه إلى نافذة المطبخ حيث لم يجدوا له مكانا سواه في الشقة ، ومضت الست دولت تصنع الرفاق . وقد تشكي أحمد . كعادته . ارتفاع ثمن الخراف ، وقال إنه ربما تعذر عليهم ابتياع كبش في العام القادم ، فهال أمه القول وقالت له ضاحكة :

-ابصق هذه النية وطهر فاك الشريف !

وجاء العيد في الأيام الأوائل من يناير سنة ١٩٤٢ ، واستقبلته الأسرة . والحمد لله جميـعا . بالبشر والفرح ، وحفلت المائدة باللحوم أشكالا وألوانا . ومن عجب أن رشدى لم يخرج عن نظامه الجديد في العيد ، والحق أن إعياءه لم يمكنه من إشباع رغباته ، أما أحمد فأمضى عطلة العيد في قهوة الزهرة ، ولكنـه لم يذعن لإغراء المعلم نونو فخاب سعي الرجل لاستدراجه مرة أخرى إلى بيت عليات الفائزة ، وهـل يمكن أن ينسى ختام تلك الليلة الجهنمية ؟ ثم كان صباح اليوم الرابع من أيام العيد . وفي ذلك الصباح حدث ما جعل أحمد يذكره على الدوام ، وقد استيقظ في متتصف التاسعة ومضى إلى الحمام كعادته ، فوجـد رشـدى

مكبا على الحوض يسعل سعالا شديدا يضطرب له جسمه الهزيل،  
فاقترب منه حتى ضار لصقه، و مد يده ليربت على منكبه فلاحت منه  
التفاتة إلى الحوض فرأى بقعة حمراء! فتصلت يده و خفق فؤاده خفة  
انخلع لها صدره وهتف بصوت متهدج:

-رباه! ..

ثم نظر نحو شقيقه في ارتياع، وكان كف عن السعال ولكنه لم يزل  
في غيبوبة منه، يعلو صدره وينخفض، ويتنفس بصعوبة، وقد احمرت  
عيناه. فترى الرجل حتى استعاد الفتى أنفاسه، وقال بلهفة متزعجا  
وهو يشير إلى البقعة الحمراء:

-ما هذا يا رشدى؟!

فرفع إليه الفتى عينين كثيدين وقال بصوته المبحوح:

-هذا دم!

-رباه!

فتحلى الحزن في عيني الشاب، ثم أفلت منه زمام نفسه فاغرورقت  
عيناه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

-أصبحت واتهيت!

فقال أحمد وكأنه يتولى إليه:

-لا تقل هذا!

فقال الشاب بقنوط:

-هي الحقيقة يا أخي!

وفتح أحمد الصنبور ليغسل الحوض، وتأبط ذراع الشاب، وسار به  
إلى حجرته. حجرة الشاب. ومضى إلى النافذة فأغلقها، وجلس رشدى  
على الفراش فأتى الآخر بكرسى وجلس أمامه، ثم سأله بعد أن ازدرد  
ريقه:

- ماذا تقول يا رشدى؟ ! صارحنى بكل شئ ..

قال الشاب بهدوء :

- ذهبت أخيراً إلى طبيب فقال لي إن بالرئة اليسرى مبادئ سل !

٣٤

والحقيقة أنه ظل يعاني آلاماً بارحة منذ منتصف ديسمبر، وحدث أن اشتدت عليه نوبة السعال في المصرف مرة فاستخرج منديله ليتحقق فيه فما رأوه إلا أن بصره فيه دمًا! ورمق البصقة الدامية بنظرة ذعر وارتياح، ثم دس المنديل في جيبيه خشية افتضاح أمره. وغادر المصرف إلى عيادة طبيب أخصائى في الأمراض الصدرية، وجلس بين المتظررين يقلب بصره الزائف في الوجوه الشاحبة والأجسام الهزيلة ويسعل مع الساعلين واستولى عليه القلق والانزعاج، وتساءل هل يقع فريسة لذك المرض الخطير الذي تتشعر لذكه الأبدان؟ وكان سمع مرة صاحبها يقول إن السل داء لا براء منه، فذكر قوله خافق الفؤاد. ولم يكن سبق أن أصيب بمرض عضال، فأشفق من أن يكون ذاك الداء الوبييل أولى تجاربه القاسية، واشتد به القلق في جلسته حتى تهيا له أن يقتحم حجرة الكشف، ولكنه تصرّ حتى جاء دوره فدخلها يقاوم جاهداً اضطرابه وانزعاجه. وألقى على أركان الحجرة نظرة عجلٍ خطفت العدد والآلات وأخيراً الطبيب العاكف على حوض صغير يغسل يديه، ثم انتظر واقفاً، وجفف الدكتور يديه والتفت نحوه. كان قصيراً نحيفاً دقيق الأعضاء، إلا أنه كبير الرأس أصلعه، واسع العينين جاحظ الحدقتين، حاد النظرة. فحياء الشاب برفع يده إلى رأسه، فقال له الرجل بصوت رفيع :

-أهلا وسهلا . تفضل بالجلوس .

فجلس رشدى على مقعد كبير ، ودلف الدكتور من مكتب أنيق وجلس أيضاً وراءه واستخرج كراسة ضخمة وفتحها وسأل الشاب عن اسمه وصناعته وعمره ورشدى يجيب . ثم حده ببنظرة الاستفهام التقليدية فأشار رشدى إلى صدره قائلاً :

-أريد أن أكشف على صدرى .

وما كاد يتم قوله حتى انتابه سعال عنيف ، فانتظر الدكتور حتى أمسك واسترد أنفاسه وسأله :

-هل أصابك برد؟ .. متى؟ ..

-أصبحت بالإنفلونزا منذ أكثر من أسبوعين ، وكانت حادة ، والظاهر أنى استأنفت عملى قبل أن أبراً تماماً ، فلم يفارقنى الإعياء ، ثم كان هذا السعال العنيف فتدھورت صحتى ..

وأسهب الشاب في وصف السعال وألامه وعما فقد من وزنه ، فقاطعه الدكتور متسائلاً :

-ومتى بع صوتكم؟

فأجاب الشاب :

-منذ أسبوع على الأقل .

فأمره أن يعرّي نصفه الأعلى ، فقام الشاب ، وأخذ في فك رباط رقبته ثم خلع السترة والقميص والفالنة ، وتصدى للطبيب نضوا مهزولاً ، ووضع الرجل السماعة على أذنه وجعل يتلقى بها آثار نقر سبابته على الصدر والظهر . لاحظ رشدى أنه كرر ذلك كثيراً على موضع في أعلى النصف الأيسر من الصدر ، وطلب إليه أن يرتدي ملابسه ، ثم سأله :

-هل بصقت دما؟

فانخلع قلب الشاب ، وترىث قليلا ، ثم قال بصوت منخفض :  
ـ نعم .. لاحظت ذلك مرتين أو ثلاثة !

فجاء الطبيب بقنيةة زرقاء وأمره أن يتتحنح بشدة ويصدق فيها ، ثم  
مضت فترة وجيزة ورشدی متتصب القامة ، ثقيل الأنفاس كمن يتظر  
النطق بالحكم ، وقال الدكتور :

ـ إنني أشك في وجود حالة ما في الرئة اليسرى ، وليس من الحكمة  
الجزم بشيء الآن ، ولكن اذهب توا إلى الدكتور ( . . . ) ليصور  
صدرك بالأشعة وعد إلى بالنتيجة .

وحذره من أن يشق على نفسه بأى مجهد ! ولكن رشدی لم ييرح  
موقفه وقد تجهم وجهه وغضيته كآبة ثقيلة . فاستطرد الدكتور قائلاً :  
ـ عسى أن أكون مخطئا ! ولكن حتى لو صبح ظني فالإصابة بسيطة .

ومضى إلى الدكتور الآخر لتصويره بالأشعة ، وانتظر أياما يعاني  
آلام نفسية مروعة إلى جانب آلام السعال . ولم يكن في الحقيقة مطبوعا  
على الخوف أو الوساوس والأوهام ، ولكنه وجد نفسه فجأة تحت رحمة  
أفتک الأمراض ، وأثر فيه اسم المرض تأثيرا بالغا . ثم رجع إلى الدكتور  
الأول ومعه صورة الأشعة ، وفحصها الرجل بعناية ثم تحول إليه قائلاً :  
ـ كظني تماما ! .. سمه خدشا خفيفا أو قذارة سطحية إن شئت .

وغاض الأمل ، ولاح القنوط في العينين العسليتين وهما ترمقان  
صورة الأشعة بنظرة ساهمة لا تفقه شيئا . خدش خفيف أو قذارة  
سطحية ! .. هل تضحي الحياة رهينة بهاتيك التوافه !

وقال للدكتور بصوت حزين :

ـ فلنسمه بما تشاء ، فهل يعني هذا إلا أنه سل لا يرجى له شفاء !  
فحدهجه الدكتور بنظرة استنكار وقال بصوته الرفيع :

ـ لا يهونك هذا الاسم ، واطرح جانبا المخاوف التي لا أساس لها من

الحق أو العلم، واعلم أن حالتك مضمونة الشفاء إذا اتبعت ما أنا  
موصيك به ..

وأمسك قليلاً كالمتفكر، فقال الشاب بإشفاق:

- يقولون إن هذا الداء لا شفاء منه!

فهز الرجل منكبيه باستهانة وقال:

- انبذ هذه الآراء، واعلم أنى كنت يوماً من ضحاياه، بيد أنه يلزمك  
الغذاء الجيد جداً والراحة التامة والهواء الجاف النقى، وكل أولئك  
متوفّر في المصحّة، فإلى حلوان دون تردد.

- وكم يستغرق العلاج من الزمان؟

- ستة أشهر على أكثر تقدير!

فانقبض صدر الشاب، وأيقن أن هذه المدة تقضي عليه حتماً بفقد  
وظيفته، وغداً إذا ذاعت الحقيقة وعلم بها «الجيران» فقد فتاته كذلك!  
فنفر من اقتراح المصحّة، وقال للدكتور:

- وإذا كانت هذه الشروط متوفّرة في البيت؟

- أين تقطن؟

- في خان الخليلى ..

- هذا مكان رطب فيما أعلم، والمصحّة خير مأوى لك، ولا تنس  
العناية الطبية هنالك!

وقوى أمله في أن يستشفى في البيت دون أن يعلم بسره إنسان  
فيطمئن على وظيفته وفتاته، فقال:

- وإذا تعرّضت على الانتقال إلى المصحّة؟

فهز منكبيه تارة أخرى وقال:

- هنالك ينبغي لك مضاعفة العناية في البيت، خصوصاً الراحة

والغذاء، فإياك أن تفارق فراشك، وسأصف لك العلاج الطبي ..

-ثمة سؤال آخر: هل يمكن.. . أعني متى يمكن أن يتزوج من كان  
مربيها مثلثي؟!

فابتسم الطيب لأول مرة ثم قال :

-أرجو بالعناية أن تبراً بعد ستة أشهر، ومن الضروري بعد ذلك أن تبقى عاماً كاملاً تحت الاختبار، ويا حبذا لو صبرت نصف عام آخر .. !

أحد على سرّه . وبذلك يسترد صحته محتفظاً بسره ووظيفته وحببته .  
هكذا تسلسلت أفكاره ، ويسر له الاقتناع بها أن قواه كانت وما تزال  
متماضكة ، وقدرتها على النشاط والحركة متوفرة . وشرع في العلاج  
منظرياً على سره حتى شاءت المصادفة أن تطلع أخيه عليه ، فبرح الخفاء !  
والواقع أنه لم يأسف لذلك كثيراً ، لا لأن أخيه قطعة من نفسه فحسب ،  
ولكن لأن صدره بات يتصرّع بسره الخطير ، فوُجد في البُوْح لشقيقه  
ارتياحاً وسلاماً ، فأفضى إليه بكل آلامه ، ما عدا ما يتعلّق منها بالصحة  
مستوصياً بالحذر ..

## ٣٥

وأصغى الكهل إليه في صمت وذهول وحزن عميق ، وزايته الحالة  
المضطربة التي كانت تتعثر مشاعره نحو أخيه فتسقط عليها ألواناً متضادة  
من الميل والنفور ، فلم يعد يشعر نحوه بغير شعور واحد لا يقاوم ،  
ودرَّت حنایاه له حباً خالصاً وإشفاقاً شديداً وحزناً مبرحاً .

ييد أن ذكرى خطّرت من الماضي القريب الأسيف ، ولكنه ذُبِّأَ عن  
مخيلته بقسوة خجلًا ثائراً وامتلاًًا صدره حنقاً على الفتاة التي  
استثارتها !

وانتهى رشدي من قصته فتبادلا نظرة أسى وحزن وكآبة .

ثم قال أحمد :

- هذا أمر الله ، لن نتأس من رحمته ، فينبغي أن نصدق الطيب فيما  
يقول فليس العهد بالأطباء أن يكذبوا رحمة بمرضاهم . فالإصابة  
إذن بسيطة ولكن ينبغي أن نحشد لها كل ما في وسعنا من عناية

وحكمة، وإن كان يدهشنى أنك لم تفضل إلى بالحقيقة في  
وقتها..!

فقال الشاب بسرعة وإن خالف الواقع:

- عرفت الحقيقة قبيل العيد مباشرة فلم أرد أن أزعج أحداً، ولكنني  
كنت أتحين الوقت الذي أفضى إليك بالأمر وحدك!

فقال أحمد بحزن شديد:

- هي إرادة الله، فلننضر على حكمه حتى يمن علينا بالشفاء، وهو  
أرحم بنا من أنفسنا، والآن فأخبرني عما عزّمت عليه.

فساور رشدي القلق، ورمق أخاه بحذر وهو يقول:

- سأنفذ وصايا الدكتور بطبيعة الحال، وقد أوصاني بالراحة والتغذية  
الحسنة وبعض الحقن!

فبداعلى وجه الرجل كأنه لم يقتنع بما سمع وقال:  
- ولكن المصابين بهذا المرض يقصدون عادة إلى المصحة!

فكذب رشدى مرة أخرى قائلاً:

- لم يوجد الدكتور ضرورة للمصحة!

فلاح الأمل في نظرة الكهل الواجم وقال:

- علّها إصابة تافهة يا رشدي!

- أجل.. أجل.. هذا ما أكده لي!

- عسى ألا تطول إجازتك!

فعاد القلق يساوره، وقال بصوت منخفض:

- ولكنى لن أطلب إجازة!

فانزعج الرجل وقال بإنكار:

- فكيف يتم استشفاؤك؟! .. إياك وأن تستهتر بالمرض مهما قيل عن  
بساطة الإصابة وحسبك استهتارا يا رشدي!

- معاذ الله أن أستهين بحياتي يا أخي ، وسترى بنفسك منذ اليوم أنى  
سأخذ نفسي بالراحة المطلقة فيما عدا أوقات العمل ، وسأعوض ما  
أبذله من قوای لعملی بالغذاء المختار والأدوية المقوية . أما طلب  
إجازة مرضية فمخاطرة بوظيفتي ومستقبلی !

- ألا تغالى في تقديرك؟!

- كلا يا أخي ، فإذا عرف طبيب المصرف مرضي استحال على العودة  
إلى العمل قبل الشفاء التام ، وقد يقتضي ذلك زمنا طويلا لا آمن  
معه أن أفضل من وظيفتي ! بل الفصل محتم في تلك الحال نظرا لما  
منحته من إجازات مرضية هنا وفي أسيوط من قبل ..

فتحهم وجه الكهل واشتد عليه الضيق ، ثم قال بتأنم :

- رباه ! الصحة فوق الوظيفة ، كيف يتاح لك الشفاء وأنت جاهد في  
عمالك !

فقال رشدي برجاء وانفعال :

- لقد استأذنت الدكتور في ذلك فأذن لي ، وهو أدرى ، وسيتم الشفاء  
بإذن الله بغير ضياع مستقبلی ، وبغير «فضيحة» .

فاشتد التأثر بأحمد وقال مستنكرا :

- فضيحة! .. ليس في الأمر فضيحة ، هذا بلاء من الله ، وكل إنسان  
عرضة للأمراض إلا من أمر الله له بالسلامة ، ولكنني أخاف ..

- لا تخاف ، وادع لى ربك ، وستجد مني ما يطمئن خاطرك !

فسكت أحمد مغلوبا على أمره . وتنهد الشاب بارياد ، وراح  
يحدث أخاه بما سوف يتلذذ من تدابير الوقاية ، فقال له : إنه سيحضر  
حامض فيك لتطهير الحمام والحووض كل صباح ، وإنه سيقتنى أواني

خاصة لطعامه وشرابه متعللاً بأنها هدية من شخص عزيز، وأنصت الرجل إليه بانتباه ولأول مرة خامرته الخوف والقلق، وخشي العدوى، وكان بطبيعة هيّاً موسوساً. أما رشدى فكان يتحفز لضراعة جديدة لا تقل خطراً في نظره عما سواها إن لم تزد، فقال:

-وهنالك يا أخي أمر عظيم الأهمية أرجو أن ترعاه بالعناية التي أرعاها  
بها، وهو أن يبقى ما دار بيننا سراً دفيناً.

فدهش أحمد، وذكر ما قاله متذمّر لحظات من أنه سيقتني أواني خاصة  
متعللاً بأنها هدية، فغمغم قائلاً :  
- والدانا؟!

**فقاول رشدی بحزم:**

لَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَا بِشَيْءٍ، فَلَا دَاعِ لِإِذْعَاجِهِمَا، ثُمَّ إِنْ فَزَعَ أُمَّى  
كَفِيلٌ بِالْفَضْحَ الْسَّرِّ!

فارتبك الرجل، وأيقن أنه مقبل على حياة مؤلمة غريبة، فتنهد  
قائلاً:

- ييدك الأمري يا رشدى ، فإذا توثبت للشفاء حقاً ممكناً أن يظل السر سراً ، أما ..

لا تخف لم تعد الاستهانة ممكنة بعد اليوم ..

وأدرك بسهولة ما يحمل الشاب على إخفاء مرضه حتى عن والديه، فإنه ليخاف أن ينمو الخبر إلى مسامع أسرة فتاته فيهون عليهم بمرضه. وتأثر لذلك غاية التأثر، وتغلغل الحزن في أعماق قلبه، بيد أنه خشي أن يكون الشاب قد شق على نفسه بالاستمرار في عمله - على مرضه - ليبدو أمام الفتاة وأسرتها كالسليم المعافي، خشى أن يؤذى نفسه في سبيل حرصه على الفتاة، فاستجمم شجاعته وقال بصوت كالهمس:

- رشدى إذا كنت ترغب عن طلب الإجازة كي يبقى الأمر

سرا، فيمكن أن تختلق سبباً نعتل به على طلب الإجازة غير هذا المرض !

ولكن رشدي هز رأسه بحدة وقال بلهجة دلت على البرم :

- لا تعد إلى ما انتهينا منه !

فسكت أحمد، ثم نهض بعد فترة وجيزة وهو يقول :

- تشدد وكن رجلاً كعهدك لك دائماً، واعلم أن الشفاء رهن بإرادتك، حفظك الله ورعاك.

ورجع إلى حجرته محزوناً ضيق الصدر، وقد استشار الداء الخطير مخاوفه فاهتز فؤاده عطفاً على شقيقه المحبوب، نسي في تلك الساعة أنه كان الآلة التي طعن القدر بها آماله، أو أنه الشخص الذي جرح كبرياءه وداس غروره، ورأه على حقيقته الأخ المحبوب الذي نشأ بين ذراعيه وغذى عواطف الأبوة من نفسه عشرين عاماً، ولما حانت منه التفاتة إلى النافذة المغلقة التي سماها يوماً بنافذة نوال تحول عنها الغاضب، وأبي قلبه أن يذكر الفتاة لأن استدعاءها إلى رأسه جريمة لا تغتفر في حق الشاب المريض، فينبغي أن تقطع هذه الكارثة المحزنة ما تخلف من أسباب الذكريات، وقال لنفسه : «ذاك شيء انتهى وانقضى»، والتأسف عليه وخز لعواطف الحب التي يكنها قلبي لشقيقى» وكان يتكلم بحدة دلت على السخط والاستياء، والحق أنه كان ساخطاً على نفسه، فلم ينس أمنيته الآئمة أن تبيد القاهرة، ولا حلمه المخيف الذي استيقظ منه على تأوهات الشاب ليلة اشتداد الحمى عليه، رياه أى شيطان مقيد في أعماقه ينفث هاتيك الأخيلة ! ..

وتُوثب رشدي عاكف بحماس لمقاومة مرضه الخطير، وواظب على تناول ما أشار به الدكتور من الحقن والأدوية، وشخص نفسه. فوق طعام البيت المعتاد. بأغذية ملحوظة الفائدة كاللبن والبيض والعسل والكبد والحمام، وأنفق في ذلك عن سعة، وكان يطلع أخيه على خطى كفاحه أولاً بأول ليطمئن فؤاده المحب. ومضى شهر ينابير جمیعه ببرده القارص على حال تبشر بالخير. فقنع من يومه بساعة سرور واحدة يقضيها بين تلميذيه المحبوبين، ثم لا تأتى الساعة العاشرة مساء حتى يكون قد راح في نوم هادئ عميق. وزايلت البحة صوته وخف السعال فأوشك أن يزول، وراغه ذلك وأيقن فرحاً جدلاً أنه يتماثل للشفاء، ولكن هزاله لم يزل ولو نه لم يسترد. وكان يزور الطيب كل عشرة أيام فوالاه بالنصح ووصاه بضاعفة العناية.

وقد كانت أيام المرض الأولى سوداء؛ فوق فريسة للأوهام والمخاوف، وخارمه شعور مفزع بالقنوط، وتهيأ له أن حياته تؤذن باللوداع، حياته التي يكن لها حباً لا يكنته لها أحد من بينها المخلصين، كلما ذكر أنه في القاهرة حينما كان ينبغي أن يكون في حلوان، وأنه في عمل بينما كان ينبغي أن يكون في أجازة، اشتد خوفه وفرجه، يبدأ أن أولئك الانفعاليين لا يعرفون التردد فيما تدعوه إليه أهواهم، ويتحذرون من عقولهم ما يتخدنه الآثم من المحامي الماهر، فاستطاع أن يقنع نفسه. حتى في ساعات خوفه - بوجهه الرأى الذي ارتاه ونفذه. ولما زايلت صوته البحة وسكت فيه السعال أو كاد، غمرة الارتياح، واسترد ثقته

بنفسه، وشعوره بالأمان وتعلقه بالأمل، وتساقطت الطمأنينة على فؤاده المروع قطرات من السكينة والرحمة. ولم يمض على ذلك أمد طويل حتى عاوده شعوره بالجسارة وتزوجه إلى الاستهتار، وألح عليه حبه العميق لمسرات الحياة، فلم يعد المرض وخطره شغله الشاغل. ورمق صبره وقوه إرادته بعين الإعجاب، وذكر شهر بنابر -الذى أذعن فيه لما عاهد عليه نفسه أمام أخيه- بالدهشة والإكبار، وكأنه لا يصدق أنه استطاع حقا أن ينزوى ويستقيم شهرا كاملا. ومن فرجة الأمل الباسم سمع مسرات الحياة -مسرات حياته- تناגיء بهمساتها الساحرة كتغاريد البلابل فى الصباح الباكر، فذكر فى وحده الإخوان وكازينو غمرة والليالي الصاخبة. فتخايلت لعينيه وجوههم المرحة، ورنت فى أذنيه أصداء ضحكاتهم المجلجلة، ودعاؤهم له بقلب الأسد، كنيته التى يحبها ويطرب لها ويختلف عليها عوادى النسيان. يا لهم من إخوان لا تطيب الحياة إلا بهم، ما أظرفهم وما أطففهم! وهل يمكن أن ينسى كيف اثنالوا على السؤال عنه بالتليفون فى المصرف حين انقطع عنهم؟! أين أنت يا عم رشدى؟ ما هذه الغيبة الطويلة؟ لقد كنت فى أسيوط أقرب إلينا منك وأنت فى القاهرة! إلام يبقى كرسى قلب الأسد شاغرا؟ أو حشتنا نقودك! ولكن ضاحكهم ودافعهم واعتذر لهم بمشاغل هامة! وأهاجه الحنين إلى الصحاب واستفزه الشوق إلى المرح، واستهامته اللهفة على اللذات، وجعل يقول لنفسه هل فى لقاء ليلة حرج؟! هل تقتل سهرة أو تحيت؟! والحق أن هيامه بالحياة لم يفتر بسبب الداء، بل بالأرجح أنه غدا أرهف حسا وأعنف نشاطا وأ Prism حبا وولعا، ثم استحر بالإغراء فانعدم التردد، ووجد لخلاصه من عذاب الحرية ارتياحا فراح يدندن بصوت رخيم «ما اقدرش أنساك»، ولم يكن ترجم بغناء منذ شهر ونصف. وعندما أتى المساء تلفع بمعطفه وأحكم الكوفية حول عنقه

ومضى إلى السكاكيني، وما أن لاحت لعينيه حديقة كازينو غمرة حتى  
هتف من أعماق الفؤاد «أهلاً وسهلاً ومرحباً». وتلقاه الإخوان  
بالسرور، فاستسلم لتيارهم الجارف، وأخذوا في الحديث الماجن  
كعادتهم طويلاً، ثم انتقلوا إلى البهو الداخلي يدخنون ويسربون  
ويقامرون، وخف أني متنع عن لذة فيشير الظنون، ورغم من ناحية  
أخرى أني يتناهى -في يقظة الأمل- أنه يطوى في رئته اليسرى ما تقدّس  
الأبدان لذكر اسمه، فدخل بسرور وشرب كأسين من الكونياك بعثا  
الدفء إلى جسده البارد، وقام أيضاً وإن تردد قليلاً لأن تكاليف  
الدواء أرهقت ميزانيته، ولكن الحظ ابتسم فريح زهاء الجنين، وأب  
مسروراً وإن شعر بحرارة تلتهم أنسجته، وأجهده المشي في الجو  
القارص، وبلغ البيت في حالة مضعضعة من الإعياء، وما إن أغلق  
الباب في هدوء حتى انفتح باب حجرة أحمد ولاح الرجل وراءه،  
فدعاه إلى حجرته، ومضى إليها مرتبكاً يمشي على استحياء،  
وهتف به أخوه:

ـ ماذا فعلت؟ .. هل جنتت؟ .. أهذا ما اتفقنا عليه؟!

ـ فلاذ بالصمت وقد ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة تدل على  
الارتياح والخرج فاستدرك أحمد:

ـ هذا فوق التصديق، وما دريت به حتى نبا بي الفراش، وظل نومي  
خفيفاً قلقاً حتى أيقظتني صفة الباب، أهذا ما اتفقنا عليه؟

ـ وخرج رشدي عن صمته بأن قال بصوت منخفض:

ـ أنت تعلم يا أخي أنني حافظت على الاتفاق شهراً كاملاً، ثم  
نازعني نفسي أن أرُوح عنها قليلاً ..

ـ هذا كلام إنسان يجهل الحقيقة أو يتتجاهلها، ألا تعلم أن استهثار  
ليلة واحدة يهدى ما بنته في شهر كامل؟!

- ولكنني في الواقع أشعر بتحسن كبير!

فقال أحمد بحدة:

- أنت تخدع نفسك، وتقسو عليها بجهلك، وتركك حرا خطأ كبير، ولو كان الدكتور يعلم بما فطرت عليه من استهتار لحتم عليك أن تنتقل إلى المصحة غدا الكشف عليك.

فتجلى الحزن في عيني الشاب، وتکدر صفوه، وكان الجهد قد أعياه، فقال كالمعاتب:

- لا تكون قاسيًا على غير عهده.

- ها أنت ذا لا تفرق بين الحنان والقسوة، فتدعونى قاسيًا جراء قلقى وسهامى وإشفاقي، فلكم تقسو على نفسك وعلىّ!

واشتبد بالشاب الإعياء والتأثر، فاغرورقت عيناه، مما أسلكت غضب أحمد وحوله إلى إشفاق وتألم وعدم ارتياح، فوضع يده على كتف الشاب وقال بهدوء:

- حسبك تعبا وحسبي ألمًا فلا تبك لا بكى أبداً، ولن أزيدك فالله وحده كفيل بأن يلهمك الصواب، إن قلبي يخاف عليك ويدعو لك فامض إلى فراشك واتق الله في صحتك!

وجعل يتساءل متزعجاً ترى هل يستعيد الشاب سيرته الأولى من الاستهانة بالرغم من مرضه الخطير؟

السحاب الجون، فأمسك الأرض كفرخ في بيضة، ترقب الربيع لتشق حجاب الظلماء عن بهجة النور وعبر الأزاهر، وظل رشدي جسدا مهزولا في قرارته ضرام لا يخدم من العواطف والأحساس وفي قلبه ترد ثائر على الأغلال التي صدقده بها المرض الخطير. وكان الطبيب أعاد عليه الكشف أخيرا وقال له إن حالة الصدر لم تتحسن! فخاب أمله، وتৎفض عليه سروره السابق بشفاء صوته وسعاليه، لقد صبر طويلاً، وهجر الحياة التي يعشقها، وكان يرجو ويأمل، فمتنى تتحسن إذا، والأدهى من ذلك أن الطبيب ألح عليه أن يجد سبيلا إلى حلوان، فهل أيس الرجل من أن يسعى الشفاء إليه في القاهرة؟! وما جدوى العذاب والصبر إذا؟ فضلا عن هذا فأخوه لا يخفى عنه عدم ارتياحه لهزاله وشحوبه، فبات ساخطا متبرما.

وكان ذات مساء يلقى درسا على تلميذه، فكلفت نوال أخيها أن يحضر كوبا من الماء، ولما خلا لهما المكان قالت للشاب بسرعة متسائلة: «ألا تستطيع أن تقابلني صباحا كما كنت تفعل؟ .. ولو مرة واحدة!» فخفق قلبه خفقة السرور وقال دون تردد، متعاميا عن العقبات جميعا: «غدا صباحا!». ثم ذكر أخاه الذي صار سجانه فقال لنفسه: «إنه سليم بضرورة خروجي صباحا الساعة الثامنة، فما يضيره لو قدمت الميعاد ثلاثة أربع ساعة؟». ونهض مبكرا في اليوم الثاني، وتناول فطوره الدسم، ورصد أخاه حتى دخل الحمام فانطلق إلى الخارج كالهارب، ورأى في المر المرتضى إلى السكة الجديدة حيثيته تسقيه بخطاها الخفيفة مرتدية معطفها الرمادي، متابعة حقيقتها، فطرب قلبه طريا أناساه شجونة، ثم صعد في أثرها طريق الدراسة، فذكر كيف كان يصعد هذا الطريق في أعقابها صحيحا معافى صافى أديم الفؤاد، وتنهد من أعماق فؤاده متحسرا مغمغما: «ما نفس كنت الصحة!». ورفع بصره إلى جبل المقطم وقد أطبقت السحب على قمته، وكانت السماء تذكرة دائما بربه.

فدعوا الله أن يأخذ بيده!

ولحق بها بعد المنعطف، وأخذ ينها بيسراه، فعطفت رأسها نحوه  
وعلى ثغرها ابتسامة، وقالت تداعبه بلهجة لم تخل من عتاب:

- أهان عليك طريقنا هذا أيها الغادر؟

فهز رأسه متأسفاً وتم:

- عن الله البرد!

- كان ينبغي أن تبراً منذ أمد طويل، فما هذا التلاؤ؟!

فامتعض قليلاً وقال:

- أجل، وما بقى فهو هيّن.. . والحق أن إهمالي هو المسؤول الأول!

وكان تعلم طبعاً أنه انقطع عن لقاء الصباح بسبب السعال، فلما زايله السعال تشجّعت ودعته إلى مراقبتها شوقاً إلى الانفراد به، وقد اختلست نظرة من وجهه الشاحب النحيل وقالت له:

- ألا تدرى ماذا تقول عنك نينة؟

فخفق فؤاده، وخشي أن يسمع تلميحاً ليقا إلى مسألة «الخطوبية»  
وسألهما:

- ماذا تقول يا ترى؟

- قالت لى ضاحكة: ما بال أستاذك نحيفاً كالخيال؟! .. هلا تقبل  
مني وصفة للسمن؟!

وضحكـت نوال ضـحـكة رـقـيقـة، فـجـارـاهـا فـي ضـحـكـهـا، ليـجـارـى  
شـعـورـاـ بالـحـزـنـ غـشـىـ صـدـرـهـ، وـساـورـهـ الـقـلـقـ، ولـكـنـهـ لمـ يـرـ بدـاـ منـ آـنـ  
يـقـولـ بـلـهـجـةـ تـكـلـفـ بـهـ السـرـورـ:

- وما حاجـتـىـ إـلـىـ السـمـنـ وـالـنـحـافـةـ مـوـضـةـ؟! أـبـلـغـيهـاـ شـكـرـىـ وـقـولـىـ  
لـهـ إـنـىـ طـامـعـ فـيـ المـزـيدـ مـنـ النـحـافـةـ.. .

وقطـبتـ فـجـأـةـ كـأـنـاـ ذـكـرـتـ أـمـراـ ذـخـطـرـ وـقـالـتـ بـلـهـجـةـ التـعـنـيفـ:

- على فكرة يا ماكرا! .. يحلو لك أحياناً ونحن حول مائدة الدرس  
أن تداعب قدمي بقدمك متوجهلاً أن قدميك متتعلتان وقدمي  
عاريتان!

فصحاح رشدي، وقد توردو وجهه، وقال:

- نفسي فداء لقدميك العزيزتين!

ومرا عند ذاك بالقهوة المعروفة بنادي الصحراء، فقالت له وهي ترمي  
إلى النادل وكان يتناول فطوره:

- ألم تدر أن هذا النادل الخبيث فطن إلى تواعدنا كل صباح؟! فلما  
رأتني أسير وحدى الأيام الماضية جعل يصدق بيديه كلما مررت  
به ويقول وكأنه يحدث نفسه: «أين أليفك يا بلبل؟.. كل الأحبة  
اثنين اثنين!».. رباه!.. لكم تولاني الحياة حتى كدت يغمى  
على!

واسترسل في الصبح مرة أخرى وكان يقتربان من منعطف الطريق  
الذى توجد على جانبيه مقبرة عاكف الخشبية، ولمحتها الفتاة فقالت:

- أنت مدینون لى بعائة رحمة على الأقل، لأنى أقرأ الفاتحة لمقبرتكم  
كل صباح!

فقال لها مبتسمًا:

- أنت يا نوال رحمة للجد وعذاب للحفيد!

ثم امتد بصره إلى المقبرة فسرعان ما خطر له خاطر مخيف كأنه  
شيطان انشقت عنه أرض الموتى، هل يجري القضاء غداً بأن تقرأ فتاته..  
وهي آخذة طريقها هذا - الفاتحة على روحه هو؟!.. وانقبض صدره،  
ثم استرق إلى وجهها الأسمر نظرة غريبة، فشعر بأنها كل أمله في  
الوجود، وبأنه إذا جاز لشيء أن يسخر من الموت ويستهين بمخاوفه فهو  
الحادي قلين متفانين، ووجد دافعاً قوياً يدعوه إلى التعلق بها، وضمها

إلى قلبه، بل إلى شغاف قلبه إذا أمكن. ولاحظ منها التفاته إليه فطالعت نظرته الحالمة، فلاح في وجهها الجد، وسألته:  
ـ لماذا تنظر إلى هكذا؟

فقال بصوت متهدج:

ـ لأنني أحبك يا نوال.. لقد أدركتـ وأنا أنظر إلى القبور على ضوء عينيكـ معنى القول إن الحياة الحبـ، وقالت لي القبور إن كل ساعة نرضي بأن تفرق بيننا جريمة عقابها ظلمة القبرـ، وسمعت صوتها يهتف بيـ: الله ما أحمقكم تضنون بالتأفهـ من الأشياء عن العبثـ وتعيشون جزافاً بنعمـة الحياةـ!

فتورد خداها وأضاءات عينها الصافيةـ بنور الوجـدـ، فلم يعودـاـ (هو وهيـ) يـشعـرانـ بـهـبـاتـ الـهـوـاءـ الـبـارـدـ المـنـدـفـ منـ الصـحـراءـ، وـشـدـ عـلـىـ رـاحـتـهاـ وـسـارـاـ صـامـتـينـ. وـمـضـىـ يـتسـأـلـ تـرـىـ كـيـفـ يـسـوـغـ أـنـ يـسـكـ عـنـ ذـكـرـ «ـالـخـطـبـةـ»ـ بـعـدـ كـلـ مـاـ قـالـ!ـ.. وـكـانـتـ تـتـوـقـعـ مـنـ نـاحـيـتـهاـ أـنـ يـطـرـقـ المـوـضـوعـ المـحـبـوبـ قـبـلـ كـلـ خـطـوةـ تـخـطـوـهـاـ، وـلـكـنـ لـزـمـ الصـمـتـ حـتـىـ شـارـفـاـ نـهاـيـةـ الـطـرـيقـ، وـتـوـادـعـاـ ثـمـ اـفـتـرـقاـ، فـبـطـؤـتـ حـرـكـتـهـ وـهـوـ يـتـابـعـ مـسـيرـهاـ بـنـظـرـةـ اـسـتـجـمـعـتـ فـيـ حـانـهـاـ جـمـيـعـ مـاـ فـيـ قـلـبـهـ مـنـ حـبـ وـوـجـدـ وـحـزـنـ، حـتـىـ انـعـطـفـتـ مـعـ الـطـرـيقـ إـلـىـ الـعـبـاسـيـةـ، وـأـخـذـ فـيـ طـرـيقـهـ إـلـىـ مـحـطةـ التـرـامـ، وـعـنـدـ ذـاكـ فـحـسـبـ شـعـرـ بـالـعـيـاءـ وـاضـطـرـابـ الـأـنـفـاسـ وـدـوـارـ يـوـشـكـ أـنـ يـصـيـرـ غـيـاناـ.

\* \* \*

ولذلك لم يفته أن يحدث أخيه عن الخطبة وعما عسى أن يحدثه إمساكهم عن فتح موضوعها من سوء الظن في نفوس أهل الفتاةـ، ولكن أخيهــ وكان غاضباً لعودتهــ إلىـ الخروجـ المبكرــ لمـ يـوـافـقـ عـلـىـ مـفـاتـحةـ كـمـالـ خـلـيلـ أـفـنـدـيـ بـهـذـاـ الشـأـنـ قـبـلـ الشـفـاءـ الـكـامـلـ، فـقـالـ لـلـشـابـ:

- اعتل بما تشاء من العاذير فأنت أستاذ في اللباقة، ولكن لا يجوز أن تتكلم رسميا قبل أن تشفى تماما إن شاء الله، سيكون إعلان الخطوبة مكافأة الشفاء فأرنا همتك !

وعجز الرجل عن إقناعه بالعدول عن الخروج الباكر وال تعرض لأذى البرد، فليس منه وسلم إلى الله سائلا إيهالا الطف والرحمة، وكان من يشقون بألام الأقربين، فتجدد الأوهام والمخاوف من صدورهم الضعيفة مرعى خصيبا للهواجس والأحزان، فصار مرض شقيقه - منذ اللحظة الأولى - شغله الشاغل وهمه اللازم وشوكه سامة في جانب طمأنيته.

وامتد خوفه إلى نواحي أخرى حتى ألقى به في النهاية في مواجهة مشكلة من أدق المشكلات الأخلاقية، لم تكن تخطر له على بال . فلم يغب عن ذهنه أن شقيقه يلتقي بالفتاة كل صباح ، وربما انفرد بها مساء وهو يجلس منها مجلس الأستاذ ، فإذا أغراه الهوى - شأن المحبين - بقبلة ، أفلا ت تعرض الفتاة لأذى بعيد الغور؟! .. ألا يدرك رشدي خطورة الأمر؟! .. ألا يجد من ضميره وازعا؟! .. ولكن كيف بن يستهين بحياته أن يعرف لحياة الآخرين قيمة؟ .. وتفكير في الأمر طويلا ، متقدرا مفتما ، لا يدرى كيف ينقد من الهاك فتاة بريئة ، وبدت حيرته ذات بواعث أخلاقية صافية ، ولم يدخله شك في أنها كذلك ولا كانت تخلو في الواقع من شعور أخلاقي عميق ، ولكنه لم ير ما عداها على نزوعه الطبيعي إلى تفحص نفسه ، أو أن العين في أحابين كثيرة لا ترى إلا ما تحب أن تراه ، فتකدر واغتم ، وأفضى به الكدر والغم إلى حيرة شديدة ، فلا هو يستطيع أن ينمى الحقيقة إلى كمال خليل لأن خيانة أخيه الحبيب جريمة نكراء لا يمكن أن يجترحها ، ولا هو يستطيع أن يكشف الشاب بمخاوفه أن يصبب مقتلا من نفسه الحساسة الرقيقة ، وعذبه القلق والتردد والإشفاق ، ولم يكن أبداً ذا اعزيمة أو إرادة ، فنكص على عقيبه بقلب خائر وفكر مشتت ، وظللت المخاوف تطارده ،

وتلح على ضميره حتى بلغ منه الإعياء والكلال، فتساءل في يأس وقنوط: «أليست غيوبية المعلم زفة خيرا من هذه الحياة؟!».

## ٣٨

وزادت حال رشدي سوءاً، فاشتد هزاله وشحوبه، ولكنها بدا مستهراً سادراً كأن الأمر لا يعنيه، ولم يعد يقنع برحلات الصباح في طريق الجبل فكان كلما نازعه الشوق إلى كازينو غمرة انطلق إلى الإخوان يعربد معهم حتى مطلع الفجر. وكان أحمد يقول له مبكّتاً: «أتروم الانتحار؟!». والحق أنه انحدر في سبيل الانتحار بلا قصد، وعجز عن مقاومة ميله الطبيعي للذات، وأذعن للحساسية المرهفة الجديدة التي أحدثها المرض في نفسه، وحجب العاقبة عن عينيه طبيعة الجسور المترائلة، فلم يفقد الأمل قط، أو لم يفقده إلا لحظات عابرة، وظل على عهده من الجسارة والاستهانة والابتسام. ولكن فوجيء بعودة السعال بل عاد أعنف مما كان في أسوأ حالاته، ثم تابعت عليه نوباته، وتلوث بصاقه مرة أخرى بالدم، ولفتت نوبات السعال الموظفين إليه في المصرف، فساورتهم الشكوك، وأمسى عمله عديم الجدوى، وتنبه الوالدان للخطر الذي يهدد ابنهما ونصحاه بالانقطاع عن عمله حتى يسترد صحته، ولكنه بالرغم من ذلك كله ظل يكافح متعلقاً في جنون بظاهر الأصحاب المعافين. ولم يستطع أحمد صبراً فدعاه يوماً إلى حجرته وقال له بحزن:

- إلام تتغاضى عن خطورة الحال؟

فسأل الشاب في استسلام لم يتوقعه:

- بهم تشير على؟

- لا يجوز بعد اليوم أن تواصل عملك فضلاً عن السهر والعربدة!

- وإذا انقضت سري؟!

قال أحمد بتأثير شديد:

- ليس المرض بالفضيحة ، وللضرورة أحکام !

فأطرق رشدي وقد خارت عزيمته وتنهد من فؤاد مكلوم قائلاً :

- الأمر الله!

ونجم استسلامه المفاجئ عن الإعفاء - لا الاقتتاع - ولذلك ما كاد يقرر طيب المصرف سبب مرضه الحقيقي وينحه أولى إجازاته المرضية حتى خارت قواه ، ورقد على الفراش صريع الضعف والسعال ، وأخفى أحمد الحقيقة عن والديه ، ولكن الحالة اشتدت اشتداداً مخيفاً ، ورأى الأم البصاق الدامي وعلم به الوالد ، ففزع عازفاً شديداً ، وروع قلباًهما الصعيقان . ودعت الحالة إلى استشارة الطبيب ، فاقتصر أحmd أن يدعوه إلى البيت ولكن رشدي اختار أن يذهبا إليه معاً ، فارتدى بذاته بمساعدة أمه ، وقد اتسعت عليه أمياً اتساع ، واستقللاً عربة إلى عيادة الطبيب ، وصحبه أحmd إلى حجرة الكشف ، ولما وقع بصر الطبيب ، ولم يكن رأه من أسبوعين ، قال بصوته الرفيع وهو يتظاهر بالابتسام :

- ماذا فعلت بنفسك؟

فابتسم رشدي ابتسامة باهتة وتنتم قائلاً:

- السعال وضعف شديد!

وأجرى الدكتور الفحص ، فساد الصوت ببرهة غير قصيرة ، ثم قال بعد الانتهاء :

- كلمة واحدة لا أزيد عليها: المصحة!

فتحهم الوجه المصفر ، وتساءل صاحبه بصوت خافت :

- هل زادت الحالة سوءاً؟

فرفع الرجل حاجبيه وقال:

- هي الحقيقة، ولا شك أنك لم تتبع نصحي، ولكن لا داعي للخوف  
إذا بادرت بالذهاب إلى حلوان. سافر اليوم إن أمكن، وستجدني  
هناك إلى جانبك!

وسأله أحمد:

- هل تطول إقامته في حلوان؟

فقال الرجل:

- علم هذا عند الله، ولست متشائماً، ولكن لا يجوز الإبطاء!  
ورجعوا إلى البيت فوجدا الوالدين يتضرران فارغى الصبر، وبادر  
والد أحمد قائلاً:

- ماذا به؟

وعلم أحمد أن الكذب لن يجدي فقال واجماً، وباقتضاب ذى  
معزى:

- المصححة!

وساد الصمت، واحمررت عيناً السيدة دولت منذرة بالبكاء، وتمت  
الوالدة:

- ربنا يلطف بنا!

قال أحمد متصنعاً السكينة:

- ليس هناك ما يدعو للقلق، ولكن لا محيد عن المصححة!  
وكان رشدى لا يزال نافراً من المصححة ولكنه لا يجرؤ على قول «لا»  
بعد ما صار إليه حاله، فدعاه أخيه إلى جانبه وقال له بتسلل وعلى مسمع  
من أمه:

- لتكن المصححة إذا شئت، ولكن ..

وأومأ إلى النافذة، واستدرك:  
ـ ولكن لا أحب أن يعرفوا الحقيقة!  
فاشتد التأثر بالرجل، وخفق فؤاده بحزن عميق، وقال:  
ـ لا تخف.. من السهل أن تقول إنك مصاب بماء في الرئة أو جب  
سفرك إلى المصححة!  
فتساءل رشدي محزوناً:  
ـ وهل يجوز هذا عليهم؟  
ـ فقال أحمد:  
ـ إن التداوى من ماء الرئة يستدعي زمناً طويلاً، ومهما يكن من أمر  
العنابة بصحتك أولى بالاهتمام مما عدتها.

## ٣٩

ولم يضع أحمد وقتاً، فقام بالإجراءات المتبعة لإنحصار شقيقه بالمصحة، مستعيناً بتوصية من الطبيب المداوى، ووجد أن سريراً سيخلّى في أول مارس لانتهاء مدة علاج صاحبه، فقرر انتقال رشدي من ذاك التاريخ، وفي المدة القصيرة التي سبقت السفر عانت الأسرة آلاماً برحاء، وكان رشدي يكابد من السعال عذاباً مضنياً وشهادة متقطعاً. وغرق الوالدان في حزن ذاهل، وتکدر صفوهما، ولاحت في أعينهما نظرة واجمة امتزج فيها الرجاء بالخوف. ووقع أحمد فريسة لهوا جسه، فانقلب حياته غماً وجرعاً، وعاد كمال أفندي خليل الشاب وأكمل له أن «ماء الرئة» لا خطير منه أبداً مع العنابة!.. ثم زارتة المست توحيدة ونوالـ. ولم يكن أحمد باليتـ. وقالت له إن غرامه بالنعافة هو

الذى أدى به إلى المرض ، وتعهدت له ضاحكة ، بأن تتولى تسمينه بعد الشفاء ، ولم تدر نوال ماذا تقول على مسمع من الوالدين ، ولم يستطع الشاب أن يديم إليها النظر ، ولكن عينيه التفتا بعينيها فى لمحات خاطفة فتجاوיבت رسائل الحب والشكر والحزن الصامتة ، وسر رشدى بالزيارة سرورا لم يشعر بمثله منذ استسلم للرقاد . وبعد خروج المرأة وابتتها أعرب لأمه عن خوفه من افتصاح حقيقة مرضه ، ولكن المرأة المحزونة طمأنته قائلة إن مرضه سر مطوى فى صدور محبيه .

وفى صباح اليوم الأول من مارس حملت عربة ، الشقيقين إلى محطة باب اللوق وكان دعاء الأب آخر ما سمع رشدى فى البيت ، وكانت دموع الأم آخر مارأى ، وفي الطريق قال الشاب لشقيقه :

إذا طالت مدة التداوى فصلت من عملى حتما !

قال له أحمد بثقة :

- وحتى لو حدث هذا - لا قدَّرَ الله - فعودتك إلى عملك مرة أخرى أمر يسير ، ولا تشغل نفسك بغير الشفاء !

ثم انتقل إلى الديزل ، فانطلقت بهما فى طريق حلوان ، وجلسا جنبا إلى جنب ، وكان أحمد صامتا يلوح فى وجهه النحيل الهم والفكر ، وكان رشدى يسعى من حين لآخر . وعجب أحمد لسوء الحظ الذى يلاحق أسرته . فقد فقدت غلاما . وها هو رشدى يصاب بالداء الخطير ، أما هو فقد نصبه الدهر هدفا للعثرات والإخفاق ! .. ولو قنع الدهر به فدية لكفاه ولكنه لا يقنع ! .. واحتلسا من الشاب نظرة فهاله هزاله ، وضمور رقبته ، وذبوب عينيه ، وغياب النظرة اللاامعة الساخرة منها ، فتنهد وقال لنفسه متحسنرا «رباه .. متى تنكشف الغمة؟ .. متى أفتح عيني فلا أجده من هذا الشقاء الماثل إلا أطيف ذكريات منقضية!». ونظر إلى الخارج خلل زجاج النافذة فجرت أمام ناظريه الأنبياء والقىلاط فى

حشد طويل، ثم انسابت القاطرة بين حقول ممتدة من النضرة والخضرة والمناظر الريفية الفاتنة، ثم أقبلت الصحراء اللانهائية الجرداء يحف بأفقها الجبل الشامخ. فاستثار تتابع المشاهد ما بين أبنية وحقول وصحراء جرداء عاطفة كثيبة في صدره، فامتلاً شجناً وأسى.

وبلغت القاطرة حلوان، فتركا القاطرة وقد نهكت الرحلة الشاب المريض، واستقللاً عربة إلى المصحة، وسارت بهما تهادى في طريق مقفر. وتراءت لهما المصحة فوق سفح الجبل كقلعة هائلة، فرنا إليها الشقيقان بقلبين خافقين، وقال أحمد:

الفاتحة إن ربنا يأخذ بيديك ويمن عليك بالشفاء ويخرجك من هذا المكان مجبر الخاطر.

وانتهيا إلى المصحة، واستقللاً المصعد إلى الطابق الثالث، ودلتهما غرفة على الحجرة التي يقصداها، وكان بالحجرة سريران، يرقد على أحدهما شاب في مثل سن رشدي وفي مثل هزاره وصفرته فتبادلا التحية باسمين. واستراح رشدي حتى استرد أنفاسه، ثم غير ملابسه بمعونة شقيقه، واستلقى على الفراش، وجلس أحمد أمامه على كرسي مريح، وأومأ الرجل إلى الشاب المريض الغريب، وقال مخاطباً شقيقه:

- ستجد في صاحبك خير رفيق، فتعاونا على قتل الوقت وتبديد وحشة الوحلة، حتى يأذن الله لكم بالخروج سالمين غائبين !

ومضى يتحدث مع شقيقه حيناً، ومع صاحب السرير المجاور حيناً آخر. وقد علم أن اسمه أنيس بشارة وأنه طالب في السنة النهائية بكلية الهندسة. والظاهر أن الرحلة أعيت رشدي فاعتراه تعب شديد، واستلقى في خور وخمود، ومكث أحمد معهما حتى اطمأن على الشاب، ثم نهض لينصرف، وقد شعر وهو يضغط على راحة الشاب مودعاً بدمعة تحرك في مجرى الدموع من قلبه، ففرض على أسنانه

ليمعنها من الصعود إلى محجريه، وغادر الحجرة. وحال في الخارج أنه رأى عيني الشاب كالمذرتين بالبكاء وهو يسلم عليه، فنماز عه قلبه إلى العودة إليه مرة أخرى، ولكنها قاوم عاطفته ومضى في سبيله، وانתרق دهاليز طويلة تفتح عليها أبواب عنابر المرضى، ورأى الأشباح الآدمية في الشياطين الفضفاضة، فاقشعر بدنها ووجه قلبه. وظل وهو آخذ في الطريق إلى المحطة يعاود النظر وراء ظهره إلى بناء المصححة الشاهق ويتمتم بالدعاء.

وفي مساء ذلك اليوم باتت أسرة عاكف في وجوم وكآبة وقد لاحت في عيني الأب نظرة شاردة، وبكت الأم حتى دميت عينيها، وحاول أحمد أن يخفف عنها بحديث الرجاء والأمل، ولكنه كان في الحقيقة في حاجة إلى من يخفف عنه.

## ٤٠

وانتظرت الأسرة يوم الجمعة - يوم الزيارة في المصححة - بصبر فارغ، وقرأى كمال خليل أفندي على أن يصبحهم هو وأسرته، وأخذت الأسرتان للزيارة أهبتهما فابناع أحمد لأنبيه صندوق بسكوت بالشيكولاتة، وأعدت السيدة توحيدة - والدة نوال - له كعكا عرفت بإتقان صنعه. وعند الضحى ذهبوا جميرا - الرجال الثلاثة والسيدتان نوال - إلى محطة باب اللوق، واستقلوا قاطرة дизيل، وجلسوا متقابلين، الرجال في ناحية النساء في الأخرى، وبذلك وجد أحمد نوال جالسة لقاءه! .. وتحبب منذ اللحظة الأولى، أن ينظر إليها، ولم يكن رأها منذ ذلك اليوم الذي كشف له عمما كشف، ييد أن وجودها على بعد قدم منه أيقظ الذكريات وحرك الأشجان، وخاف مغبة

الاستسلام للخواطر فتشاغل بالحديث مع كمال خليل تارة، وبقراءة الأهرام تارة أخرى، والواقع أنه لم ينجح إلا في تجنب النظر إليها، ولكنه غالب على أمره إزاء سيل خواطره الجارف، وأنى له أن ينسى أمله الخائب!.. أو سخطه المر القديم على شقيقه!.. أو مرض شقيقه الذي جعل من سخطه القديم عليه جرحًا في ضميره لا يلتئم!.. وهل ينسى أنه خاف يوماً على الفتاة من العدو!.. وأنه حام حول اتهام شقيقه بتعریض حياتها للهلاك؟.. كل أولئك آلام جعلت من حياته مرتعًا للنار، حتى صدق قوله لنفسه بمرة «لقد أصيّب رشدي في صدره وأصبت أنا في عقلِي!». ثم تسأله ترى ماذا يخطر لها من الأفكار حين يقع بصرها على شخصه أمامها؟!.. هل يشير ألمًا؟!.. خجلًا؟!.. لا يجوز أن تأسف أن لحقت العلة بحبيبها متعامدة عن هذا الكهل؟!.. ولو فعلت ما جاوزت القصد ولا حادت عن الإنفاق، فما فائدة حياته؟.. وما وجه الانتفاع بصحته؟.. ووجد لتوه ذاك الشعور بالاضطهاد، المؤلم اللذيدمعا!.. وحقيقة أخرى لم تغب عنه، وهي أنه مرتاح إلى وجودها رغم تجنبه النظر إليها!.. لماذا يا ترى؟.. هل يرغب أن يمتحن قدرته على النسيان والتأنس؟!.. أو يريد أن يشبع رغبته القديمة في أن يريها قوته على تجاهلها والترفع عنها؟!.. ثم أفاق نفسه قليلاً، فكبر عليه أن تكون تلك خواطره وهو ماض لعيادة العزيز المريض!.. وبلغ منه الألم حداً ثمنى لو كانت الجراحة تستطيع بتر الفاسد من النفس، كما تبتر الفاسد من الأعضاء!

وانتهت الرحلة، وساروا في الطريق وأبصارهم عالقة بالصحة، وقوى أمل أحمد أن يجد الشاب أحسن حالاً. وإن لم يمض في الصحة سوى ثلاثة أيام. لأخلاذه الإجباري إلى الراحة ووجوده في الجو المماثل. وتقديرهم جميعاً نحو الحجرة، وسبقته عيناه إلى السرير، كان رشدي راقداً، وقد شعر بحضورهم، ولكنه لم يحرك ساكناً، إلا

ابتسامة خفيفة باهتة ارتسمت على شفتيه الذابلتين وهو يتلقى تحيات القادمين أحاطوا بفراشه . و خابأمل الرجل ، ورُوَّعَ لِمَا رأى من تدهور الشاب ، فلم يشك أن حاليه ساءت عما كانت عليه يوم أتى به . و حار في تفسير ذلك وانقبض صدره . وجلس الزوار ، ووضع البسكوت والكعك على خوان قريب من السرير ، ولما رأهما رشدى قال بصوت ضعيف :

- أنا لا أكاد أتناول طعاما .. لا شهية ألبته .

فسألته أمه بقلق وهي تتفحصه بعينين حاولت ألا يلوح فيهما شيء من الانزعاج المستولى عليها :

- ألا يعجبك طعام المصححة يا رشدى؟!

- الطعام جيد ، ولكنني فقدت شهيتي !

فقالت السيدة توبيخة :

- لا تخف فهذا شأن المرض أول عهده ، وغداً تلتهم الطعام التهاما بفضل هذا الهواء الجاف .

فابتسم الشاب إليها - وإلى نوال وبالتالي لأنها كانت لصقها - ثم قال موجها الخطاب لأحمد :

- كانت الليالي الثلاث الماضية شديدة الوطأة على ، اضطرب فيها نومي وتقطع ، واشتد على الألم ، ولم يكف عنـي .

ولم يتم جملته ، فأدرك أخوه أنه أمسك حذرا عن ذكر «السعال» ، فأيقن في تلك اللحظة أن اصطحابهم أسرة كمال خليل - على ما فيه من سرور - كان خطأ كبيرا ، ولكنه أراد أن يشجع الشاب فقال :

- على رأى تيزتك فهذا شأن المرض أول عهده ، وستجتاز هذه الشدة بعون الله ، وتخرج منها سالما !

ولكن رشدى قال بلهجة دلت على التوصل :

-أليس الأفضل أن أعود إلى بيتنا؟

ورأى أحمد أمه تهم بالموافقة على رغبته فبادر بقوله:

-سامحك الله! .. بل قل إنك لن تبرح حجرتك حتى تسترد صحتك  
وفتوتك، ثم تقلل إلى القاهرة مشيا على الأقدام! .. ومن حسن  
الحظ أنى أراك متحسناً محسوساً!

وقال كمال خليل يسأله في تلك الكذبة المفيدة:

-أجل يا رشدى أفندى أنت.. اليوم أحسن حالاً بلا شك!  
وحدث الأم بصرها لعلها تصدق ما يقولان، بينما راح أبوه يقول  
بصوته الهادئ المنكسر:

-الصبر.. الصبر يا رشدى، وربنا يرعاك ويأخذ بيده!

فسكت رشدى، ولكن على رغمه، ولم يغب ذلك عن أخيه الذى  
يحسن فهمه، وكان يعلم أنه لا يقتنع بغير رأى نفسه، ولا  
يعمل إلا بمشورتها، فأيقن أنه إذا كره المصححة فلن يصبر عليها، ولن  
تعود عليه إقامته فيها بنفع يذكر، وازداد حزناً على حزن، واسترعت  
انتباهه حركة آتية من السرير الآخر، فنظر إليه، ورأى زميل أخيه جالساً  
في فراشه، فتلولاه الخجل لأنه نسى -في غمرة حزنه- أن يحييه، فقال له  
وهو يرفع يده له بالتحية:

-كيف حالك يا أنيس أفندى؟ .. لا تواخذنا!

فضحك الشاب قائلاً:

-العفو يا بك، الظاهر أن رشدى يرغب في هجرنا!

فقال رشدى متأسفاً:

-لكم أزعجت نومك!

فقال الشاب مبتسمًا:

- لا داعى للأسف على ذلك ، فسهر الليل لا يضايقنى بتاتاً.

فابتسم أحمد وقال :

- الظاهر أنك من عشاق الليل كرشدى !

- نطقت بالصواب يا سيدى ، وها نحن أولاء يعلمونا الدهر أنه ينبغي أن نقلع عما كنا نعشق .

ودعوا لهما بالشفاء ، ونهضت أم أحمد إلى الخوان ، وأتت بصناديق البسكوت ، ووضعته إلى جانب رشدى وفى متناول يده ، وقالت برجاء :

- هلا تناولت واحدة يا رشدى ؟!

ولكنه هز رأسه على المخدة وقال بسرعة وبلهجة حازمة :  
- ليس الآن .. فيما بعده !

فأخذت المرأة الصندوق أسيفة حزينة وإن كانت تغالب عواطفها مغالبة صادقة ناجحة ، ولم تنس - حتى فى تلك الساعة - واجبات اللياقة ، فدللت من سرير أنيس بشارة وقدمت له بعض البسكوت . وكان أحمد يتفحص أخاه بعينين كثبيتين ، فإذا أرسل الشاب إليه بظرفه تبسم مداريا حزنه . وقد هاله ذبول أخيه ، واصفرار لونه ، وخوره ، وأمارات التعب التى تعторه . هاله أن يراه مستسلما للرقداد ، سجينا ، وما كانت الدنيا تسعه حركة واضطربا ولهوا . وخيل إليه أنه يقرأ فى نظرة عينيه حيرة وقلقا ، إلى ما بهما من ألم واستسلام ، فأوحيا إليه أن الشاب ينطوى على شيء ي يريد أن يفضى به إليه وقوى شعوره بذلك حتى خطر له أن ينفرد به دقائق بعد انتصاره عواده ، ولكنه خاف أن يضرع إليه أن يعيده إلى البيت ، فعدل عن رأيه ، وجعل يكوى له قبضة يده متوجعا متظاهرا بالملراح والاطمئنان .

وأذن الوقت بالعودة، فسلموا بحرارة، ولهجت ألسنتهم بالدعاء،  
وغادروا الحجرة، وكانت السيدة دلت آخر من غادرها بعد أن قبلت  
الشاب في خديه وجبينه، وفي الطريق لم تعد تلك أعصابها فامتلاط  
عيناها بالدموع. وكانت نوال تعالج دمعة لا تدرى كيف تخفيها. وظل  
أحمد منقبض الصدر حتى أوى إلى حجرته، ومضى يعلل نفسه بالأمل  
ويقول إنه سيجده في الزيارة القادمة أحسن حالاً حتماً ما وجده اليوم.  
رباه.. متى يرد إلى ما كان عليه من القوة والنشاط والنضارة؟! .. متى  
يعاود سمعه تغريده الحنون ودعابته اللطيفة وضحكته الرنانة؟!

ونامت أسرة عاكف تلك الليلة على حزن وكمد كنومها ليلة الفراق!  
ثم استيقظوا جميعاً في الهزيع الأخير من الليل على رنين الجرس.. .  
وجلس أحمد في الفراش مرهف الأذنين، فسمع الرنين متصلًا كأنه  
يصرخ في الغافلين. وانقض عليه خاطر جعل قلبه يرجم كإبرة الجرس  
فقفز من الفراش وجرى إلى الخارج، التقى بوالديه في الصالة وهم  
يكادان أن يعدوا عدوا نحو الباب. ولم ينبس أحدهم فقد تولامهم  
استسلام يائس للأقدار، ودلل أحمد من الباب مزدراً ريقه وأضاء  
المصباح الخارجي وفتح الباب، ونظر في الردهة الخارجية فلم تقع عيناه  
على إنسان، وكان الرنين لا يزال متصلًا.. . وابتعد الرجل إلى والديه  
مندهشاً مغمضاً: «لا أحد في الخارج». واقترب من «بطارية الجرس»،  
ورفع غطاءها وفصل بين الأسلام فسكت الجرس المزعج! .. وأغلق  
الباب والدموع توشك أن تطفر من عينيه، وتبادلوا جميعاً نظرات  
حائرات، ثم هتف الأب قائلاً:

ـأعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

وقالت الأم وهي تتنهد من أعماق قلبها:

ـأليس الأوفق أن نأتى برشدى ما دامت هذه رغبته؟

فقال أحمد وقد وشى صوته باضطراب نفسه:  
ـ يا شيخة وحدى الله !

٤١

وعند عصر يوم الأحد وكان أحمد مجتمعاً بوالديه يحتسون قهوة العصر . جاء البريد بكتاب ما إن رأى الظرف حتى تعم بغرابة :  
ـ هذا خط رشدى ..

وتتبه الوالدان ، وتابعت عيناهما يد الرجل وهو يفضن الغلاف . وقد كتب الخطاب بالقلم الرصاص ، وبخط ردئ - على غير عهد صاحب الخطاب . وكان به ما يأتي :

١٩٤٢-٣-٨

أخى العزيز:

تحياتى إليك وإلى والدى ، أكتب كتابى هذا وقد مضى على انتصارى الليل ساعتان .. ولا تدهش يا أخي فقد حرمت نعمة النوم إلى الأبد وما عاد لأى منوم من تأثير فى . تصور أنى تناولت بالأمس جرعة من منوم معروف ، فلما لم تجدى شيئاً عاطانى الدكتور برشامة مخدرة وبشرنى بنوم ثقيل ، ها هو الليل يتتصف وتنقضى على انتصاره ساعتان وأنا متيقظ مسهد ، ولا نهاية لعدائى بل لا أزال جالساً لأن الرقاد - أو ضغط ظهرى على حشية الفراش - يهيج السعال الذى اشتدت نوباته على ، فلا معدى لى عن الجلوس فى فراشى ، وقصيرى ما يمكن عمله لتهيئة الراحه أن أكسر مخدة وأضعها على حجري ثم أستد رأسى إليها ..

أخرى:

يؤسفنى أن أؤلمك أو أحزنك، ولكنها الحقيقة المرة، ولا حيلة لي فيها، ولا مفر من أن أفضى إليك بالحقيقة فأنت ملاذى أولاً وأخيراً، فاعلم يا أخرى أنى اطلعت على نتيجة الأشعة التى صورت صدرى غداة وصولى إلى المصلحة، وقد كشفت إصابة جديدة فى الرئة اليمنى، أما اليسرى فقد حفرت الإصابة القديمة لى كهفا فى حجم نصف الريال، والحالة العامة خطيرة، وإليك تقرير الطبيب النوبتجى: «عدم قابلية للأكل مطلقاً، عدم النوم مطلقاً، سعال نظيف، ونفس مكروش دائماً..» فلا شك إنى فى طريق النهاية، لا شك فى ذلك مطلقاً، إنى أكتب إليك ودموعى تنهمر فتخفى عن ناظرى الألفاظ التى أنعى بها نفسى إليك، وكلما ذكرتكم غلبنى البكاء.

هذه هي الحال، فأستحلفك بالله يا أخرى إلا ما وافقت على عودتى إليكم لأقضى بينكم أيامى الأخيرة حتى يوافينى الأجل.. فلا تعرض عن توسلاتى هذه المرة، وأكرر أسفى لإيلامك ولكن ما حيلتى؟!.. وعليك ألا تخبر والدى بالحقيقة، والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوك المخلص

رشدى

قرأ الخطاب ذاهلاً، وأعاد قراءة كثير من عباراته أكثر من مرة، وشعر عند الانتهاء من قراءته بدورار، وإنكار، وغرابة، ولكنه لم يرفع عنه ناظريه حتى يستعيد رباطة جأشه، فيواجه أمه بشيء من السكينة يمكنه من الكذب عليها، واستطاع بفضل تفكيره في أمه، ووجودها على كثب منه، أن ينسى نفسه إلى حين فيمتلك أعصابه، ثم نظر إلى والديه فرأهما يتظاران كلمته بعينين معدبتين كمن يتنتظر غير معصوب العينين - إطلاق النار عليه، فتكلم قائلاً متصينا لهجة السخط والتبرم:

-رشدى يلح فى العودة الى البيت ، فماذا دهاء؟!

فسألته الأم بلهفة:

-ولكنه بخير !!

-بخير والحمد لله إلا أنه كاره للمصحة!

-أعده إلى يا أحمد، فلا فائدة ترجى من تركه فى المصحة على رغمه.

فنهض أحمد وهو يقول:

-أسافر اليوم إلى حلوان وآتى به ..

وأعطى الخطاب إلى والده ومضى إلى حجرته وأمه فى أثره.

واسفر إلى حلوان دون تردد أو تأخير ، وظل طوال الطريق مشتت الفكر موزع الفؤاد مضطرب النفس ، ولأول مرة -منذ أمد بعيد- يفكر في الموت كحقيقة مائلة يطالع معالها الرهيبة ويستشعر آثارها العميقه من الألم والخوف والقنوط ، وتخيل المقبرة النائية التي ابتلعت شقيقه الأصغر ، فحالها تنفس عن ثغرها تراب الأرض وتغير فاها لابتلاع رشدى الحبيب الذى لا يدرى كيف تكون الدنيا بدونه ! وكان كلما قصرت المسافة بينه وبين المصحة اشتد انقباض صدره ، وتنقلت وطاة الخوف على قلبه . رباه ! .. كيف يجده الان ؟! وغادر القطار على عجل والشمس تميل نحو المغيب . وأخذ العربية إلى المصحة ، ثم صعد إلى الطبق الثالث لا يلوى إلى شيء ، وأشتدت ضربات قلبه وهو يقترب من الحجرة ، ودخلها وقد ترکز وعيه في الفراش أمامه . رأى رشدى أمامه . رأى رشدى كما وصف نفسه في رسالته جالسا في فراشه مستد الرأس إلى مخدة منكسرة على حجره ! وازدر دريقه وهتف به :

-رشدى !

فرفع الشاب رأسه عن المخدة بسرعة ، وطالع أخيه بوجهه الضامر

الشاحب، وصدره المضطرب، وسرعان ملاح السرور في عينيه، وقال بصوت متهدج:

-أجئت؟ .. خذنى .. خذنى.

فقال أحمد ليدخل الطمأنينة على نفسه:

-لهذا جئت يا رشدى.

ثم التفت إلى أنيس بشاره فحياه فرد الشاب تحيته وقال بلهجة جدية دلت على تأثره:

-مسكين رشدى! .. انه لا يذوق للنوم طعماً، وكانت ليلته الماضية شديدة فظيعة! الأوفق حقاً أن يمضى هذا الأسبوع في البيت، على أن يعود إلى المصححة فيما بعد!

فأوْمًاً أحمد برأسه موافقاً وسأل الشاب:

-أتدرى ما هي إجراءات الاستئذان لخروجه؟

فقال أنيس بنفس اللهجة الجدية:

-إسع إلى الطبيب بلا إبطاء!

ولم يلق الرجل صعوبة ما، بل ساوره الخوف والقلق لسرعة موافقة الطبيب على طلبه.

وعاد إلى أخيه، وحزم متابعه، وعجز رشدى عن خلع بيجامته وارتداء البذلة، فاكتفى بلبس الروب، وجاءوا بنقالة لحمله إلى المصعد. وسار أنيس بشاره في وداعه حتى الباب الخارجي للمصححة، وشد على يده بحرارة، ودعاه مخلصاً بالشفاء والصححة. ورأى أحمد شقيقه يستسلم لأيدي حامليه بلا حول ولا قوة وقد زاغ بصره، وبداللعين هزاله، فذكر نضارته وحسنها، ورشاقته ونشاطه وفكاهته وغناءه، ثم لم يملك أن يغض على شفته متوجعاً متحسراً وقد شعر بقلبه ينتصب في أعماق صدره.

وو جدا في انتظارهما في البيت الوالدين وأسرة كمال خليل أفندي .  
 وكانت السيدة توحيدة ونوال جاءتا لزيارة أم الشاب المريض ، فلما علما  
 أن شقيقه سافر ليأتي به لبنا في انتظار وصوله . وأحدث ظهور رشدي  
 أثرا عميقا في النفوس فلم يحاول أحد اخفاء انزعاجه . ولكن الشاب لم  
 يبد عليه أنه أدرك شيئا مما حوله ، أو أنه فقط إلى وجود أحد . وأجلس  
 على فراشه وصدره يعلو وينخفض ، مغمض العينين ، والأعين محدقة  
 به . وقد انعقدت الألسنة ، وأصفر وجه السيدة دولت ، وجلست وراء  
 ظهره لتسنده بصدرها المضطرب . وفتح رشدي عينيه بعد برهة وأجالهما  
 في الحجرة والوجه ، فلاح فيهما نور العرفان واليقظة ، وارتسمت على  
 شفتيه شبه ابتسامة خفيفة ، وقال بصوت متهدج خفيض كأنما يتتصاعد  
 من عنق صدره :

- الحمد لله .. الحمد لله .. أنا مسروor بعودتي إلى حجرتى .. فدعا  
 له الجميع ، وكررت السيدة توحيدة الدعاء ، فابتسم الشاب وقال :  
 - سأشفى هنا ياذن الله .. لا تبرحى مكانك يا زينة ! .. فقبلته المرأة  
 في منكبها وقالت :

- لن أبرحه يا رشدى - ياذن الله - إن قلبي لا يمكن أن يكذبni !  
 والتقت عيناه بعيني نوال مرات ، وتلقى فى كل مرة ابتسامة حلوة  
 ضمتها عيناهما ما تكتنه جوانحها من الدعاء والرجاء والإشراق .  
 وتنحى أحمد جانيا دون أن تفارق عيناه وجه شقيقه ، وكلما طالع  
 في عينيه نظرتهما الذابلة ارتعش كيانه وقال لنفسه : «اللهم  
 رحمتك !» .

وقال عاكف أفندي أحمد-الأب- عن حكمة:

ـ الأوفق أن نتركه حتى يسترد أنفاسه ويستريح! فخرجوه جميعاً ما عدا أمه. وانصرفت الزائرتان. وخلاً أحمد إلى نفسه في حجرته قليلاً. ولكن لم يستطع صبراً فعاد إلى حجرة الشاب، ووجد رشدي لا يزال فرحاً بالعودة ويحدث أمه قائلاً بصوته المتهجد  
ـ الخافت:

ـ لشد ما يطمئن قلبي فرحاً وسروراً، ولشد ما آلني جو المصحة الموحش، لم أذق فيها النوم ولا الطعام، ورأيت مريضاً يتزف حتى غرق في دمه، ومرروا على حجرتنا حاملين مريضاً آخر إلى حجرة «العزلة» حيث يودعون المرضى المشفين على النهاية.. ومن المؤسف حقاً أن سوء حالتي ألم زميلى أنيس بشاره، ويفعل على ظنى أنه استثار مخاوفه فجعل يبكي حزناً وفرقـاً. الآن عاودتني الطمأنينة.

ـ وحول ناظريه إلى أحمد، وسكت قليلاً وصدره يعلو وينخفض ثم استطرد:

ـ أتعبتك كثيراً يا أخي، معذرة. لا تجده على لعصياني نصحك، أعدك بأنى سأرعى من ذي اليوم صحتي وأنى لن أخالف لك نصيحة، وإذا من الله على بالشفاء فلن أستهين يوماً بحياتي.

ـ بعض أحمد على نواجهه ليحبس دموعه الهائجة، وقال مبتسمـاً:  
ـ لا محل لللوم يا رشدي، فكل شيء بأمر الله، وغداً ستترد إلى صحتك بأمر الله، وستذكر هذه المحنـة كما يذكر المستيقظ وطأة الكابوس..

ـ فابتسم الشاب إلى أخيه ارتياحاً لقوله، وسألـه أن يدنـي الخوانـ من فراشه وأن يضع عليه زجاجـات الدـواء. وأتـى أـحمد بالخـوانـ، وجعلـه فيـ

متناول يد الشاب ، ورص علبة الكالسيوم ، وحق المنوم ، والكارومين .  
فشكّر رشدي ، ثم قال :

- سأحتاج إلى عمرضة لحقنني بالكالسيوم يوماً بعد يوم ..  
فقال أحمد :

- سأوصي الصيدلى بإحضار واحدة والاتفاق معها .. ويحسن بك  
أن تسكت كى لاتشق على نفسك ، وربنا يرعاك ويحفظك .  
تناول الشاب جرعة من المنوم ، فاسترخت أعصابه . وقد نال منه أرق  
الليالي السابقة وأخلد للنوم ، إلا أن السعال انتابه مرات فمزق نومه شر  
مزق .

## ٤٣

وجاءت أيام شدة وألم . فغرق الشاب المريض في غمرة العذاب ،  
وتقطع قلب الأم الذي يسند ظهره المهزول ، واستبد به الأرق فلم  
يغمض له جفن . مع تناوله المنوم . إلا ساعات معدودات في الهزيع  
الأخير من الليل ، وكثيراً ما أدركه الصباح وهو قاعد في فراشه وقد  
حطّم السعال أصلعه ، وصافت نفسه عن الطعام ، فإذا تحجلّ وتناول  
لقمات تقياها في نوبات السعال واجتاحته بعنف فما أن تسكت عنه  
واحدة إلا وقد أشفى نفسه على الانقطاع ، وأنذرته عروق عنقه  
بالانفجار ، وسالت عيناه دما . فظنن به الهاك وأيست من شفائه  
القلوب . إلا أنه بدا وكأنه يجتاز مفازة الهاك بسلام ، لا لتحسين طرأ  
عليه ، ولكن لأن الأيام تتابعت وهو يقاوم ويجالد دون أن يسقط ، ثم  
مضت تجف ثورة السعال ، وتنتظم ساعات نومه ، وتقبل معدته القليل

من الطعام، واستطاع أخيراً أن يرقد على جنبه. وأذن كل أولئك بتحسن قريب في صحته، ولكن مضى مارس جميماً وهو على حاله من الضعف والإعياء. لم يكن يستطيع مفارقة الفراش بتاتاً، وهزل هزاً محزناً حتى لم يعد في بُرده سوى جلد ذابل وعظم معروق. وبعث منظر ساقيه القشعريرة في النفوس، وضم وجهه، وتقلص خداه، وغارت عيناه، وعلت محياه صفرة باهته، وبدأ رأسه أكبر من الواقع وعنقه رفيعاً يكاد أن ينقصف من حمله. ولاحظت في عينيه نظرة عميقه متوجهة تدل على التصبر والتجلد، والتألم والاستسلام، فلم تزل تعذب أحمد حتى أضته، كان يطالعها في عينيه كلما عاده فلا تُحَمِّي من ذاكرته أبداً، وكانت تحمل فؤاده المرهف جميع ما تنطق به من التألم والتصبر. كانت تترك في قلبه جروح لا تندمل، كان يطلع منها على عوالم الألم والمرض واليأس. رياه لكم قطعت فؤاده وفتت كبده، ولكن أهاجت مجاري دموعه.

وفي مرة دخل حجرته فوجده قد استوى جالساً في الفراش، وأدى ساقيه إلى الأرض، ولم تكن أمه في الحجرة، فخاف أن يكون ذلك مقدمة لمحاولات تشغله، فقال له بتوصيل:

-أليس الأوفق أن تلزم الرقاد!

فغضبت من عينيه نظرة التألم العميقه، وحلت محلها نظرة جزع وبرم وقال بلهجة لم تخل من حدة:

- أخي.. ألا ترى كيف تمضي الأيام وأنا بمكانى هذا لا أبدي حراكاً! .. هكذا ألقى على الفراش بلا حول ولا قوة، طوال النهار وأكثر من نصف الليل، حتى يغلبني ذهول المخدر الذي نسميه نوماً! .. أواه، ما أضيق الحياة.. لقد سئمت هذا الفراش، وضفت به ذرعاً.

فلم يدر الآخر ماذا يقول، وألقت اللهجة الشاكية على روحه غبارا من الكدر، فقال برقه:

- صبرا يا رشدى، وما وراء الصبر إلا الفرج!

ولا معدى عن الصبر أيضا. كان يعتصر غصص الزمن الثقيل بقراءة الجرائد والمجلات؛ والحديث إلى أمه. ولم تكن تفارقه إلا للضرورة. وأبيه وشقيقه. وكان على أمه وملله قد نجا من ساعات اليأس القاتل التي أوحت إليه مرة بالرسالة التي بعثها من المصححة إلى شقيقه، نجا من اليأس، وعاوده الأمل في الحياة، والرجاء في الشفاء، ولكن الألم الذي رسم في عينيه تلك النظرة العميقه المتوجهة لقنه حقيقة الشقاء التي ينطوي عليها قلب الدنيا، فذاق العذاب، وشعر بأنفاس الموت الباردة تتردد على وجهه، والأرجح أن الحياة تحرض على أن يعرفها أبناءها جميرا، إلا أنها تقطر حقيقتها على المعمرين وتتسكبها في أفواه المتعجلين.

ومن عجيب أنه لم ينس قلبه! .. فالمرض لا يمحو الحب، ربما لم يعد يضطرب به دمه، ولكنه يحسه بروحه ويتحقق به قلبه، ولكن ترف عليه الذكريات فتضيء مخيلته بنور وهاج، وتتدنن أذنيه كسجع الألحان، فيستيقظ قلبه كزهرة نفح الربيع فيها من روحه، وتختال لعينيه بروق البسمات وطريق الصحراء والعينان النجلawan، وتطنن في مسامعيه العهود والمواثيق. ترى ما مصير كل أولئك؟ .. ماذا يخبيء له الغيب؟ .. هل يمكن أن يعود الشباب والقوة والأمل والحب؟ .. هل يمكن أن يسعى كسابق عهده متباخرا في رشاقة وخبلاء؟ .. وأن يضحك ملء قلبه دون أن يهيج سعالا فتالا؟ .. وأن يذهب رأسه ويحيىء بالترنيم والتجويد؟ .. وأن يراه الإخوان في تصايحوا « جاء قلب الأسد»؟ .. وأن يشك ذراعه بذراع نوال فيقططا معاطر طريق الجبل وغلاة الضباب تخفيهما عن الأعين؟ .. هل ما يزال ثمة أمل في أن

يَسْتَاعِ خَاتَمُ الْخَطُوبَةِ وَيَزْفُكُ الْعَرَائِسِ؟ .. وَكَانَتْ نَوَالْ تَعْوُدُهُ مَعَ وَالدِّيهَا، فَيَتَبَادِلُانِ نَظَرَاتٍ خَاطِفَةً مَشْوَقَةً لَمْ يَشْعُرْ بِوْقَدِتَهَا إِلَّا هُما، رِيَاهُ لِمَاذَا لَا يَتَرَكَانُهُمَا وَحْدَهُمَا وَلَوْ لَحْظَة؟ .. إِنَّهُ يَذُوبُ شَوْقًا إِلَى كَلْمَةِ وَدَادٍ تَرْطُبُ حَرَارَةَ فَؤَادِهِ الْمَحْمُومِ. وَهَكُذَا مَضَى شَهْرُ مَارْسِ. وَلَمَّا جَاءَ إِبْرِيلُ تَغْيِيرَ الْحَالِ، فَلَمْ يَعْدِ يَرِي نَوَالْ! .. مَضَى أَسْبُوعٌ دُونَ أَنْ تَزُورَهُ وَأَنْتَصِفَ الشَّهْرَ فَلَمْ تَحْضُرْ، وَعَادَهُ وَالدَّاهَا بِمَفْرِديْهُمَا، وَإِنَّهُ إِبْرِيلُ دُونَ أَنْ يَرَاهَا أَوْ تَرَاهُ! .. عَادَهُ إِخْرَانْ قَهْوَةَ الْزَّهْرَةِ وَأَسْرِهِمْ وَأَصْحَابِ السَّكَاكِينِيْنِ وَجَمِيعُهُمْ مِنَ الْأَقْارِبِ وَالْجِيَارِانِ الْقَدْمَاءِ، فَالْبَيْتُ لَا يَفْرَغُ حَتَّى يَمْتَلِئُ، إِلَّا نَوَالْ، اخْتَفَتْ مِنْ حَيَاتِهِ فَجَأَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ حَقِيقَةً مَحْسُوسَةً وَأَمْلَأَتْ شَوْقًا! .. وَلَا شَكَ أَنَّ وَالدِّيهَا وَشَقِيقَهُ يَشَارِكُونَهُ أَمْهُ وَإِنْكَارَهُ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَفْصِحُونَ عَنْ مَشَاعِرِهِمْ رَأْفَةً بِهِ، وَأَبَى عَلَيْهِ كَبِيرِيَّاوهُ أَنْ يَسْأَلَ وَالدِّيهَا، لِمَاذَا انْقَطَعَتْ نَوَالْ عَنْ زِيَارَتِهِ؟

هَلْ عَرَفُوا حَقِيقَةَ دَائِهِ وَأَيْسَوْ أَمْنَهُ؟ .. هَلْ مَنَعَهَا مِنْ عِيَادَتِهِ الْخَوْفُ مِنَ الْعَدُوِّ؟ .. هَلْ أَمْسَى شَرَا وَأَذْى بَعْدَ أَنْ كَانَ حَبِيبَا مَحْبُوبَا؟ .. أَكَذَّبَ الْحُبُّ وَعْدَهُ؟! .. وَجَعَلَ يَجْتَرُ آلَامَهُ فِي صَمَتٍ، حَتَّى ضَاقَ بِهَا فَقَالَ يَوْمَا لِأَحْمَدَ وَقَدْ خَلَتْ لَهُمَا الْحَجْرَةُ:

أَلَمْ تَرْ كَيْفَ انْقَطَعَتْ عَنْ زِيَارَتِي؟

عَرَفَ أَحْمَدُ مَنْ يَعْنِيهَا بِقُولِهِ، وَتَظَاهَرَ بَعْدَ الْاِكْتِرَاثِ وَقَالَ: - حَذَارٌ مِنَ الْفَكْرِ! .. أَنْتَ فِي نِضَالٍ مِنْ أَجْلِ الصَّحَّةِ فَلَا تَضَعُفْ مَقاومَتَكَ بِنَفْسِكَ!

فَاسْتَطَرَدَ قَائِلاً وَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ مَا قَالَ الرَّجُلُ :

- أَبْشِعْ شَيْءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا جَفَاءَ صَدِيقَ بَغْيَ ذَنْبٍ، أَوْ أَنْ يَكُونَ ذَنْبَهُ أَنَّ الصَّحَّةَ جَفَتْهُ!

- لَا تَبَالْ شَيْئًا وَلَا تَسْتَسِلُمْ لِلْأَفْكَارِ الْسُّودِ!

فتمتم الشاب بصوت حزين :

- لن أبالي شيئاً ولكن الخيانة قبيحة !

وسرت في الرجل رعدة لأنه ذكر أنه فاء يوماً مثل هذه الجملة ، وقال  
يداري عواطفه :

- حسبك قلوبنا فهي تحبك ولا تجفوك أبداً .

فابتسم رشدي وقال :

- لا أدرى متى حفظت هذين البيتين :

مالى أرى الأبصار بي جافية      لم تلتفت مني إلى ناحية  
وإنما الناس إلى المبتلى      لا ينظر الناس مع العافية

فقطب أحمد تلماً وهتف به :

- أترغب أن تقتلنى غماً وكمداً !

فقال بأسف صادق :

- معاذ الله ، أنت أحب إلىَّ من الشفاء !

وعاد أحمد إلى حجرته وهو يقول لنفسه محزوناً : «رباه .. كيف  
جفته وقد راح ضحية لها؟!». .

## ٤٤

والحقيقة أن كمال خليل أخذ يساوره الشك فيما قالوا عن مرض  
الشاب : وما ثبت أن أفضى بشكه إلى امرأته . ولકى يقطع الشك باليقين  
زار صديقاً له في بنك مصر وسأله عن حقيقة مرض رشدي ، فأطلعه  
الرجل على الحقيقة ، وحزن كمال خليل حزناً بالغاً ، لأنه أحب رشدي  
حباً صادقاً ، ووجد فيه خيراً زوج يمكن أن يزوجوه لابنته . وهو الخبر

على الست توحيدة كالصاعقة، وخيب أملها في سعادة نوال، وخلا  
الرجل بزوجته وقال لها متوجهما:

-ماذا ترين؟

فلاذت المرأة بالصمت إشفاقا من الجهر بالحق المؤلم، فقال كمال  
أفندي:

-لاأظن أن رشدى بناج من مرضه الخطير!

فقالت المرأة بامتعاض:

-ربنا يلطف به.

-وحتى لو كتب الله له النجاة فلن يصلح للحياة الزوجية.

-فماذا ترى أنت؟

-أرى طبعاً أن أصون صحة ابنتى، فهى شباب غض، ودخولها  
حجرته كما حدث مرات استهتار شديد الخطورة سبب العاقبة،  
فينبغى أن تعرف الحقيقة حتى لا تعيش على الأوهام أو تتعرض  
لعدوى مرض خبيث ندرت النجاة منه.

فقالت المرأة بلهجة دلت على الأسف والاستسلام:

-الأمر لله!

ودعوا بنوال، وجاءت الفتاة غافلة عما يضمراه لها، وكان ينبغى  
من عينيها نظرة ودية تلوح فيها الكآبة، فطلب الرجل إليها أن تجلس  
قباله على كرسى ثم راح يقول بصوت رزين:

-نوال، دعوتك لأقضى إليك بسر هام، وعهدى بك فتاة عاقلة،  
والسلوك الحكيم هو ما أتوقعه منك دائمًا، فاعلمي أن جارنا العزيز  
رشدى أفندي مريض مرضاً خطيراً أفعظ مما يقولون..

فاصفر وجه الفتاة، ونفذت لهجة والدها إلى قلبها فانقبض خوفاً،  
وتساءلت باشفاق:

-أى مرض يا أبنتى؟

-يؤسفنى أن أصارحك أن الشاب مصاب بالسل ، وهو مرض كما تعلمين فظيع ، ورحمة الله واسعة ، ييد أن على الإنسان واجبا نحو نفسه لا يجوز أن يفرط فيه أو يستهين به لأى داع مهما جل شأنه ، فلندع لصديقنا العزيز بالشفاء ، ولنذكر قوله تعالى : «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة».

السل ! .. يا رب السماوات ! .. ماذا يقول أبوها؟ .. هل أضحتى رشدى العزيز شيئاً واجباً اجتنابه؟! .. هل أوى حقاً ذاك الداء الخطير إلى صدره الحنون؟ .. هل ضاعت الآمال وتبددت الأحلام؟! .. ورددت بين والديها نظرة حائرة تستحق الثناء ، فأدركت أنها ما تعانى من ألم أجبرها وجود أبيها على مداراته ، فقالت :

-الله عالم بشدة حزننا وأسفنا ، وهو القادر على جبر كسرنا ، ولكن صدق والدك يا نوال ، فحدثنا سنك يجعلك صيداً سهلاً لعدوى هذا الداء ، فدعينا نحن نقم بالواجب عنا وعنك ، ولندع له جميعاً بالسلامة والشفاء إنه سميع مجيب .

وجعل أبوها يتفرس في وجهها من تحت حاجبيه ، ويقرأ ما تظهر وما تبطن ، ثم قال مستطرداً :

الآن أدركت ولا شك الباعث الذي دعانا إلى مخاطبتك في هذا الشأن ، ولا شك أنك تقدرينرأى حق قدره ، فأنا أبوك وأخاف عليك أكثر مما تخافين على نفسك ، لهذا أقول لك إنه لا يجوز بعد اليوم أن تعودى المريض العزيز ، ولا عليك من هذا ، ولن يلومك عليه إنسان عاقل منصف ، ومهمما يكن من الأمر فما أبالى كلام الناس ولا أقيم للومهم وزنا إذا جاء مخالفًا للعقل ، فما رأيك؟!

ولم تكن قملك من الجسارة ما تستطيع معه أن تصارحه بما يدور في خلدها ، وكان له من المهابة في نفسها ما يمنعها من مشافته بما يخالف

رأيه، فلاذت بالصمت حتى استحثها على الجواب، فقالت بصوت خفيض:

- أمرك مطاع يا أبتي!

ولم يكن يطمع في أكثر من هذا، وخفاف إن أطال الحوار أن يشجعها على الإفصاح عن حقيقة مشاعرها، فنهض قائماً كالمقتنع المرتاح، وقال:

- لا خييت: لي رجاء أبداً.

وما أن غيبة الباب حتى أحدق في وجه أمها وهتفت بها:

- كيف يكون هذا يا أماه؟!

قالت المرأة بحزن واستسلام:

- لا معدى عنه يانوال!

قالت بصوت متهدج مرتعش:

- كيف لا أعوده.. . كيف أتجنبه؟.. هل يقوم خوف الإنسان على نفسه عذراً مقبولاً لهجر أصدقائه في أوقات محتتهم؟!.. وما جدوى الصداقة والمرؤة في هذه الدنيا؟!

ولم تتم حديثها فخفتها العبرات، وأوشكت الأم أن تتأثر لها، ولكنها تداركت عواطفها أن ترق لها فتدفع بها إلى ال�لاك. فقالت بلهجة لا تدل على ذات نفسها:

- وما جدوى أن يصاب الإنسان بداء وبيل من أجل صديق لي يتتفع بمرضه فتيلاً؟!.. إن أباك حريص على صون شبابك الغض وله الحق في ذلك كل الحق.

- أواه يا أماه!.. ولكنني إذا ضلت نفسى بهذا الغدر القبيح فلن أنتفع بها. ليس المرض بالشر الوحيد في هذه الدنيا، فالغدر شر من

المرض ، ماذا يظن بي؟ .. بل كيف أدفع عن نفسي أمامه وأمام الناس؟

- تقولين إن أباك أجبرك على الامتناع عن عيادته ، فعلى أبيك التبعة وعليك الطاعة ، ولن يجادلك إنسان في حق والد على ابنته .  
- ما أقساك يا أماه! .. سأموت كمدا .

- أفضل ألف مرة أن يلعنني الناس على أن ألقى بفلذة كبدى إلى التهلكة!

فقالت الفتاة وما زال عيناها تسحّان دمعا ساخنا حتى سدت خياشيمها وتغيرت نبرات صوتها :

- سيمقتني ويحتقرني ، وغداً إذا برئ؟!  
وخفقتها العبرات مرة أخرى ، فقالت الأم وهي تنهض :  
- هذا هو حظك فما حيلتنا؟ .. بيد أنك مازلت على عتبة الشباب ،  
والفرص أمامك كثيرة ، والله قادر على جبر خاطرك ، فليندعه أن يصون للشاب المسكين شبابه وأن يعوضك عنه خيرا !! ..  
فهتفت بها متوجبة :  
- ما أقساك .. ! ما أقساك .. !

وفرت إلى حجرتها وكان الوقت مساء ، فدلقت من الشباك محممة العينين ورمت ببصرها إلى النافذة المحبوبة ، وكانت النافذة مغلقة ينبعث من خصاصها نور خافت ، وتمثل لها راقدا على جنبه تلوح من عينيه تلك النظرة الحزينة المتوجهة ثم تمثل لها وهو يسعل ذلك السعال الفتّال الوحشي : لهفى عليك يا حبيبي . وأأسفى على رقادك بلا حول وبلا قوة .. ونظرتك التي تنم عن أفعى الآلام البشرية؟ أين نصارتك؟ أين شبابك؟ أين حديثك؟ أين آمالك؟ بل أين نصارتنا؟ أين شبابنا؟ أين حديثنا؟ أين آمالنا؟ رياه ما أتعس حظى .. وما أحلك دنياى .. !

وارتقت على مقعد تكفيك دمعها وتنهد من الأعماق ، وأوهنها التأثر فانطلقت خواطرها بلا ضابط ، مرت حياتها مع رشدى أمام ناظريها فى مثل لمح البصر فأيقنت أنها فتاة تعيسة الحظ . ولم يغب عنها ما فى حديث والديها عن مرض الشاب من يأس وقنوط ، فتولاها الذعر ، وما كانت تعرف عن الموت إلا لفظه ، فكيف وقد تمثل لها وحشنا كاسرا يتوب للانقضاض على قلبها؟ رياه ! ويأمرانها بألا تعوده ! ويحولان بينها وبينه بعزيمة لا تعرف الرحمة ! وتجهم وجهها الباكى وشعرت برعدة تسرى فى أطرافها ، فتحسست راحتها صدرها ! .. شعرت فى أعماقها بأنها تخاف المرض قدر ما تخافه على حبيبها ! الرقاد ، والسعال ، والهزال ، والعذاب ، ثم أحست تعاسة وقنوطا وحزنا وخوفا ، ومزقتها الحيرة إربا إربا بين حبيبها وصحتها وسعادتها ! رياه . ألم تكن تحيا فى دعة وطمأنينة وأمل مشرق ؟ ! فما الذى أوجب هذا الشقاء وهذه التعاسة ؟ ! .

ولدى عصر اليوم التالى عادت من المدرسة فوجدتهم قد نقلوا حجرتها إلى حجرة أخرى بعيدا عن نافذته ، وأنه حيل بينها وبين رؤية ذاك البصيص من النور ..

## ٤٥

ولم يعد رشدى إلى ذكر نوال ، وعجب أحمد لصمتها وتساءل أيعانى آلامه وحده أم يتناسى باستهانة واحتقار ، ودعاه مخلصا . وهو المبتلى - بالنسيان وراحة القلب . ولم يكن من الممكن استكناه باطن الشاب من محياه ، لجمود ملامحه وتجهم نظرة عينيه العميقه الحزينة وملازمه حال من الكآبة لا تقاد تزايده ، فظل أحمد متغيرا مشفقا . وشاركه الوالدان

حيرته وإشفاقه، ولم يكن الأمر يعنيهم من ناحيته العاطفية، ولكنهم خافوه على الصحة المتهالكة التي تجاهد في سبيل الحياة، خصوصا وأن مضى الأيام قد بعث في النفوس الأمل بعد أن أوشكت أن تشفى على اليأس، ولو سألت على بواعث الاستبشار لما وجدت غير كرور الأيام وتعود الحال، أما رشدي فلبث عاجزا عن مغادرة الفراش، ونضو هزال يستشير الذعر والإشراق، وظل لونه مصفرًا مشربا بزرقة، ولم يخف عنه السعال إلا قليلا.

وفي النصف الأول من مايو جاءه طبيب المصرف، ليعيد الكشف عليه وليجدد له الإجازة حسبما يرى، وفحصه الرجل فحصا سطحيا ثم قال:

- أظنك تعلم أن إجازتك القانونية تنتهي في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢ !  
أجل كان يعلم ذلك، ولكنه كان كأنه يسمع به لأول مرة، فقال بصوت خفيض :

- حقا؟ .. نعم .. أعلم ذلك ..

فقال الطبيب بغير مبالغة :

- فأيامك الباقيه من الإجازة متهدية لا محالة قبل الشفاء بزمن طويل،  
وعليه فلا مناص من فصلك من خدمة البنك ابتداء من ٣١ مايو سنة  
١٩٤٢ .

وكان صوت الدكتور يقع من مسمعه موقعا غريبا، فتساءل بصوت أشد ضعفا :

- ألا يوجد ثمة أمل في الشفاء قبل انقضاء المدة الباقيه من  
إجازتي؟

فهال الطبيب السؤال وقال يانكار :

- هل تتصور أنه من المستطاع أن تبرا وتسترد قوتك ووزنك الطبيعي

فستأنف عملك في بحر عشرين يوماً؟! هذا محال. أمامك عام  
استشفاء على أقل تقدير..

فسهم رشدى كالشارد، ثم أطرق كثيبا محزونا، أما الدكتور فأعطاه «استثمار» نص بها على انتهاء إجازته في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢، إذالم يعد إلى عمله قبل ذلك، وقال له بلهجة دلت على أنه يريد الانصراف سريعا:

- وقع من فضلك يا مضائى على هذه الاستثمارة للعلم..

وذكر أخاه أحمد بأنه يستغىث به في تلك الساعة الحرجة!.. وردد عينيه بين الطبيب وبين الورقة فلم يغب عن ناظريه ما بالرجل من نفاد الصبر، فعراه الارتباك وتناول قلمه ووقع يا مضائى بيد مرتعشة. وغادر الدكتور الحجرة فجاءت أمه متطلعة إليه بوجهها الذي نال منه الإعياء والهم كل منال، فقال لها بصوت مبحوح متهدج:

- وقَعَتِ اليَوْمِ يَامضائى عَلَى أَمْرٍ فَصَلَى مِنْ عَمْلِي!

فخفق قلب المرأة خفقة عنيفة، بيد أنها تداركت نفسها فلم تستسلم لعواطفها أن تصاغف من أشجانه، وقالت باستهانة:

- وهذا ما جعلك تتكلم بهذه اللهجة الخزينة؟! يا بنى، إن الله أكرمنا بإيقاذاك من الخطر الداهم فلا ينبغي أن نغفل عن ذكره وشكره، وليهن، بعد ذلك كل شيء، فلا يحزنك الأمر، فإنك إن فقدت عملك اليوم واجده غدا إن شاء الله..

ولكنه قال بنفس الصوت المتهدج المبحوح وكأنه لم يع شيئاً ما قال:

- قضى الأمر وخسرت وظيفتي، وضع الماضى والمستقبل.

فقالت المرأة وهي تعض على تواجذها دافعة دموعها:

- رشدى لا تأس ولا تحزن، وغدا تنكشف الغمة بأمر الله ورحمته،

فترد إلى وظيفتك أو إلى خير منها ، والله لتبسمن بعد عبوس  
وليصدقن قلبي ..

ولكنه لم يكن يصغى إليها ، وتأتى عيناه فى آفاق مجهولة ، فغابت  
أمه عن ناظريه وراح يقول وكأنه يحدث نفسه :

- ما أفعض المرض ! .. حقا إن ألمه لشديد ، وعذابه لروع ، يجعل القوة  
عجزا ، والشباب شيخوخة ، والأمل قنوطا يقعد الناهض ، ويعطل  
العامل ، ويصبح الحبيب ، أضاع مستقبلى ، وأطفأ نورى ، وأوهن  
عظيمى ، وأفقريدى ، اللهم اكفهم شر المرض .. اللهم اكفهم شر  
المرض ..

وانفلت زمام المرأة من بين يديها فأجهشت فى البكاء ، وقالت  
بصوتها الباكى :

- هلا رحمتني يا رشدى !

فقال بحدة :

- الله لا يريد أن يرحمنا ..

وبعد ظهر ذاك اليوم - وبعد عودة الوالد من مسجد الحسين وأحمد  
من الوزارة - حدث الرجلان رشدى حديثا طويلا يهونان به من أثر ما  
وقع ، ويؤملانه خيرا منه ، حتى بدا فى النهاية أنه يغيرهما أذنا  
واعية ويتأسى بما يقولان . ورأى أحمد أن نفقات التداوى ستتضخم ، بل  
أضحت بالفعل ، أكثر مما تتحمله نقود الشاب التى انكمشت إلى ربع  
مرتب وستنقطع بعد حين ، وأنه لن يعني عنه ما عسى أن يعينه من مرتبه  
المثقل ، فقال له :

- رشدى . أنت الآن خير حالا مما كنت فى الماضى القريب ، وأظننك  
تحتمل البقاء فى المصححة ، أفلأ يحسن بك أن تنتقل إليها لتظفر بجو  
وعناية ، لا يتوافران لك ها هنا .. ?

فقال الشاب وقد اقشعر بذنه لتذكر المصححة وعهدها:  
-ليس في طوقى الآن أن أعود إلى الدرجة الثانية، ومحال أن أرضي  
بالانتقال إلى عناير الدرجة الثالثة.

-أليست عنابر الدرجة الثالثة بخير من حجرتك هذه هواء ودواء؟  
فهز رأسه الذي بدا كبيراً جداً بالنسبة إلى عنقه الرفيع وقال:  
-الحياة هناك فظيعة، وأحوال المرض مخيفة، كفاك الله شر  
المرض ..

فلم يزد أحمد كلمة واحدة، وعند المساء، وكان رشدي وأمه  
كعادتهم يراوحان بين الحديث وبين سماع الراديو المترامي إليهما من  
المقاھي المحيطة، قدم المذيع طبيبه الذي كشف عليه أول مرة - إلى  
الجمهور «.. يلقى عليكم محاضرته الأولى عن السل» فارتعدت أمه  
لسماع الاسم الذي يقض مضجعها، أما رشدي فانتبه بعنابة وأرهف  
أذنيه، ولم يكونا وحدهما اللذان يرهفان أذنيهما في تلك الساعة،  
فالأب في حجرته رفع رأسه عن القرآن وما لبرأسه نحو النافذة، وغاب  
أحمد عن حديث الصحاب في الزهرة ليلقى بانتباهه كله إلى الراديو  
خافق الفؤاد. وتكلم الدكتور عن تاريخ كشف ميكروب المرض،  
والأدوار التي يمر بها، ووصف كل دور بإسهاب، ثم تكلم عن مسألة  
زواج الناجين من الداء، وما ينبغي أن يتظره أصحاب كل دور من  
أعوام، واقتصر في النهاية أن تنشئ الحكومة للناجين من الدور الثالث  
قرى في صحراء حلوان تكون بثابة معازل يقضون فيها شطراً من  
أعمارهم أو العمر كله. أصفت الأسرة متفرقة إلى المحاضرة، فأخفت  
الأم عينيها الدامعتين، وتنهد الأب وعاد إلى كتابه، أما أحمد فبكى قلبه  
وهو يتظاهر بالسرور بما يقول المعلم نونو. ولازم رشدي الصمت،  
ومضى يستعيد ما سمع، فغمّرته فجأة ذكريات حياته، الشباب الطروب

والله العابث والحب الساحر، وصور سريعة متزاحمة من الوجوه والأماكن والربوع، فتأكل صدره حسرة، وهوى من ربوة الأمل إلى هاوية القنوط، ونسى وجود أمه فهتف يائساً: «رباه إذا كانت مشيتك قد قضت بأن يتنهى بهذا الداء أجلى، فأسألك الرحمة بالتعجيل به». وارتاعت أمه، ونظرت إليه بتعاب وهي تقول:  
.. رشدى! ..

فنظر إليها مبتسماً ابتسامة حزينة وقال بلهجة تهكمية:  
.. الغالب أنك لن تفرحي بعرسى كما تودين!  
ولما رأها تجهش في البكاء، غلبه التأثر، فوجم.. وقال بأسف:  
.. معذرة يا أماه.. لشد ما أقسو عليك يا مسكونة.. حرمت عليك النوم والطعام وسودت أيامك وهأنذا أعتذبك بهذيانى، فاللهم غفرانك.

## ٤٦

واستيقظ في صباح اليوم الثاني أهدأ نفساً وأهدأ قلباً. ولما جاء أحمد يصبح عليه طلب إليه أن يعيره القرآن. وأنى الرجل بالكتاب الشريف فتناوله الشاب بسرور، وسألته:  
.. أليس من الحرام أن أمسه ولما استحم منذ أشهر؟!  
فقال له مبتسماً:  
.. عذرك مقبول عند الله..  
ومضى يقرأ الكتاب، ولو لا خوف السعال، لتلاه بصوته العذب.  
ووجد في القراءة لذة وسلاماً، واطمأن بذكر الله قلبه، ونسى به الخين.

إلى الماضي السعيد، والخسرة على ما فات منه، والندم على ما فرط منه فيه، بل نسى به التوجع الدائم لما صار إليه حاله، واليأس من الشفاء الذي قبض قلبه منذ أمس، والخوف من النهاية التي تخايل لعينيه، وفر أخيراً من آلامه ومخاوفه لأنذا بالاستسلام والتسليم والصبر والتوكّل على الله. ووجد ارتياحه في الإذعان المطمئن إلى إرادة الله وقضائه، ورأى تلك الإرادة الشاملة التي تحيط بحاضره ومستقبله فاستسلم إليها آمناً مطمئناً كما يستسلم إلى صدر أمه إثر نوبة السعال. ومرت أيام وهو هادئ رزين، صابر متصرّب، باشِّ مسالم، لا يثور ولا يغضب، لا يشكُّ ولا يتذمر، ولا يتمرد ولا يسخر. وفي المرات القلائل التي أطلقت فيها زمارات الإنذار لم يفارق الشقة منهم أحد، فكانوا يتحسّنون طريقة موتّرة. واطرد الزمان في هدوء حتى وقع حادث هام! كان ما يوقد انتصف، والوقت أصيلاً، والأب قد انتقل كعادته إلى مسجد الحسين لصلاة المغرب، وجلس أَحمد في حجرة الشاب يحادثه بوجوده والدتهما، فدق الجرس وفتح الباب، واقتربت أقدام خفيفة، ثم دخلت الحجرة أمرأتان: الست أم توحيدة ونوال! وحدثت دهشة لاحت أماراتها في الأعين، وخفق قلب الشقيقين بعطف. لماذا جاءت نوال بعد هذا الغياب الطويل؟! .. وإن ظهورها مرة أخرى خليق بأن ينكأ الجرح الذي أوشك أن يندمل. ونهض أَحمد وتنحى جانباً حتى ارتفق النافذة، ورفع رشدي عينين أحاطت بهما هالتان زرقاوان، ونطقت عيناه بالإنكار، ثم زايلته الدهشة وحل محلها امتعاض شديد فتغص عليه هدوءه البديع. وحدثته الست توحيدة بلهجتها المرحة، وأكّدت له أنه يتحسن تحسناً محسوماً، أما نوال فرنت إليه بعينين مروعتين وقد أفزعها ما صار إليه من الهزال والضعف، وغلبت على أمرها فلم تدرّ ماذا تقول. ولم تزد على أن قالت بصوت لا يكاد يسمع: «كيف

حالك؟!»، ولم ير غب في الرد عليها فاكتفى بأن رفع ذقنه وبسط راحتيه كأنه يقول لها «كما ترين!» ولم يعد يخفى على أحد أن الشاب تغير، وأنه اعتراه اضطراب واستياء، وأنه يعاني ألمًا باطنًا حاداً. وأرادت السيدة توحيدة بلباقتها أن تخفف من توتر الجو فراحت تتحدث وتضحك وتستثير الضحك ما وسعتها الحيلة، ثم قالت:

- أبشر يا رشدي أفندي! رأيتكم في الحلم حاملاً أنقالاً عابراً بها قنطرة طويلة، فبلغت نهايتها بسلام، وتفسيره أنك ستبرأ عما قريب إن شاء الله! ..

فقال رشدي بلهجة لم تخل من خشونة:  
- فسر الدكتور قبلك هذا الحلم فأكملني أنني لن أفارق فراشي قبل عام طويل؟

فقالت المرأة بلهجة عتاب:  
-سامحك الله يا رشدي أفندي، هكذا أنت متغيرة دائمًا.. (وأومأت إلى ابنته واستأنفت الكلام) هذه نوال جاءت لترافقك، وما منعها عنك إلا انشغالها بدورها، ومرضها في الأيام الأخيرة، وستؤدي الامتحان في نهاية هذا الشهر! ..

فقال الشاب بلا تردد:  
- نفس التاريخ الذي أفصل فيه من عملي..  
فاصفر وجه نوال التي أدركت حقيقة غضبه، وبادرت المرأة تقول بامتعاض:

- بعد الشر.. بعد الشر. كل شدة إلى انتهاء تسير..  
ولكنه بسط راحتيه على صدره وقال بحدة:  
- إلا هذه الشدة، فلا انتهاء لها حتى تقضي على الحياة..  
- مرضك يا رشدي أفندي ليس بالخطير، وستبرأ قريباً بإذن الله..

فهز منكبيه استهانة ، وعاد يقول بحدة وراحتاه على صدره :  
-أى مرض تعنين؟! .. ها هنا سل ! أما سمعت به؟! .. سل سل ،  
إنه يأكل صدرى ، ويسليل مع ريقى دما .. إنه مرض خطير فظيع ،  
شديد العدوى ، فخذار ..!

واشتد به التأثر ، وغلبه الانفعال ، فضرع إلهي أمه أن يسكت ،  
ورجت الضيفتان أن يصحبها إلى حجرة الاستقبال معتذرة عن حدة  
الشاب بمرضه . ولما خلت الحجرة إلا من الشقيقين ، قال أحمد بحزن :  
-ليتك لم تستسلم للغضب !

ولكنه قال له بانفعال شديد :

-والله ما تستحق إشفاقك يا أخي ! إن الخيانة قبيحة ، وهذه الفتاة هي  
سبب الكارثة التي حلت بي كما تعلم يا أخي ، لو لاها لتدارت  
خطر المرض ودفعت الأذى عن حياتي ، ولكن تعلقى بها هيألى  
مداراة المرض حتى انتهيت إلى ما ترى ..

واستوى جالسا وقال وما يزال منفلا :

-لماذا خاطرت المرأة العجوز باصطحابها إلى؟ .. المرأة الماكرة ترمى  
بنظرها إلى بعيد ، فترى الشفاء محتملاً كالموت ، وتأخذ الحبيطة  
لكل احتمال ، ولكنني يا أخي لن أفك في الزواج ، وإذا كتب الله  
لي الشفاء فسوف أتعهد ببنيانى المتهالك بالعناية الواجبة ، فعلى  
أحسن الفروض لن يبقى من عمرى إلا شيخوخة حقيقة بالرعاية  
الحكيمة . أخي : لى فى المصرف مقدار من النقود كنت ادخرته  
لزواجهى فسألستره وأشد الرحال إلى حلوان ، وهناك أضع نفسى  
تحت رحمة المقادير حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . غداً اسحب  
لى النقود بنفسك ، وابتعد لثياباً ولوازم ، وساكون بالصحة قبل  
نهاية هذا الشهر ، وعلى الله الجبر ..

في ضحى اليوم الثاني - الجمعة - نفذ أحمد مشيئته أخيه، فاسترد وديعته من المصرف وابتاع له بيجامتين وثيابا داخلية وبعض اللوازم الثانوية، وعاد إلى البيت ظهرا مسرورا باقرار رأي المريض عليه من الانتقال إلى حلوان، ولما دخل حجرة الشاب رأه يدخن سيجارة، فانزعج انزعجا شديدا، وكان أقلع عن التدخين منذ ظهور المرض، فارتباك لرأي القادر، وابتسم ابتسامة ارتباك وخجل. وهتف به أحمد وقد نسي المشتريات الجديدة:

- من أعطاك هذه السيجارة؟ .. ماذا تفعل بنفسك؟!

وألقى على أمه نظرة ملؤها الاتهام، فقالت المرأة تدافع عن نفسها: - ألحَّ على يا أحمد ولم ينفع اعترافى، فما سكت حتى فاز بطلبه ..

وقال رشدى دون أن يترك السيجارة:

- لا تؤاخذنى يا أخي .. نازعتنى نفسى إلى التدخين فجأة فلم أستطع مقاومتها.

فقال أحمد بامتعاض شديد:

- ولكن هذا هو الجنون عينه!

فقال الشاب كالمعذر:

- سيجارة واحدة لا تؤذى، لكم هى للذيدة! دعني آخذ أنفاسها في طمأنينة ..

ودخن سيجارته فى سرور عجيب، ثم قال:

- لا تغضب يا أخي فهى آخر سيجارة، والآن هات ما عندك من الشباب الجديدة..

وبعد الغداء بقليل اعتراه إعياء شديد ولم يطمئن إلى الاضطجاع، فجلس في الفراش ماداً ساقيه مستنداً ظهره إلى وسادة منكسرة، فبدأ ساقاه كخطبين، واشتد أصفرار وجهه وشابتة زرقة خفيفة، ولاحت عيناه متسعتين مكتحلتين بهالتين سوداويتين، وارتسمت على الحدقتين نظرة غريبة، غير نظرة الحزن الأولى، كأنها ترمي إلى شيء لا تراه الأعين. وجاء أحمد يجالسه ساعة العصر قبل أن يمضى إلى قهوة الزهرة، فقال له رشدي:

- أذهب إلى الزهرة؟! .. سلامي إلى الصحاب، لكم يشوقنى أن أسرير ليلة في السكاكينى بين إخوانى.

فقال أحمد بتأثر:

- سبيراً إن شاء الله وتعود إلى إخوانك ولبياليك!  
فقال الشاب بانكسار:

- هل يمكن أن أبراً حقاً؟! .. انظر إلى ساقى! هل تعودان مرة أخرى إلى هيئة السيقان البشرية؟!

- وما يكون هذا في قدرة الله العظيمة؟

فهز رأسه، ثم قال لأن أخي بلهمجة الناصح الأمين على غير مألفه:  
- ارجع صحتك دائماً بعين اليقظة ولا تتهاون بها أبداً..

ثم أطرق لحظة قصيرة واستدرك قائلاً وقد تغيرت نبرات صوته:

- المرض كالمرأة يلتهم الشباب ويبدد الآمال..

وتساءل أحمد ما بال أخيه يتكلم هكذا؟! .. ونظر إليه بانكسار، فاستدرك الآخر:

- وميكر ويه يعمل فى الخفاء حتى إذا تمكنت من فربسته قضى عليها.

-رشدى! . ماذا تقول؟

-أجلو لك الحق قبل الفراق ، فعسى ألا أراك بعد اليوم .

فقال الرجل بانزعاج :

-كيف لا أراك يا رشدى؟

فتنهى قليلاً وقال كأنما عاودته سخرية المرة :

-أليس من المحتمل أن يذهب صبرك فتعاف المرض أو تشغله  
بدروسك فتنسانى فى حلوان؟!

فهتف به أحمد متألماً :

-سامحك الله .. سامحك الله ..

فحذجه بنظرته الغريبة الغائبة وسألة :

-لماذا لا يحرقون المرضى فيريحوهم ويستريحوا منهم؟

فصاح به الرجل :

-رشدى! كيف تتكلم؟!

فلزم الصمت لحظة قصيرة ، ثم قال بأسف :

-لعن الله المرض ، والله يكفيكم شر المرض ! ..

وانزعج أحمد انزعجاً كبيراً . وعادت أمه بالقهوة فاحتسى قهوته فى سكون ، وخاف أن يعود الشاب إلى كلامه المزعج ، ولكنه لم ينبس بكلمة ، فارتاح ارتياحاً خفيفاً ، وحسب أنه استرد حاليه الطبيعية . وجعل يسترق إليه النظر ، فهاله تراخيه ، ولون وجهه ، ومنظر ساقيه . وحدث نفسه متأثراً : لهذا أنت يا رشدى؟! تبا للمرض !! ..

وذهب الرجل إلى القهوة متأخراً عن موعده ، وكان يجد فيها بعض الراحة لأعصابه المتوتة ، ونفسه المهزونة ، فمكث بها حتى متتصف العاشرة ، ثم عاد إلى البيت ، ومر بحجرة أخيه ، فوجده قد تعاطى المنوم

واضطجع فى طلاب النوم ، ولكنه لم يكن نام بعد فرد تحية القادم  
فائلًا :

-مساء الخير .. هل عدت؟

فقال أحمد وهو يتفحصه بعينيه :

-أجل .. كيف حالك؟

-الحمد لله .. كيف شای الزهرة؟

-كعهدك به .

فقال بصوت لم يكد يسمع :

-هنيئا ! ..

وتركه لينام ومضى إلى حجرته ، وخلع ملابسه . كان منقبض الصدر متوتر الأعصاب . وترامت إلى أنفه رائحة نتنة فازداد صدره انقباضا وأعصابه توبرا ، ترى هل للهوا جس التى تضطرب بها أعماق النفس رائحة تشم؟ ! وحاول أن يغيب عن أفكاره ساعة بالقراءة . ثم نهض لينام . فلم يغمض له جفن حتى مضت ساعة طويلة من الأفكار والوساوس ، واستيقظ فى الصباح الباكر على حركة فى البيت فتنبهت حواسه ، ونظر فى الساعة فوجدها الخامسة . فتساءل ما الذى أيقظهم فى هذا الوقت المبكر؟ ! .. وغادر الفراش ، وانطلق إلى الخارج يساوره قلق وخوف ، وقبل أن يخطو خطوتين فى الدهلiz المفضى إلى حجرة رشدى انفتح باب الحجرة بقوة وبدت أمه على عتبته وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها كمن يستغيث ، ثم هوت على خديها تلطمها بعنف وجنون .

وكان يوماً فظيعاً مروعاً، سارت قافلته في هول من الألم والعذاب والشجن. وإن أحمد ليذكره ساعة ساعة لأن ذكرياته السود حفرت في فؤاده. كما حفرت في فؤادي الوالدين البايسين. فساعة دخوله الحجرة: سار متشاقلاً بقلب كسير وعين مذعورة لما يتضرر أن تراه، ومد بصره نحو الفراش فرأى رشدي راقداً وقد سجنته أمه بالغطاء ووالده واقفاً على كثب منه دامع العينين منكس الرأس، فاقترب من الفراش وحسر طرف الغطاء فرأه كالنائم لم يتغير منه هيئة ولا لون، وهل ترك المرض للموت شيئاً يغيره؟!.. وانحنى عليه فلشم جبينه البارد ثم أعاد الغطاء كما كان، واستسلم لبكاء غزير تجمعت أبخرته في قلبه يوماً بعد يوم تنفسها الآلام حتى تكاثفت في برودة الموت فسحّت دمعاً فياضاً.

وموقفه في حانوت بالغورية: بيتاع كفنا، ويذكر ما ابتعاه له بالأمس من ثياب الدنيا. انتقى له أجمل الألوان لما عهده فيه من حب الأناقة وجعل ينظر إلى يدي البائع، وهو يقيس القماش ويقطعه ثم يلفه، بإنكار وذهول.

ثم ذهب إلى موكيز الصحة لاستخراج تصریح بالدفن. سأله موظف بعدم اكترات: «اسم المتوفى؟» فأجابه وهو يود إلا يسمع صوت نفسه: «رشدي عاكف» ثم قال لنفسه بذهول: «رشدي عاكف مات!.. أفطع بها من حقيقة»، وسأله بنفس اللهجة الباردة: «عمره؟» فأجابه «ستة وعشرون عاماً» فسأله «المرض؟» فسماه والغضب يضطرب في جوانحه، وهل ينسى ما فعل بالشاب المنكود؟.. هل يمكن أن ينسى منظر الساقين والعنق؟.. لون البشرة؟.. قسوة السعال؟.. ثم تسلم

الورقة التي لا يمكن أن يغيب رشدى فى باطن الأرض إلى الأبد إلا بها  
ومضى شاكر !! .. وقد أحدث عدم اكترات الموظف والدكتور ثورة فى  
صدره على وشائج الإنسانية جمیعاً، كيف يلقى الموت بعدم اكترات  
وهو أفعظم حدث في الدنيا؟! .. هل يرى يوم دون أن يُرى نعش محمولاً  
على الأعناق؟! .. فكيف يرون به من الكرام كأن الأمر لا يعنيهم؟! ..  
كيف لا يرى كل فرد نفسه محمولاً على هذا النعش؟!

ثم مرتزقة الموت، جاءوا تبعاً يحملون أدوات الغسل والنش،  
براقة أعينهم، قوية سواعدهم، يكتمون وراء عبارات الرثاء المصطمع  
سرور التاجر بالربع المرتقب، فلم يروا في جثمان رشدى العزيز إلا  
سلعة.

ثم النعش يتهادى على الأعناق فى حلة الشباب البيضاء، وملأ عينيه منه وهو يسير فى انحرافه المعروف تتبادله الأيدي والمناكب، ووضع الطربوش عليه مستويا وكان صاحبه يميله إلى اليمين فيوشك أن يمس حاجبيه فعل المختال بشبابه المدل بجماله، الله ما أوفى أصحابه، لقد بكوا حتى احمرت أعينهم، وبكى كمال خليل أفندي، أما أحمد راشد فقد جمد وجهه ولم يبن، ولم يرتعنْجَ أَحْمَد لِمُنْظَرِهِ وَلَا لِوْجُودِهِ بَيْنَ الْمُشَعِّينَ، كذلك تجنب النظر إلى المعلم نونو الذى أيقن أنه لا يمكن أن يشاركه عاطفة لما طبع عليه من استهانة بالأحزان وابتسام للكروب، وسار الأب وراء النعش مباشرة فى حزن حفظ الإيمان عليه وقاره، وبلغ التأثر بأحمد متراه حين بلغت الجنازة طريق الجبل، الذى يعلم من أمره ما يعلم، الطريق الذى شهد رشدى عاشقاً صباهاً بعد صباح، والذى جرى فيه الفتى وراء هواه مستهينا بمرضه الخطير، فاشترى قلبه بصدره، ثم خسر الاثنين معاً. رباه هل يشهد الطريق على خيانة الرفيق؟.. هل يفضى إليه بأن التى رأى الفتى المسكين يتتحر من أجل حبها خافت عدواه ونبذته نبذ النواة؟!.. ثم بدت المقبرة فى ثوب قشيب!.. فرشت

أرضها بالرمل، واصطفت عند مدخلها الكراسي، ودار بها السقاة، وفغر القبر فاه كأنه يتاءب ضجرا من المأساة المعادة، ووضع النعش على الأرض وكشف الغطاء، ورفع رشدي ملفوفا في الكفن الذي اختاره له بنفسه، وأطبقت عليه الأيدي، وغابوا به في جوف الأرض، ثم صعدوا بعد قليل من دونه، وبلا رحمة حثوا عليه التراب، فاختفى في القبر في دقائق معدودات، واستوى بالأرض، ونضحوا الماء عليه كأن غلته لم ترو بعد، وهكذا غاب عزيز وانتهت حياة! .. بين انتباهة عين القبر وغمضتها يغيب حبيب إلى الأبد فلا تغنى عنه الدموع ولا الحسرات. ورجعوا جميعا وقلوبهم شتى، الحكمة التي أوجبت بالأمس أن يكون رشدي محبوبا توجب اليوم أن يصير نسيانا! .. البيت كثيف، والوالدان ذاهلان، وقد كوم رياش حجرة الراحل وأغلق بابها. ولما أوى عند منتصف الليل إلى حجرته، انشالت عليه الفكر، حتى تنبه إلى شيء في الجو. يا عجبا ما زالت الرائحة الكريهة تزكم أنفه .. رائحة الموت المخيفة؟ .. وفي صباح اليوم الثاني وجد أنها ما تزال تنباعث في الجو، فتهيأ له أنها ربما كانت متتصاعدة من الممر المفضي إلى خان الخليل القديم، ففتح النافذة ونظر منها، فرأى على الطوار كلبا ميتا وقد انتفخ بطنه وتشنجت أطرافه، فصار كالقرية، وأكب عليه الذباب. وأدام النظر قليلا، ثم تحول عن النافذة بفؤاد مكلوم وقد امتلأت عيناه بالدموع.

ثم كانت أيام قاسية مرة. أما عاكف افندي الأب فقد راح يداوى بالإيمان جرحا داميا، وأما الأم فقد ذهلت في حزنها عن كل شيء حتى الإيمان، بل قالت تخاطب ربها في وقدة الألم: «ما ضر دنياك لو تركت لي ابني!». ثم قالت لزوجها بحدة: «هذا حى شئ، جئته على كره مني وما أحبيته قط، وفيه مرض ابني وفيه قضى.. فدعنا نهجره بغير أسف!». ثم انشت إلى أحمد قائلة: «إذا أردت أن ترحم

أمك حقاً فابحث لنا عن مقام جديد». كرهت الحى وأهله جميماً.  
وضاق أحمد به صدراً كذلك، ولكن كيف السبيل إلى سكن جديد  
والقاهرة قد ناءت بسكانها!.. ولم يأل جهداً فوصل زملاءه جميماً  
بالبحث عن مسكن في أي موقع من القاهرة، بل جعل يروض حزنه  
الأليم بالاضطراب في الشوارع القرية والبعيدة بحجة البحث عن  
مسكن خال. وقد لاحظ المعلم نونو سهومه وكآبته فأكثر من مازحته  
وجذبه إلى أحاديثهم حتى دعاه مرة إلى بيت المست عليات، ولكن  
الكهيل أبي وظل مغبراً الجبين.

## ٤٩

وتلى وقت حافل بالأحداث الحربية الهائلة، فانسحب الجيش الثامن  
من جسر الفرسان، وفي النصف الثاني من يونيو سقطت طبرق في يد  
الألمان، وتهامس الناس بخطر الغزو. وتناول الصحاب، في الزهرة،  
الأخبار بتعليقاتهم المعتادة، فقال سيد عارف بسورو:  
ـ لن يقف زحف رومل هذه المرة.

ـ فسأل الأستاذ أحمد راشد بلهجة المتهم:  
ـ يا من تحبون الألمان، هل تحسبون أنهم إذا دخلوا مصر يدخلون  
ـ بسلام، أو أن دون ذلك حرباً ضرورة تقتلع كل قائم؟!  
ـ فأجابه المعلم زفتة باستهانة:  
ـ وماذا لنا في البلد مما يخاف عليه؟!.. فليحزن السادة الذين لا  
ـ يعرفون أن الدنيا فانية!  
ـ وقال المعلم نونو:

- لا أملك إلا روحى وأرواح أبنائى وهى جمیعا ملك الله تعالى ولا  
سبيل لروملي عليها إلا بأمره، وقد وقت لها آجالها قبل أن يخلق  
روملي ملايين السنين !

ثم ضحك نونو ضحكته المجلجلة واستدرك قائلا :

- نذرت إلى الله ، لو جاء روميل وأنا على قيد الحياة ، لأدعونه إلى  
سهرة بيت الست عليات ، ليشهد أن المدفع المصرى فوق المدفع  
الألمانى .

وجعل أحمد ينقل إلى والديه ما يقوله الناس ، ويحدثهما بأخطار  
الغزو وما يتوقعه الكثيرون من اشتداد الغارات الجوية ، وكأنما أراد أن  
يلهيمما عن حزنهم ولو بإثارة مخاوفهما !

وعاد أحمد ذات مساء إلى البيت ، وكان انقضى على وفاة رشدى  
أربعة أسابيع فوجد أمه بانتظاره ، وبادرته قائلا :

- زارتني نوال بعد عصر اليوم !

وخفق قلبه لذكر الاسم ، وأمسكت يدها عن فك رباط الرقبة ،  
وسألها متدهشا :

- ولماذا جاءت :

فقالت الأم :

- قابلتني في ارتباك شديد ، وما أن التقت عينانا حتى انتجت باكيه ،  
وقالت لى بصوت متقطع ونبرات مختلفة : « أنا أعلم بسخطك  
على ، بل بسخطكم على ، ولكم العذر ، ولكنني مظلومة ، والله يا  
تيزة ، منعوني من زيارتة ، وحالوا بيني وبين رؤيته ، وفرضوا على  
رقابة شديدة ، وأبوا أن يصغوا إلى توسلاتى أو يرحموا دموعى ،  
وما كنت لأفعل هذا بنفسي أبدا ، ومع ذلك لم أذعن ولم آيس حتى  
اضطرت أمى تحت ضغطى الشديد أن تصطحبنى معها فى غياب

أبى ، فجئنا معا ذاك اليوم الذى لا أنساه ولن أنساه ما امتد بي عمر .  
آه يا تيزه ! ألقى على يومئذ نظرة واحدة ، تنطق بالاحتفار والزراية  
فقطعت قلبي المكلوم البريء . أدركت أنه ناقم على ، كاره لى ،  
لكم تألمت ، ولكم أتألم .. ولكن سيعلم الحقيقة يوما ما ، ويعلم  
أنى ما بغيت عليه ولا خنت عهده» .

أصغى أحمد إليها بفؤاد خافق وصدر هائج جياش ، ثم سألاها :  
ـ أتقول الحق يا ترى ؟

فتفكيرت المرأة قليلا ثم قالت على مهل :

ـ سمعتها تتكلم بخلاص ، ولا أدرى لماذا تحمل نفسها عناء الكذب  
بعد أن انتهى كل شيء ، فيغلب على ظنى أنها صادقة ، ييد أن مقتى  
تضاعف لأهلها الدون .

وخلع الرجل ملابسه متفكرا ، وقد مال إلى تصديق الفتاة كأمه ،  
وارتاح لذلك ، ولكن وأسفاه قضى رشدي نحبه يائسا من حبه يأسه من  
الشفاء ! .. فيالهما من حبيبين تعيسين الميت منهمما والحي ! .. وأهاجته  
الذكريات فاستثارت أحزانه ومضى يقول لنفسه : «اللهم غفرانك ، ألم  
يكن الأولق أن تختراني وتعفو عن أخي ? .. فحياتى الخائبة لا تستحق  
الوجود ، وحياته الناجحة كانت أهلا للدوان ، اللهم غفرانك ! ».  
وأحس فى تلك اللحظة داعيا باطنينا يدعوه إلى ارتياح حجرة الفقيد  
المغلقة ، وكانت نفسه تازعته إلى ذلك مرات ثم يعدل إشفاقا ، أما هذه  
المرة فلم يستطع أن يغفل عن نداء الداعي ، وهزه الشوق والحزن ، وما  
عترم أن مضى إليها والسكنون شامل وقد أخلد والداه إلى النوم . ولما  
اقترب من بابها انقض صبره وفاض به الحزن . ثم أدار الأكرة ، وعبر  
مدخلها متثاقلا ، وأضاء المصباح الكهربائي ، وألقى على الحجرة  
المهجورة نظرة شاردة ، وقد ملأت رائحة التراب أنفه ، فرأى كوم من

الأناث ومكتباً تراكم عليه الغبار فأحاله، وكل شيء يدل على الوداع. رباء لماذا ولج هذه الحجرة وما جفت دموعه بعد؟! .. وأجال عينيه بها في حزن بالغ فجذبهما درج المكتب الأوسط، فذكر أن هذا الدرج يحوي مذكرات رشدي و«ألبوم» صوره! وأملى عليه قلبه أن يحتفظ بهما في حجرته ما دام الأناث عرضة للبيع اليوم أو غداً، ففتح الدرج واستخرج كراسة المذكرات والألبوم، ونفع عنهما الغبار، ثم ألقى على الحجرة نظرة وداع وغادرها كأنما جاء إلا ليأخذ الألبوم والمذكرات. ووضعهما على مكتبه، وطفق يديم النظر إليهما باهتمام وحزن. وفتح الألبوم عن أولى صفحاته، فرأى صورة كبيرة لرشدي تمثلاً واقفاً ويده في جيبي بنطلونه، ما أجمله وما أنضره! .. وسرعان ما طرقت ذاكرته صورة الكلب الميت الذي كدرَ جوَّ يومين كاملين! .. فتاكلت نفسه حسرات! .. ولم يمض في استعراض الصحف احتراماً لأسرارها، وتناول كراسة المذكرات دون أن تحدثه نفسه بالتطفل على مكتونها، بيد أنه لم يقاوم رغبة في فر صفحاتها الأخيرة، فجرى بصره على بعض رءوس النبذ التي تكون خاتمة المذكرات .. فقرأ «حب جديد» .. «طريق الجبل» .. «حديث غرام» .. «آمالنا» حتى مر بصره بهذا العنوان «القبلة القاتلة!». فخفق قلبه بعنف شديد، ما معنى هذا العنوان؟! .. ألم يردد في بعض هواجس حزنه يوماً؟! .. وكان مؤرخاً في ١٢ يناير سنة ١٩٤٢ أي أول عهده بالمرض، فلم تكن ثمة قوة تستطيع أن تعدل به عن قراءته فقرأ وصدره يضطرب ويجيش بالعاطفة:

-الاثنين ١٢ من يناير سنة ١٩٤٢ :

«رباه! .. أنا من اليوم وحتى يشاء الله شخص غريب، في صدره أذى للناس، أنفاسه تهدد العباد، برج متداع من الميكروبات الفتاكـة، لعبت لعبة خطيرة كيلاً تضيع نوال من يدي، اللقاء مبذول، ولكن حذار، نوال محمرة عليك، محـال لـسـها! .. قبلـتهاـ التيـ كانتـ شـفاءـ

للنفس حرام حرام، لشد ما تنكرنى وتعجب لشأنى ولعلها تسائل نفسها  
ماله لا ينتهز فرصة خلو الطريق كما كان يفعل؟.. هل شبع من  
شفتي؟.. أترى فتر حبه؟.. كلا يا حبيتى لم يشبع من شفتيك ولا فتر  
حبه، ولكنه يخاف عليك، ويصون فاك من الهلاك المبين، ليس الذنب  
ذنبي، فقلبى كعهدك به ولكن دونه صدرا عشش فيه عدو شرير أخافه  
عليك وأعيذك منه».

أغلق أحمد الكراسة، وجعل يذرع الحجرة وكأنه يتربّع من شدة  
الصدمة، ثم ارتمى على الفراش فهو يصك جبينه براحته ويهتف:  
«رباه!.. لكم ظلمته.. لكم اتهمته بالباطل!»، وأحس كما لو أن  
منشارا ينشر قلبه فإنَّ أنينا موجعا.

٥٠

وتصرمت الأيام الباقية من يونيو، وجاء يوليو بقيظه الفائز.  
وطلت الكآبة ناشرة رداءها على البيت الشاكل، ولم تفتر همة أحمد  
عاكف في التنقيب عن مسكن جديد، رحمة بوالدته، ولأنه هو أيضاً،  
ضاق بالحى صدرا. وقد خلفت الصدمة في أعصابه الرقيقة آثاراً  
عميقة، فعاوده بعض أرقه القديم، وتلبسته حال من القلق النفسي بات  
معها سريع الانفعال. سريع التأثر. كثير المخاوف مستسلماً للحزن.  
وألقت في صدره الجياش أحزان الماضي والحاضر، وتوجس خيفة مما  
يخبئه المستقبل وما عسى أن يلده من الأحزان والألام، وقال لنفسه،  
وهو يذكر والديه: إن سعادتنا بأحبابنا اليوم مرتهنة بالدموع التي نسكبها  
على فراقهم غدا، وطفق يردد بيت أبي العلاء:

ومن لم تبته الخطوب فإنه سيصبحه من حادث الدهر صابع  
فلم تكن أعصابه مما يعين على تحمل غير الدهر وألام الحياة، وأوشك  
أن يقع فريسة لمرضه القديم، ولذلك صدقت رغبته في هجر الحى وفي  
ذلك الوقت كثر إطلاق صفارات الإنذار ليلاً ونهاراً ولكن لم تضر布  
المدينة كما حدث في سبتمبر، ثم تحرجت الحالة الحربية بتواли تقدم  
قوات المحور، فعبرت الحدود المصرية، وتغلبت فيها، حتى جاوزت  
مرسى مطروح التي كانت تعد أهم خط دفاعي عن مصر، ثم استولت  
على فوكة والضبعة، وبلغ التحرج متهاه بتقدم القوات المعادية إلى  
العلمين! .. تخايلت الإسكندرية لأعين الغزاوة وتهامس الناس بأن  
الضرورات الحربية تذر بتحويل الوطن إلى خراب تنبع فيها البويم،  
ومستنقعات يرعاها البعض.

وفي مساء اليوم الذي بلغت فيه قوات المحور العلمين اجتمع  
الصحاب بقهوة الزهرة كعادتهم، فتلاقوا بالبشر والسرور، وملاوا الجو  
برنين ضحكاتهم، لم يفكر أحد منهم في الهجرة أو في تخزين بعض  
المواد الغذائية، ولا شغل أحد نفسه بتقدير الحالة التي تنشأ عن الغزو  
والحرب في المدن، أو كانوا يتمثلون هذه الحالة مازحين ضاحكين لأن  
الأمر لا يعنيهم، ولسان حالهم يقول: «الأمر لله ول يحدث لنا ما يحدث  
للناس جميعاً». ولم يختلف أحمد عاكف عنهم في شيء، بيد أنه  
وجد في الاجتماع بهم - ذلك اليوم - لذة مضاعفة، كأنه وجد في  
مجتمعهم الصغير ملاداً من القلق العام الذي أخذ يساور النفوس، لم  
يخل قلبه من خوف وقلق ولم يخل من سرور، كان يفكر فيما يحتمل  
أن يحدث فينقبض صدره، ثم تمثل له تلك الحالة التي يختلط فيها  
الخابل بالنابل وتحمّي التبعات وتنهاي القيم فيجد في أعماقه شعوراً بلذة  
خفية تعكسها أعصابه المتوترة، لأن ذلك الغزو المرتقب سيبيه فيما يبيه  
أحزانه وألامه، وسيمحو فيما يمحو من آثار الماضي آثار ماضيه.

قال سيد عارف بلهجه المثبت ما يقول :

- اسمعوا آخر الأخبار . . قسم رومل جيشه جناحين ، وجَّه الأول نحو الإسكندرية وهبط بالثانى صوب الفيوم .

وقال أحمد راشد :

- سمعت أن الإسكندرية تضرب بالقنابل من الجو ومن البر حتى هجرها أهلوها إلى دمنهور .

- هل انتهى الإنجليز حقا؟

- إنهم يحرقون أوراقهم ويرحلون نسائهم !

- متى يبلغ الألمان القاهرة؟

- غدا أو بعد غد .

- إلا إذا ساروا بجيشهم المظفر شرقا إلى السويس .

- سمعت من ثقة أن جنود الباراشوت يهبطون جماعات في الحقول .

وتساءل المعلم نونو :

- ما عسى أن يفعل أحدكم لو هبط عليه جندى من أولئك الجنود وأمره أن يدله على موقع حربى؟!

فأجابه سيد عارف فورا:

- أمضى به إلى شقة سليمان بك عنة وأقول له : «هاك السفير البريطانى»!

فهتف به سليمان بك محنقا :

- أولى بك أن تستوهبه بعض الأقراص لمرضك !

وقال المعلم زفتة :

- أما أنا فأسوقه إلى شقة عباس شفة وأريه أضخم «طابية» فى مصر .

فقال أحمد عاكف داهشاً:

-أليس لهذا المزاح من نهاية؟! .. ألا تعلمون بأننا مهددون بهجر  
ديارنا وربما قذفوا بنا إلى بعض القرى القدرة!

فصاح نونو:

ـ ما أحلاها عيشة الفلاح!

فسأل أحمد راشد:

ـ ألا تخافون الموت؟!

فقال المعلم زفتة:

ـ أعطوني عمراً وارمني على رومل!

وقال المعلم نونو باهتمام مصطنع:

ـ الحق فيما قال أحمد أفندي، الألمان شياطين، وهم إذا هجموا على  
بلد انتشروا في كل مكان، وتخروا في كل زى، فلا يبعد أن نرى  
غداً ألماناً معتممين أو في ملاءات لف .. والله إنني أخاف أن أفتح  
الصنبور لأنوبياً فيخرج لي مع الماء غواص ألماني.

وبغتة انطلقت صفارات الإنذار!!

كانت الساعة السابعة مساءً، فهبوا جميعاً قائمين واختفت البسمات  
من وجوههم، وهرعوا إلى طريق المخبأ. وخاف كثيرون أن تحدث غارة  
عنيفة مدمرة كالتي تسبق الهجوم، وذكروا الإسكندرية والسويس  
وبور سعيد، بل ذكروا وارسو وروتردام؟ .. وبعد دقائق قلائل عج  
مخباً باللجانين. وجلس أحمد مع والديه وقد شمل الجميع قلق  
وخوف، وكأن الأم قد كبر عليها ذاك الحرص على الحياة منها فدمعت  
عيناهما. ومرت ثلث ساعة في ذعر واضطراب وانتظار هو التعذيب عينيه،  
ثم انطلقت صفارة الأمان! .. ودهش الناس، ثم لاح في أعينهم  
السرور والارتياح، وهتف بعضهم: «استكشاف.. استكشاف!».

وහف آخرون: «اقتربت الطيارة من حدود منطقة القاهرة ثم عادت وغيرها اتجاهها!». وتحرك التيار صوب باب المخبأ، وخرج مع الخارجين، وعلى بعد قريب من مدخل المخبأ رأى نوال متأبطة ذراع شقيقها الصغير محمد! . والاثنان يضحكان ويتوسعان الخطى نحو العمارة! .. خفق قلبه لرأهما كما تعود أن يخفق لرأها أو لذكرها، وظل هنئه يتبعها مقلتيه حتى غبيها المنعطف، ثم انقبض صدره ورانت عليه كآبة، وأحنقه ضحكتها وأغضبه فكانه فاجأها متلبسة بجريدة نكراة! .. وبلغ منه التأثر مبلغاً لم يستطع معه العودة إلى القهوة قبل أن يروح عن نفسه قليلاً بالمشي، فمضى إلى شارع الأزهر على مهل، وأخذت نفسه تسكن وتهدا، حتى عاودته حالي العادية بأسرع مما كان يتظر، بل أنسى على نفسه باللائمة لغضبه، وأنكره. ما الذي أوجب غضبه؟! .. ماذا أثار ثائرته؟! .. أوضحكها؟! .. يا عجبا! .. هل حسب أنها تظل باكية إلى الأبد؟! .. ألم يضحك هو مرات سواء في الوزارة أم في القهوة؟! .. ألم يجر الابتسام على شفتي أمه نفسها في بعض الأحيان؟! .. فلماذا لا تضحك نوال؟ .. وماذا يُغضب من ضحكتها؟! .. حقاً إنه النسيان، ذاك الدواء المر الذي يعقب العزاء ويستوجب الحسرة، العزاء عن آلامنا والحرارة على أنفسنا. نقول نسيانا والحمد لله وهي سنة الحياة! .. وتنهد من الأعماق. ثم خطر له خاطر ليس بالجديد عليه، ولكنه كان يروغ منه، يشفق من مواجهته، ييد أنه قال لنفسه هذه المرة: «حتام أهرب وأنجاهل؟! .. ألا يخلق بي أن أواجه الحقيقة وأنعم النظر! .. أما زلت أحب نوال؟ .. لماذا يخفق فؤادي لرأها ولذكرها؟».

وتفكر ملياً. وهوأخذ في مشيه المتمهل. ثم حدث نفسه مرة أخرى وقد تورد وجده الشاحب خجلاً كأنما اطلع على سره الناس جميعاً: «حب، فوقه غصب، فوقه حزن، فوقه ذكرى مروعة. فلكى أخلص

إلى هذا الحب ينبغي أن أدوس كرامتي وذكرى أخي وهو المحال.. . بيني وبين الحب أخي وكبرياتي، والحياة أهون من أن أمتهم في سبيلها هذين العزيزين!». كل هذا حق فهو يحب نوال، ولم يزايله حبها أبدا وإن حججته الآلام كثيراً، ولكن محال أن يعترف لهذا الحب بغاية، فدون ذلك ما هو أقوى من الحب نفسه، ولكن ح TAM يكث على كتب من النار وهو محموم؟!

## ٥١

وفي أواخر أغسطس اهتدى أحمد عاكف إلى شقة خالية بضاحية الزيتون، في بيت يملكه موظف بإدارة الحسابات بالأشغال من كانوا يعلمون برغبته الملحة في الانتقال، وكان يسكنها موظف اضطر إلى فسخ عقدها لنقله إلى إحدى البلدان، فدعا صاحب البيت أحمد وحده بشأنها وتم الاتفاق بينهما سريعاً على أن يتم الانتقال في أول سبتمبر موعد إخلائهما. وسررت الأسرة بقرب الرحيل عن خان الخليلى وذكرياته السود، على رغم أنها ترحل عنه مهيبة الجناح، وقد ألم بالآب ضغط دم نفَّض عليه عزلته، ونال الحزن من الأم فأصابها بالهزال وأغاض مرحها وألبسها ثوب الكبر، بيد أنَّ أحمد - على حزنه - رأى في الأفق نجوماً تخفق. تحدثوا في تلك الأيام عن إنصاف المنسيين من الموظفين، وباتت الدرجة السابعة قربة المنال، وكان دائماً يستهين بالوظيفة والموظفين، ولكنه سر في باطنه بالترقية المنتظرة، وسره أيضاً أنه سيصير رئيساً على أربعة غير ساعي بريد الوارد، ونوى صادقاً أن يجعل من عهد «رئاسته» فتحاً جديداً في حياة الإداراة الحكومية يضرب فيها المثل الأعلى للرئيس «العالم الحكيم»!، ثم من يدرى بعد ذلك بما يخبئه

الغيب؟ .. فأمامه في الحكومة خدمة طويلة تناهز العشرين عاماً، وعسى أن يرقى درجات أخرى؟ وعسى أن تحسن الحكومة الاختيار ولو أخيراً! .. وليس هذا كل شيء، فقد حدث أن اصطحب أمه إلى المسكن الجديد ليعايناه، وهنالك دعاهما صاحب البيت إلى شقته فاحتسى معه القهوة في حجرة الاستقبال، ودعيت والدته إلى حريم الرجل، وعند عودتهما معاً أثبتت أمه على زوج صاحبه وشقيقته، وقالت عن الأخيرة: إنها «أرملة في الخامسة والثلاثين على أدب وجمال». ونشط خياله! .. أرملة في الخامسة والثلاثين، على أدب وجمال يحويهما بيت واحد، وهو أعزب في الأربعين، وزميل شقيقها، ولا فارق في السن من ناحيته ينفر، ولا شباب غض من ناحيتها تتبه به عليه. والظاهر أن الحياة لا تريح من الأمل، هل يعلم الغيب كله إلا الله؟ .. بيد أن هذه الأحلام لا تتافق ورباط رقبته الأسود! .. رباه! .. ما لأحلامه تحلىق في غير حباء؟ .. ولا يبعد في تلك اللحظة أن تكون نوال تسترق النظر إلى أحمد راشد مثلاً. وهكذا تسير قافلة الأحياء لا تلوى على شيء كأنها لم تفقد بالأمس القريب من كان يحل منها بالمكان المرموق. حياة صماء قاسية كالتراب، ولكنها تنبت الأمل كما ينبت التراب الزهرة اليانعة. حزن أحمد حزناً شديداً، ولكن لم يكن من الأمل مفر.

وأخذوا للرحيل أهبتهم، فلفت الأبسطة، وفكَّت الدواليب والأسرة، وجمعت الأوانى والكتب وقطع الأناث، واعتم السير غداً. وعند عصر ذلك اليوم وفدت نسوة العمارة لتوديع الأسرة الراحلة، وكان أحمد لا يزال في حجرته، وجاء فيمن جاء منهن الست توحيدة ونوال، وجلسن جميعاً في الصالة الخارجية لأنها المكان الوحيد في البيت الذي كان صالحًا للجلوس وقتذاك. ولبشت الست توحيدة ونوال بعد انصراف الزائرات. وجاء موعد ذهاب أحمد إلى القهوة ليودع

صحابه، فلم يجد بدأً من المرور أمام الزائرين، ولكن السيدة نهضت قائمة عند ظهوره ومدت له يدها وهي تقول:

- كيف أنت يا أحمد افندى؟

فسلم عليها في أرباكه المعهود وهو يقول بصوت خفيض:

- الحمد لله يا سيدتي ، شكرالله .

ونهضت نوال لنهوض أمها، فتحول إليها مادا يده كذلك ، والتقت يداهما لأول مرة، فسرت في بدنها رعشة، فلم ينبس بكلمة، ولم يرفع عينيه .

وقالت السيدة:

- ما زلت أعتذر لوالدتك عن سلوكنا ، ولعلك تقيم لنا العذر يا أحمد افندى ، ووالله لقد كان المرحوم عزيزا علينا أثيرا الدين وربنا يعلم .

فقال الرجل المرتبك المضطرب :

- كلنا نقيم لكم العذر ، وللضرورة أحكم يا سيدتي .

ودارت المرأة بلباقه حول الموضوع ، وشكرت أحمد لأدبها وحسن تقديره للأمور. ثم استاذن الرجل في الانصراف وسلم على السيدة ومه يده لنوال مرة أخرى ، وفي هذه المرة ، واليدان مجتمعتان ، خطف من وجهها نظرة بعينيه الخجولتين ، ثم اتجه نحو الباب . كانت أول مرة تلتقي العينان عن قرب ، ولم يكن نظر فيهما منذ مداعبات النافذة والشرف على عهد الأمل الأول ، ف الحال أنه طالع فيهما ما كان يطالع من صفاء وحنان وتطلع ، فدق قلبه وهو يبحث خطاه وطرفت عيناه في هياج عصبي . ربما كان موقف الوداع هو المسؤول وحده عن كل ذلك ، فالوداع يستثير حتى عطف أولئك الذين لا يعطفون في غيره من المواقف ، وهكذا اعتذر لضميره ، بسيكلوجية الوداع هذه . عن انفعاله وتأثيره وخطفه النظرة ، خاصة حين خطرت على فؤاده ذكرى رشدي ولاحت

لعينيه صورته المحبوبة وكأنها تبتسم إليه في عتاب، وراح يحادثها بلهجة حزينة مؤثرة: «معذرة يا رشدي، إنه الوداع وأنت أعلم بالوداع، وإنه الألم وأنت أخبر بالألم، ولن تجد مني بعد الآن ما يستحق عتابك». وبلغ قهوة الزهرة، والله وحده يعلم متى يتاح له أن يغشى قهوة أخرى، واستقبله الصحاب استقبالا حافلا يليق باللقاء الأخير، وأمسكوا عما كانوا آخذين فيه من أسباب الحديث ليفرغوا الوداع الجار العزيز، وقال له المعلم نونو متسائلا:

- أنسانا ياترى؟

فقال أحمد وهو لا يدرى إن كان يصدق في قوله أو يكذب:

- معاذ الله يا معلم!

وقال المعلم زفقة:

- ولكن الزيتون هذه بلدة بعيدة لا يبلغها طالبها إلا بالقطار!

فقال أحمد مبتسمًا:

- ما كان لقطار أن يمنع صاحبا عن صحبه!

ثم قال عباس شفة وهو يرفع حاجبيه كمن يذكر أمرا هاما:

- أنا أعرف الزيتون كما أعرف خان الخليلى. مضى زمن كنت أسافر إليها مرة على الأقل في كل أسبوع فأرجع بأحسن أنواع الحشيش.

فابتسم أحمد متسائلا:

- فهل أرجو أن أراك كثيرا؟

فقال عباس شفة بلهجة دلت على الأسف الشديد:

- تلك أيام خلت؛ لقد زجوا بالناجر في السجن ومات فيه.

وأعربوا جميعا عن أسفهم لفراقه، وأنثوا على أسرته أجمل الثناء،

وترحموا على فقيدها، حتى سليمان عنة نفسه قال كلمة طيبة. وفاض قلب أحمد بعوادتهم في تلك الساعة، سواء من يحبه منهم كالمعلم نونو أم من يمتهنه كالأستاذ أحمد راشد، وعجب لقلبه الذي يأسف عن ترك أى شيء. وإن طال برمته به. ساعة الوداع. ثم عاودوا حديث الحرب كعادتهم، وذكروا توقف الهجوم الألماني عند العلمين.

وكان من رأى أحمد راشد أن المحور خسر موقعة مصر، أما سيد عارف فقال بللهجة اليقين: إن هتلر أمر رومل بالتوقف ليتجنب مصر. قلب الإسلام النابض. ويلات الغزو، وإنه لو لا رحمة الفوهرر لكان الألمان في القاهرة منذ شهر. ولبث بينهم مستمتعاً بسميرهم ومزاحهم حتى انتصفت العاشرة فودعهم الوداع الأخير، وسلم عليهم واحداً واحداً، وتقبل تحياتهم شاكراً. ثم قفل إلى البيت.

وفتح النافذة وأطل على الحى. كان البدر. بدر نصف شعبان. يتألق نوره السنّي في سماء أغسطس الصافية، والنجوم من حوله تزهر باسمات في إشراق كأنها يرثى لإدلاله بشبابه الذي علمت منذ الأزل أنه لا يدوم. وقد اكتسى الحى بغلالة فضية بدت وحشة الليل، وأضفت على الأركان والمرات سحراً.

الليلة نصف شعبان، ودعاء شعبان يتضاعد من التوافذ القرية، وذلك صوت غلام يهتف بصوته الرفيع: «اللهم يا ذا المنّ ولا يُمنُ عليه يا ذا الجلال والإكرام»، والأسرة تردد الدعاء وراءه. بينهم صامت وحده! وتساءل عما عسى أن يتوجه به من دعاء إلى ربه؟.. وتفكر ملياً، ثم رفع رأسه إلى البدر المنير، ويسقط راحتيه، وغمغم بخشوع: «اللهم يا خالق الخلق، ومدير كل شيء، تغمّد برحمتك الواسعة، وأسكنه فسيح جناتك، وألهم والديه الحزينين الصبر والسلوان، وأنزل على قلبي السكينة والسلام، واكتب لي فيما يستقبل من الأيام عزاء عما

سلف (وهنا وضع يده على قلبه). فلشد ما تحمل هذا القلب من ألم،  
ولشد ما تجرب من خيبة!».

هل يذكر يوم أقبل على هذا الحى وفي النفس شوق إلى التغيير؟ ..  
لقد حدث التغيير وأحدث دمعا وحسرة، وها هو ذار رمضان مقبل فيها  
للذكرى! .. أيدذكر كيف استقبل رمضان الماضي؟ .. أيدذكر موقفه من  
النافذة الأخرى في انتظار أذان المغرب وكيف رفع البصر فرأى؟!  
وجرى أمام ناظريه التاريخ الذي كتبته الليالي متتابعات حتى هذه  
الليلة بمداد الأمل والحب والألم والحزن.  
 وهذه الليلة الأخيرة. وغدا يبيت في دار جديدة، في حى جديد،  
موليا الماضي ظهره.

الماضى بما أحدث من أمل وما خيب من رجاء .  
فالوداع يا خان الخليلى .

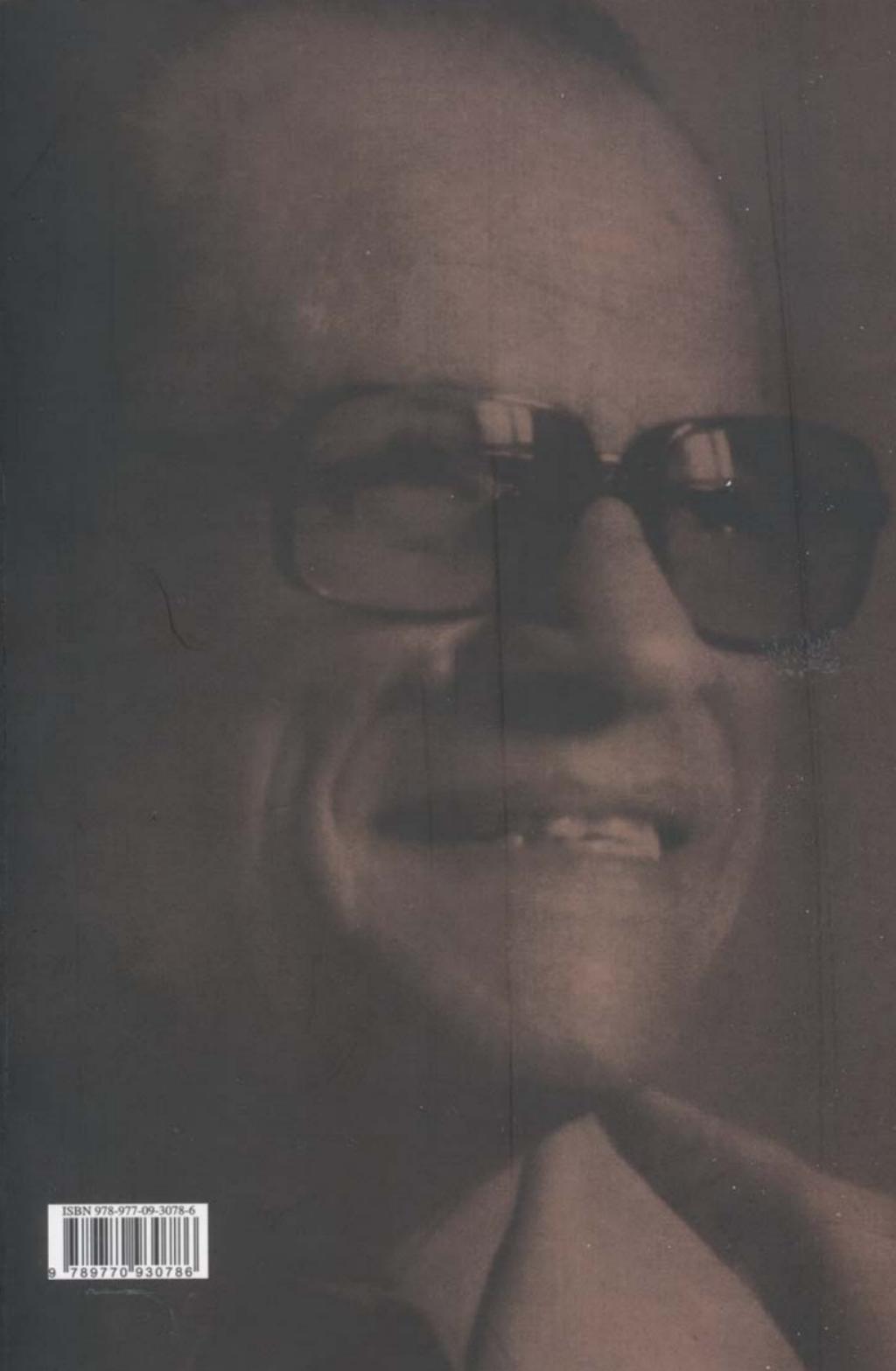
*Twitter: @ketab\_n*

# أعمال نجيب محفوظ

١٩٣٢	ترجمة	١ - مصر القديمة
١٩٣٨	مجموعة قصصية	٢ - همس الجنون
١٩٣٩	رواية تاريخية	٣ - عبث الأقدار
١٩٤٣	رواية تاريخية	٤ - رادويس
١٩٤٤	رواية تاريخية	٥ - كفاح طيبة
١٩٤٥	رواية	٦ - القاهرة الجديدة
١٩٤٦	رواية	٧ - خان الخليلي
١٩٤٧	رواية	٨ - زقاق المدق
١٩٤٨	رواية	٩ - السراب
١٩٤٩	رواية	١٠ - بداية ونهاية
١٩٥٦	رواية	١١ - بين القصرين
١٩٥٧	رواية	١٢ - قصر الشوق
١٩٥٧	رواية	١٣ - السكرية
١٩٦١	رواية	١٤ - اللص والكلاب
١٩٦٢	رواية	١٥ - السمان والخريف
١٩٦٢	مجموعة قصصية	١٦ - دنيا الله
١٩٦٤	رواية	١٧ - الطريق

١٩٦٥	مجموعة قصصية	١٨ - بيت سين السمعة
١٩٦٥	رواية	١٩ - الشحاذ
١٩٦٦	رواية	٢٠ - ثرثرة فوق النيل
١٩٦٧	رواية	٢١ - ميراما
١٩٦٧	رواية	٢٢ - أولاد حارتنا
١٩٦٩	مجموعة قصصية	٢٣ - خمارة القط الأسود
١٩٦٩	مجموعة قصصية	٢٤ - تحت المظلة
١٩٧١	مجموعة قصصية	٢٥ - حكاية بلا بداية ولا نهاية
١٩٧١	مجموعة قصصية	٢٦ - شهر العسل
١٩٧٢	رواية	٢٧ - المرايا
١٩٧٣	رواية	٢٨ - الحب تحت المطر
١٩٧٣	مجموعة قصصية	٢٩ - الجريمة
١٩٧٤	رواية	٣٠ - الكرنك
١٩٧٥	رواية	٣١ - حكايات حارتنا
١٩٧٥	رواية	٣٢ - قلب الليل
١٩٧٥	رواية	٣٣ - حضرة المحترم
١٩٧٧	رواية	٣٤ - الحرافيش
١٩٧٩	مجموعة قصصية	٣٥ - الحب فوق هضبة الهرم
١٩٧٩	مجموعة قصصية	٣٦ - الشيطان يعظ
١٩٨٠	رواية	٣٧ - عصر الحب
١٩٨١	رواية	٣٨ - أفراج القبة
١٩٨٢	رواية	٣٩ - ليالي ألف ليلة

١٩٨٢	مجموعة قصصية	رأيت فيما يرى النائم	- ٤٠
١٩٨٢	رواية	الباقي من الزمن ساعة	- ٤١
١٩٨٣	رواية	أمام العرش (حوار بين الحكام)	- ٤٢
١٩٨٣	رواية	رحلة ابن فطومة	- ٤٣
١٩٨٤	مجموعة قصصية	التنظيم السري	- ٤٤
١٩٨٥	رواية	العاش في الحقيقة	- ٤٥
١٩٨٥	رواية	يوم قتل الرعيم	- ٤٦
١٩٨٧	رواية	حديث الصباح والمساء	- ٤٧
١٩٨٧	مجموعة قصصية	صباح الورد	- ٤٨
١٩٨٨	رواية	شتاء	- ٤٩
١٩٨٨	مجموعة قصصية	الفجر الكاذب	- ٥٠
١٩٩٥	مجموعة قصصية	أصداء السيرة الذاتية	- ٥١
١٩٩٦	مجموعة قصصية	القرار الأخير	- ٥٢
١٩٩٩	مجموعة قصصية	صلى النسيان	- ٥٣
٢٠٠١	مجموعة قصصية	فتوة العطوف	- ٥٤
٢٠٠٤	مجموعة قصصية	أحلام فترة الثقافة	- ٥٥



A dark, moody photograph of a person wearing sunglasses and a hooded jacket, looking slightly to the side.

ISBN 978-977-09-3078-6



9 789770 930786